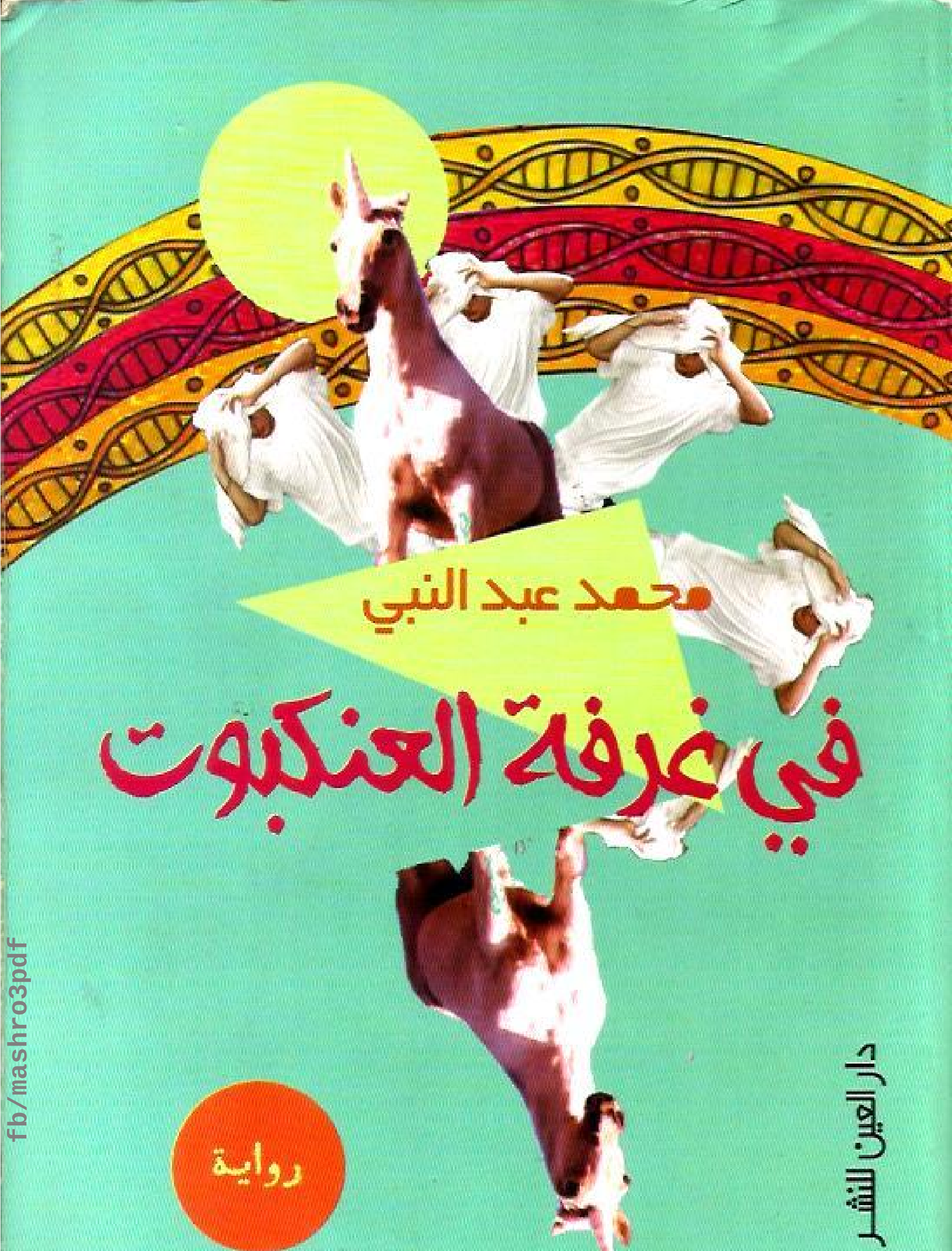

محمد عبد النبي
في غرفة العنكبوت
رواية
دار العين للنشر

في غرفة العنكبوت

في غرفة العنكبوت

رواية

محمد عبد النبي

الطبعة الأولى / ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: عمر مصطفى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦/١٠٥٨٠

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 384 - 7

في غرفة العنكبوت

روايـة

محمد عبد النبي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد النبي، محمد

في غرفة العنكبوت: رواية/ محمد عبد النبي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٣٨٤ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣,٠٢

رقم الإيداع / ١٠٥٨٠ / ٢٠١٦

إهداء:

إلى الأخ الأكبر والإنسـان الأجمل

إبراهيم عبد النبي

ما العشق؟

(هامَ أحد السادة على وجهه بعيدًا عن أسرته، وساءت حالته من عشق صبي يبيع الفقاع، ومن فرط عشقه ذاعت قالة السوء عنه، وكانت لهُ ممتلكات وضياع فباعها واشترى بثمنها الفقاع، وعلى الرغم من تخلّيه عن كل ممتلكاته وترديه في الفقر، إلّا أن عشقه كان يزداد ويتضاعف، وعلى الرغم من توفيرهم الخبز له على الدوام، إلّا أنه كان في جوعٍ دائم، حيث كان شبعه من الروح دوامًا، وذلك لأنه كان يشتري فقاعًا بكل ما يصله من خبز وفير، وكان يمضي وقتًا طويلًا أسير الجوع، وذلك حتى يتجرّع مائة كأس من الفقاع.

وسأله سائل: أيها الحزين المضطرب، ما العشق؟ لتوضح لي سره. فقال: هو أن تبيع مائة عالمٍ من المتاع مقابل كأس واحدة من الفقاع، وإذا لم يرق هذا العمل لآدمي؛ فكيف يعرف العشق والألم؟)

فريد الدين العطّار
منطق الطير

(1)

أذكر الآن جيدًا كيفَ بدأ هذا الكابوس.

كنتُ عائدًا مع عبد العزيز من شقته في شارع قصر العيني، سائرين في حالة صفاءٍ نادر، في طريقنا لنشرب شيئًا في مكان قرب الفلكي، حينما استحوذتْ عليّ رغبةٌ عابثة أن أمسك يده، أو كأنّها لسعة خوف مفاجئة لعقتْ جسدي فأردتُ أن أتشبث به.

ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي أمسكتُ فيها يده في الشارع أمام الناس، والغريب أنه لا أبعد يده ولا صدّني برقة كما توقّعت. أمسك كلٌّ منا يدَ صاحبه، فتبدّد خوفي مجهول السبب

وفي اللحظة التالية نزلتْ على أكتافنا الأكفّ الغليظة. استدرنا في دهشة لنتأكد من أنها ليست مزحة من أصدقاء مزعجين. طلبوا منا تحقيق الشخصية وما زالت أيديهم تتشبث بنا كأننا قد نجري لو أفلتونا. للحظة أحسستُ بالذنب، فكأنهم ظهروا من العدم لمعاقبتنا فقط لأنني مددتُ يدي لصاحبي فأمسكها.

سألهم عبد العزيز قبل أن يُخرج بطاقته الشخصية:

أقدر أعرف حضراتكم مين؟

كان يتحدث في ثقةٍ وانفعال، وأنا أجاهد لأخفي ارتعادي، وردًّا على سؤاله قال مَن بدا أنه كبيرهم:

ماتستعجلش يا حبيبي هتعرف كل حاجة في وقتها.

ثم نظر خلفه، فاكتشفنا وجود بوكس غير بعيد، ونادى على هياتم. كنتُ أعرف هياتم من بعيد، شاب أبيض وبدين وله حاجبان رفيعان كأنهما مرسومان بقلم جاف، اسم شهرته هو هياتم، ولا أعرف اسمه الحقيقي. كان هو مُرشدهم ليلتها.

أتى هياتم وهو يسير بثقة بين فردي أمن في ثيابٍ مَدنية. سأله حسن فوّاز:

مين فيهم؟

فأشار نحوي دون أن ينظر إليَّ كأنه خجلان قليلًا، ثم قال:

لكن التاني ده ما عرفوش، أوّل مرّة أشوفه.

نظر كبيرهم نحوي وسألني بسرعة لإرباكي:

إنت "جاي"؟

فأجبتُه بصوتٍ مرتجف:

يعني إيه؟

فقال:

طب تعال معانا يا حبيبي، واحنا نقول لك يعني إيه.

ثم نظر نحو عبد العزيز، وأمر عساكره:

هاتوا ده كمان لمّا نشوف حكايته إيه.

في أقل من خمس دقائق كنا في البوكس، بين أكثر من عشرة رجال آخرين. كان عالمي الطيّب يبتعد مع مرورُ كل ثانية، بينما يبسط الكابوس جناحيه الأسودين فوق كل شيء. ظللتُ مُتَشبّثًا بيد صاحبي في عتمة العربة.

(2)

اسمي هاني محفوظ، وكنتُ طفلًا وحيدًا مُدللًا من الجميع، كأن أمي الشمس وأبي القمر.

لكنّ أكثر مَن دللني وأحبّني كان جدي الخواجة ميدا، الذي اعتقدتُ أنني قتلتُه وأنا ابن ست سنوات، حين رأيتُه في منامي يوقظني ويُقبّلني ويمس شعري، قبل أن يفتح النافذة ويخرج منها فيصعد للأعلى، حتى يختفي طرف جلبابه المخطط وقدماه الحافيتان في ظلام الشارع. حكيتُ لماما الحلم على فراشها ما إن صحوت، همسًا وأنا خائف لا أدري لماذا، فاحتضنتني وأمرتني ألّا أحكيه لأي شخصٍ آخر، وخصوصًا جدتي سكينة، لأنه:

فال وحش على جدك، وستك تزعل مننا وتعمل لنا دوشة.

ما هو إلّا أسبوع أو أقل ومات جدي، ثم فوجئتُ بماما نفسها تكشف سرنا وتحكي لهم الحلم كأنها فخورة بي، وأعلنت أنني طفل رُوحاني وشفّاف وفيّ شيء لله. لم أفهم شيئًا من هذا، لكني أحسستُ بتغيّر نظراتهم نحوي، ولو لفترة قصيرة قبل أن ينسوا الأمر تمامًا، إلّا جدتي سكينة، أو السكّينة الحامية كما كنا نُسميها أنا وماما سرًا، وقد صارت ترشوني بالحلوى والنقود، كما لو أنني قادر على أن أحلم بموتها هي أيضًا فأجعلها تطير من الشباك وراء جدي. لم يقلل هذا من شعوري بالذنب والتُهمة كأنني قتلته عامدًا، قتلتُ أحبَّهم جميعًا إليَّ، الوحيد الذي حنّ قلبه لتوسلاتي فأمرهم بتأجيل التحاقي بالمدرسة الابتدائية لسنة أخرى، الوحيد الذي أحبّني ودللني كأنني النجم الوحيد في ليل عمره.

اسـم جدي الحقيقي محمد محفوظ، أسـمته ميدا الست اليهودية التـي تبنته منذ أن كان في العشـرين، وألحقته بالعمل في صالون الأزياء الصغير الذي تمتلكـه بالطابق الأول من عمارة قديمة في شـارع عدلي بوسط القاهرة. يُقال إنه أتى إليها جلفًا لا يعرف كيف يلضم خيطًا في إبرة، فعلمتْه صنعة التزرية. وكانت سـتي سكينة تضيف وهي ترقّص أحد حاجبيها: وصنعة اللطافة كمان.

أتخيّله شابًا نحيفًا طويلًا رشيقَ القوام، بعينين عسليتين لامعتين،

خفيف الحركة وحلو اللسان، والأهم من ذلك كله صوته الرائق العذب. كان في سنواته الأخيرة، كلّما فاز بهُدنة قصيرة مع السُعال الجاف ووجع المفاصل، يغنّي لي بصوتٍ أجش وحلو مع هذا: (طلعَ الفجر ذهب الليل والعصفور صَوصو)، فأردّد معه وأنا أتمايل راقصًا.

وفدَ من المحلة، شبه هارب من أهله، ليقتحم مجال الفن، كما كانوا يقولون، اللوثة ذاتها التي لم يسلم منها شخص واحد في أسرتي تقريبًا. تركَ وراءه أسرة فقيرة وكثيرة الأبناء، أغلب رجالها من العمّال في مصانع الغزل والنسيج، حياتهم مرسومة سلفًا من الميلاد للموت، مُشتبكة بتروس الماكينات والخيوط والقماش، لا ينتزعهم منها إلا الموت بأمراض صدرية مزمنة، أو الهرب كما فعل جدي، حين أفلتَ خيطه في اللحظة المناسبة. ربما لأنه كان مختلفًا عن أشقائه وأقاربه، وربما أحسّ بهذا الاختلاف بسبب الإعجاب الذي خصّه به من حوله على الدوام، الإعجاب بصورته وبصوته الحلو، حتى فارَ الطموح في عروقه، ودفعه إلى العاصمة بلا نقود ولا معارف ولا خطة واضحة.

يحكون أنه انتظر نجيب الريحاني طويلًا أمام المسرح، وحينما رآه رمى بنفسه عليه وأخذ يتوسّل إليه ليضمّه إلى فرقته، أو حتى يسمح بأن يسمع صوته ولو دقيقة واحدة، ولعلّ الريحاني كان

مشوّش البال أو منزعجًا لسببٍ ما، وربما لم تكن فرقته في أزهى أحوالها، فنهرَه قائلًا:

هيّا المشرحة ناقصة قُتلى، رُوح يا بني اللـه يسهلّك.

لكنه حين رأى الانكسار على وجه الشاب الشاحب وهو يخطو مبتعدًا، ندَهَ عليه ودسّ في كفه عُملة معدنية ثقيلة، وهو يقول له:

شوف لك شغلانه تانيه بدل ما تموت م الجوع.

من صبيٍ في مقهى إلى بائع قراطيس حَبّ العزيز أمام المسارح والسينمات، أوشك محمد محفوظ أن يتحوّل إلى كلب شوارع يبيت في أي مكان ويأكل ما يجده متاحًا ويحلم بالمجد على الأرصفة وهو يتأمل الأفيشات. ثم تلتقطه الست بيبا، خيّاطة الطبقة الراقية وسيدات المجتمع، حينَ أخذته إليها عاملة شبّاك تذاكر قررت مساعدته. بالتدريج، علمته السيدة بيبا كل شيء؛ كيف يلبس ويتكلّم ويبتسم للناس وينظر في أعينهم عند الحديث إليهم ليوحي بالثقة والكفاءة، وكيف يتعامل مع زبوناتها من الهوانم، وهو يعرض عليهن عينات الأقمشة الجديدة. كان تلميذًا نجيبًا وبعد أشهرٍ قليلة قصّ أول باترون بنفسه.

أطلقت عليه اسم ميدا، تدليلًا من اسم محمد، وصوتًا قريبًا للغاية من صوت اسمها بيبا، ثمّ تطوّع أصحابه المصريون فيما بعد بإضافة كلمة الخواجة للاسم، استظرافًا أو استهانة. وكثيرًا

ما اعتقدتْ زبوناتها أن ميدا يهودي مثل صاحبة المكان، فهي لا تستأمن غيره، ويبدو كأنه الشخص الوحيد المتبقي لها من أسرتها، فلم يرَ أحد لها زوجًا ولا ولدًا.

أتخيّله يزورها في بعض الأمسيات، بعد أن يغلق الأتيليه. يركب المصعد إلى شقتها في العمارة ذاتها التي يشغل الأتيليه نصف طابقها الأول. يضرب الجرس، تفتح له بنفسها بعد أن ذهبت الخادمة، ولا تبتعد عن الباب إلا قليلًا فتترك له مساحة صغيرة ليدخل، بالكاد تتيح له أن يمر وجسده يمسّ روبها الناعم مسًّا خفيفًا. يجد في انتظاره كل ما قد يحلم به شابٌ صغير السن ومغترب ومعجب بنفسه، طعامًا وبيتًا وامرأة تسر النظر، حتى وإن كانت في سن أمه تقريبًا، ومثل أمه كانت تطرب لصوته الحلو وتضحك لنكاته الحاضرة. اشترتْ له عودًا ليتعلم عليه، ثم رتبّتْ له دروسًا في العزف. مساء كل جمعة كانت ترفع عينيها عمّا بين يديها من عمل، وتذكّره قائلة:

ميعاد الدرس يا ميدا.

فينهض صامتًا وباسمًا ليرتدي سترته ويضع طربوشه، ويحمل العود ويتمشى حتى شارع عماد الدين، حيث يلتقي على أحد مقاهيه أستاذه الشيخ الضرير، والذي لم يكن يفوّت موعدًا دون أن يشير إلى (الست)، و(كيف حال الست بيبا؟ سلّم لي عليها كتير)،

أو يسأل متهكمًا: (يا ترى هتفضل عوّاد خصوصي للست ولّا ناوي تحترف يا سي ميدا؟). يبتلع ميدا الإشارات الساخرة لأستاذه صامتًا وباسمًا. هكذا أحبُ أن أتخيله الآن، خجولًا وباسمًا وقليل الكلام، ربما في ابتسامته شيءٌ من الاستهانة بالناس وبكل ما في دنياهم، عدا الطرب والانبساط وسيدة نعمته.

أظن أنها لم تأخذه فجأة، بل مهّدت وصبرت. لم تتعجل الثمرة فتقطفها خضراء وتلتهمها فجّة بسرعة ونهم كالجوعى والمحرومين، بل تركته يروح ويجيء أمام عينيها الواسعتين الداكنتين، يضبّع على مهله لكنته المحلاوية ويزقزق بمفردات إنجليزية وفرنسية يلتقطها منها ومن الزبائن، يعرف كيف يلبس ويختار اللون والمقاس الذي يبرز رشاقته وعضلاته المقسّمة. أتخيّل أن أول لقاء جمع بين جسد العجوز الصبور والشاب المعجباني، حدثَ بعد أن تبنته بفترةٍ طويلة، سنة أو أكثر. أراه الآن يجلس متربعًا على أريكة وثيرة في شقتها، يلعبُ على العود ويغني لها:

خفيف الروح بيتعاجب برمش العين والحاجب.

قامت وجلست بجانبه، قريبة بما يكفي لأن تمسح بيدها على شعره البُنّي المجعد اللامع. ظل مُغمضًا وباسمًا حتى أنهى وصلة غنائه، ثم التفتَ نحوها، سعيدًا ببلوغ اللحظة التي طال انتظاره لها. وقلبَ العود على وجهه غير بعيد، ثم رأى عينيها غارقتين في ماء

مُهتز يكاد ينفلت. ضمّها إليه بحنان ورقة، كأنه يخشى أن يحطم عظامها النحيفة. في هذه اللحظة ربما يكون محمد محفوظ، أو الخواجة ميدا، قد فهم السر وراء هربه من بلده وأهله، ليس خوفًا من الموت بمرضٍ صدري، ولا طمعًا في أمجاد الفن والشُهرة، ولا سعيًا وراء المغامرات واكتشاف الدنيا. لم يأتِ إلى هُنا، إلى أم الدنيا، إلا ليعود إلى بيته الحقيقي، الموعود له من زمان، في جسد الست بيبا.

لعلّها قالت له في تلك الليلة الحنون:

إوعى تغصب نفسك على حاجة.

فيرد بصوتٍ له حفيف كالحرير:

ده أنا أتمنى يا ست.

(3)

في المنام المخيف اتخذ كل شيءٍ مظهرًا حقيقيًا أكيدًا، كنتُ ألمس الأشياء وأشمّها وأرى الأبعاد والألوان والوجوه. حثني دافعٌ مفاجئ على أن أحكي الحلم لشخصٍ ما، أي شخص، ودون تفكير في محتواه المخزي وجدتني أبحث عن زوجتي شيرين في الشقّة، متحركًا ببطء وهدوء كأنني شريد اقتحم منزلًا غريبًا، ودون خجلٍ مع ذلك من عُري جسدي.

كانت جالسة بمفردها إلى منضدة المطبخ، منهمكة في تقوير الكوسة بمقوار حاد ولامع كأنه سكّين، رحتُ أفرغ لها كل ما رأيته في الحلم بلا مقدمات، كيف كنتُ أسير بجانب عبد العزيز، ثم خوفي

المفاجئ وإمساكي يده والقبض علينا والمرشد هياتم والبوكس والحجز، ثم إطلاق سراح عبد العزيز، وكيف تركني هناك وحدي. تُسرع هي من حركتها في التقوير فأشعر بشهوةٍ غريبة ومُخجلة تنبض أسفل خصري، مددتُ يدي ببساطة وأخذت اللباب المتساقط من الكوسة ووضعته في فمي وكانت لذته تفوق الوصف، لكني اكتشفت أن يدي قد جُرحت من حركة المقوار غير الحريصة، وسال الدم من فتحة الجرح الصغير غزيرًا كأنه ينزف من ثقب أحدثته رصاصة، وحين نظرتُ مُستنجدًا نحو شيرين لم أجد أمامي سوى خالتي حسنية في عز شبابها تدخن سيجارتها بهدوء، مُطْلقةً ضحكتها السائبة، وسرعان ما بدأتْ تترنم بمطلع إحدى أغنياتها: "يا مين يدل الغريب على بلاد الحبيب؟"، وبينما تغني رفعتْ ركبتها شيئًا فشيئًا ليظهر هيكلها العظمي عاريًا من الجلد واللحم. هربتُ من الشقة راكضًا، ذُعرًا من خالتي الميتة وصوتها النائح الموجع أو بحثًا عن علاج لإصبعي الذي ملأ أرضية الشقة دمًا حتى كدتُ أنزلق فيه أكثر من مرة، وسرعان ما تبينتُ أنني ألبس في قدميّ قبقابًا خشبيًا وأن البخار يتصاعد من حولي، وأنّ عبد العزيز يجلس جواري يربّت على كتفي ويُطمئنني بعبارات ودودة، وحين أردتُ أن أريه إصبعي لم أجد فيه جرحًا، فقال لي إنه لا بدّ أن يذهب الآن، ووجدت أن البخار الذي يحيط به يلتهمه من الأسفل للأعلى حتى تآكل شيئًا فشيئًا داخل ألسنة بخار الماء، إلى أن تبدّد وجهه واضح

القسمات في النهاية وهو يبتسم في إشفاقٍ وخجل.

ثم ظهرَ أول عنكبوت أسود هائل، لا أدري من أين انبعث فجأةً متوجهًا نحوي، ومن خلفه يدب اثنان آخران، ثم خمسة، ثم لم أعد قادرًا على عدّ جيش العناكب الجرّار، ولا أدري أين أختبئ منه، حتى شعرتُ بأوّل واحد منها يصعد على بدني العاري فصرختُ دونما صوت، وأفقتُ على منظر الوجوه المذعورة للمحبوسين معي.

(4)

استوى جدّي بين يديّ سيّدته، مع الوقت، رجلًا يملأ العين. هدأ الشغف بالفن والموسيقى، وأضحى العزف على العود والترنم بالغناء مجرد هواية يخلو إليها في أوقات الفراغ أو في ساعات الأنس برفقتها. رفضَ دون تردد عرضًا للعمل عوّادًا في فرقة محترمة جاءه به أستاذه القديم. لا بدّ أنه قد أحبّ بيبا، كما أحب مهنته الجديدة، القماش الذي يتحوّل على يديه إلى كائنات تكاد تتنفس، عندما تغلّف أجساد النساء والبنات.

ظلّ معها بينما تتقدّم في العمر، وتفقد مع كل مساء بَتْلة أخرى

من بتلات زهرتها المعمّرة. تحوّل العشيق في النهاية إلى ممرضٍ ومُدلك، فكانت هي مَن شجّعه على الزواج من فتاة التطريز سكينة حين انتبهت لكلامه عنها والشجارات المتكررة بينهما. ساعدته على استئجار شقّة عابدين وتأثيثها، ثم استقبلت ابنهما الوحيد، أبي أحمد، مثل جدة طيّبة. كان لأبي ذكريات مشوّشة من زياراته في الأعياد للست العجوز، وقرفه من قبلات شفتيها الرطبتين، التي يمسحها فورًا. اقتربت من التسعين حتى لم تعد صحتها تسمح لها بمغادرة شقّتها والنزول للإشراف على الأتيليه الذي ما زال يحمل اسمها، ولو أن ميدا صار هو الكل في الكل.

حين انقلب الرأي العام في مصر ضد اليهود ألقى بعض الشباب الغاضب عبوّات حارقة على واجهة الأتيليه. كانت الخسائر تافهة وأطفئت النيران في لحظة اشتعالها، فاقترح عليها جدي أن تصفّي أعمالها ثم ترحل إلى أي بلد آخر كما فعل كثيرون، أو أن تقيم مع بعض من تبقوا من أهلها، أجابته في مرارة:

أهلي مين؟ أنا ماليش حد غيرك يا ميدا، ليّا بنت أخت واحده زي العقربة تنتظر موتي بفارغ الصبر.

سدًا لباب الشر، اكتفيا بتغيير اسم المكان إلى أتيليه ميدا، بإصرارٍ منها، ولم يكن جدي يعلم حينذاك أنه قد صار المالك الفعلي للمكان، في الأوراق الرسمية من قبل تعليق اللافتة الجديدة، أو هذا ما كان

يزعم. شهور معدودة وأسلمت الروح وهي نائمة. في الليلة السابقة كان قد جلس معها وغنى لها طقطوقة قديمة تحبها:

متنا في حبك يا نور العين وجِيينا... كأن يا بدر لا رُحنا ولا جينا.

توقف حين أحس أنها نامت وسمعَ غطيطها الخافت. تأمل ابتسامتها الملتوية نحو جانب فمها، ثم قبّل بخفة جبينها الشمعي الأملس.

بعد موت الست بيبا، فوجئَ الجميع بأنها قد أورثت جدي ميدا الأتيليه. اندهش هو نفسه، وربما تظاهر بالدهشة، لكنّ أحدًا لم يصدقه، خصوصًا ابنة أختها التي أرسلت محاميها فأذاقَ جدي المرار حتى اعترف بصحة العَقْد، فهل بقيتْ في نَفس ميدا غُصّة رغم فرحته أم هكذا أحبُّ أنا أن أرسمه؟ وليس كما صوّره أبي أو جدتي سكينة، في نسخة مختلفة عن قصة الحب الناعمة هذه، نسخةٍ جافة يمكن اختصارها كالتالي: الشاب المليح الفهلوي يُشاغل العجوز المتصابية حتى يأكل بعقلها حلاوة، وضحكة ثم غمزة ثم أغنية بعد أخرى بصوته الحلو يُفتح أمامه الباب المفضي إلى بُستان الملذّات، وفي منتصف البستان يعثر على البئر، وكان للشاب لسان طويل بارع فراح يلعق ويلعق، حتى تهدّج ماء البئر وفاض، فتشهقُ صاحبة البُستان، وتغمغم بصوت مكتوم:

أنا ملكك يا ميدا، اعمل فيّا ما بدا لك.

وهكذا كتبتْ له عقد تنازل الأتيليه، وهي هائمةٌ في ملكوتٍ آخر. لا أستطيع أن أتخيّله هكذا، ربما لأنني وعيتُ عليه بعد أن نعّم الزمن حوافه ونفض عن بدنه آخر ريشة للطاووس القديم. كما أنني لا أثق كثيرًا في روايات أبي وجدتي عنه بسبب خلافاتهما الدائمة معه.

لديّ ذكريات معه لا شكّ فيها، ولم أستمدها من أحد. كان يأخذني معه إلى الأتيليه، قبل أن يرفع الراية البيضاء أمام التهاب المفاصل ويترك كل شيء بين يديْ أبي. كنتُ ما بين الخامسة والسادسة حينها، دُمية مرسومة مثل تلك التي يعلقونها في واجهات المتاجر أو يصورونها في إعلانات اللعب والألبان. تخاف عليّ أمي فتعلّق لي خرزة زرقاء وتدس حجابًا تحت ثيابي كان يوجعني كأنّ فيه حصاة كبيرة، ولا يصمد كل هذا أمام الإصابة بالعين والحسد فأمرض وأسخن، لتحرقَ هي البخور وتقصّ العرائس الورقية وتشكّها بالإبرة من أعين الناس، جميع الناس واحدًا بعد آخر بأسمائهم، وأنا بين الأغطية وللعرق البارد ملمس لذيذ على جلدي، وأتخيّل كل هؤلاء الناس يكرهونني لسببٍ ما، ربما لأنني ولد أو لأنني جميل. شعرتُ أنّ فيّ شيئًا خطأ يجعلُ مَن حولي يتمنون أذاي ومرضي وموتي.

وكل مرة تروح الحمّى وأنهضُ جائعًا. أعود دميةً خزفيةً لامعة،

بشَعرٍ فاحمٍ غزيرٍ وناعم، ينسدل على جبيني وكتفيّ. وأعود إلى التشبّث بجدّي عند خروجه فيأخذني معه، غير مكترثٍ لممانعة أمي وأوامر ستي سكينة وخوفهما عليّ. وهناك أعود إلى اللعب بقصاصات القماش الملونة وتصفح مجلات الموضة وتشمّم مكواة البخار متلذذًا برائحتها وصوتها. أسرح مع تماثيل مانيكان قليلة، بلا رؤوس وواقفة على ساق واحدة كأنها عصا، أتخيلها نساء مسحورات خارجة من حواديت أمي. وأحيانًا أقلّد جدي فأمسك بالمازورة لآخذ مقاسات السيدات الجميلات، إلى أبعد ما يمكنني أن أصل إليه من أجسادهن وأنا أشبّ على أطراف أصابعي. ينتبه بعضهن فجأة للبدر الصغير يسعى بين أقدامهن ورأسه لا تكاد تبلغ ركبهن العارية. بينهن نجمات معروفات. ذات مرة انحنت نحوي إحداهن ورفعتني أمامها تتأملني بدهشة باسمة، ضمتني إليها وهات يا بُوْس، وهي تسأل:

إيه الجمال ده كله؟ انتا اسمك إيه؟

هنّووون.

كانت مديحة كامل، في عز شبابها، في ضحكتها بحّةٌ وعيناها لامعتان. عدتُ يومها إلى البيت يومها محمّلًا بثروة من الشوكولاتة، قلتُ لهم إنني سأتزوج مديحة كامل، وحين سألوني عن السبب قلتُ لأن وجهها شَبَه التفّاحة ورائحتها حلوة.

(5)

سرعان ما بدأتُ أعتادُ غياب جدي وتطلّعتُ نحو أبي مُنتظرًا أن يقدّم لي بديلًا أو تعويضًا ما. كان ينساني أيامًا، ثم ينتبه لوجودي فجأة، كأنني طفل الجيران، موجود في بيته بالصُدفة، فيعرض عليّ أن أذهب معه إلى المقهى أو أصحبه إلى العمل. كنتُ أفرح بالعودة إلى أتيليه جدي، أحبّ التوتر الساري في المكان، البنات في أماكنهن وراء ماكينات الخياطة أو عاكفات على إتمام بعض القطع بالخيط والإبر، وزوّار أبي لا ينقطعون، خصوصًا بعد حلول المساء وذهاب العاملات.

تغيّر المكان مع الوقت، انقطعتْ عنه نجماتُ السينما والكعوب العالية والركب العارية، ويومًا بعد آخر بدأ يستقبل الموظفات والأمهات اللاتي يجهزنّ لزواج بناتهن. كان أبي يشتغل مع التليفزيون ومنتجي أفلام المقاولات. عرف كثيرين منهم في أيام أوهامه الفنّية وعربدة شبابه. يتفق بنفسه مع أحد مساعدي الإنتاج على المطلوب، ويأخذ بعض الرسوم المبدئية، ثم يوجّه البنات ويتركهن لإنجاز العمل كله، متفرغًا للإدارة ثم لليالي الأنس مع أصحابه من أهل الفن والمزاج. لا أظن أنه قد ورث عن جدّي ضربة المقص، ولا إحساسه بأجساد النساء ولا شرود نظرة الفنان أو صوته الحلو. ومع هذا، ربما كان وراء اقتحامه دنيا الفنانين ولعٌ موروث عن أبيه أو غيرة أضمرها نحوه.

في شبابه الأوّل أقنعه بعض أصحابه من هوام الوسط الفني أنه قد يصبح فتى الشاشة الجديد لو أتيحت له الفرصة المناسبة، فأخذ يسعى وينتظر، ومنعته عِزة نفسه من القبول بأدوار الكومبارس ولو مرة واحدة. وفي هذه الأوساط رأى فتاةً فأعجبته، وفكّر في الزواج منها رغم أنها مجرد كومبارس. هذه هي أمي، بدرية، بَدرِدَر، بَدارة. ابنة المغربلين الهاربة هي وأختها الكبيرة حُسنية، أو حُسنى كما يعرفها جمهورها، من قصة معقدة لا تبتعدُ كثيرًا عن روايات السينما التي جذبتهما أضواؤها. كانت الصغيرة أجمل وألطف، رآها أبي في أستوديو جلال، وحاول التقرب إليها فصدّته

عنها بعُنف صريح، قائلة:

أنا جايّه هنا آكل عيش، مش أعمل غراميات، مفهوم يا أخ؟

عاد إلى أبيه في اليوم نفسه وهو يغلي، وطلب منه أن يذهب معه حالًا إلى أستوديو جلال، سخرَ منه جدي ميدا قائلًا:

خير؟ هيمضوا معاك عقد احتكار وعاوزين ولي أمرك؟

انفعلَ أبي، وهو يخبره برغبته في الزواج من ممثلة كومبارس تصوّر فيلمًا هناك. لم يقتنع جدي إلا بعد إلحاح ستّي سكينة عليه أيامًا وليالٍ. واستسلم لهما في نهاية الأمر، على أمل أن يُصلح الزواج حال ابنه الوحيد الطائش، الذي تجاوزَ العشرين دون عملٍ أو شهادة، وأصبح شبه مُتفرّغ للنسوان ورفاق السوء.

كانت بدرية وأختها قد تركتا بيت المغربلين منذ فترةٍ طويلة وأقامتا في لوكاندة رخيصة بوسط البلد، فرعان مقطوعان من شجرة، ليس لهما إلا خالٌ مُسِنٌّ جَرّته شيخوخته إلى حالة من الخرف والهذيان، فلم يجد جدي مَن يتقدّم له بطلب الزواج إلا المخرج فطين عبد الوهاب، فذهب إليه مع أبي في موقع تصوير آخر أفلامه، أضواء المدينة، وقيلَ إن شادية وأحمد مظهر قدّما التهنئة للعروسين، أو هكذا تُردّد الحكايات العائلية.

اشترطَ أبي على عروسه أن تقطع علاقتها بالتمثيل والفن نهائيًا،

فوافقتْ دون تردد. أظن أن بدرية قالت لنفسها "ضل راجل ولا ضل حيطه"، ومن يدري ربما يكون قلبها قد مال لأحمد الأسمر الجريء المهزار. لم تكن تعتبر التمثيل إلّا بابًا للاسترزاق، مهنة يعتبرها أغلب الناس مشبوهة، والزواج سُترة. ولعلّها تمنت أن تعثر أختها الكبيرة أيضًا على ابن الحلال، وراحت تدعو لها بذلك بعد أن ذاقت نعمة الطمأنينة.

حين كانت خالتي حُسنى تزورنا في شقة عابدين، كان جميع أهل أبي يختفون فجأة، في مشاوير طارئة أو يغلقون عليهم باب إحدى الغرف. لا يُرحّب بها أحد سوى أختها المحرجة وطفلها الجميل. ربما لأنها كانت تلبس فوق الركبة وتضحك بصوتٍ عالٍ وتدخن كالرجال ويعلو صوتها وهي تداعبني قائلة:

لولاك إنت يا ننّوس عيني ما كنت عتّبت البيت ده.

كلّما نصحتها أمي بالتعقّل تتمادى في استهتارها، خصوصًا بعد أن بدأت تغني في صالات ومسارح مُنوعات درجة ثالثة، ويبدو أن سيرتها كانت تصل إلى أبي وهو سهران مع أصحابه، تأتيه أخبارها بعد إضفاء لمسات المبالغة الضرورية، فيُزعج هو ماما بتلك الأخبار. لعلّ هذا ما شجّعه على أن يحاول الاقتراب منها ذات مرة وهي تزورنا وماما في المطبخ. علا صوت خالتي وأهانته أمام زوجته وأمه، لم يسكت لها وسبّ كلٌّ منهما الآخر، قبل أن

تتصرف تاركة البيت مشتعلًا. لم تعد إلى زيارتنا منذ ذلك اليوم إلّا بعد وفاة أبي.

كانت جذوة الحب بين أحمد وبدرية قد خمدت بنفس سرعة اشتعالها، فعادَ إلى سيرته الأولى، واصلًا الليل بالنهار في مجالس الأنس والفرفشة، التي اطلعتُ بنفسي على بعض مشاهدها، كلّما نجحتُ في التعلّق به عند خروجه. رأيتُه مرة يُنظّم أصابع الحشيش في علبةٍ خشبية أنيقة مُطَعّمة بالصدف. رماني بنظرةٍ جانبية، وقال غامزًا:

مزاج الباشوات ده يا هنّون، لما تكبر هندوق وتعرف.

وكم كنتُ أشتاق أن أكبر وأذوق وأعرف. ومرّة أخرى رأيته يدخل الحمّام وراء واحدة من بنات الأتيليه، ثم يخرج بعد قليل وهو يمسح فمه. كنتُ واثقًا بأنهما فعلا ما يفعله الممثلون في الأفلام، وفي ذلك أيضًا كنتُ شديد اللهفة لأن أكبر وأذوق وأعرف. وبسبب الحشيش غالبًا اقتسمَ أبي الأتيليه مع أصحاب ورش أخرى، وصارَ مفتوحًا كأنه سوق.

أرى نفسي الآن، في العاشرة من عمري أو نحو ذلك، جالسًا بجانب الشباك الصغير بقضبانه الحديدية الرفيعة، حتى أتنفس هواءً نظيفًا غير ما يهيم في الصالة مُشبعًا برائحة مزاج الباشوَات يا هنّون، ورأسي يدور قليلًا. كان ذلك الشباك هو لُعبتي السرية،

لأنه يطل على طُرقة صغيرة، في الركن منها مبولة أقامها هناك أصحاب بعض الورش، لأنّ أغلبهم يعمل في غرفة أو اثنتين بلا حمّام. كنتُ أحبّ جلوسي في هذا الركن، لأنني أصيرُ فيه خفيًا عن أعين أبي وأصحابه، وأيضًا لكي أتلصصَ على المتبولين. لا ينتبه أحد للصبي المسترخي في خمول. أرمي طرف عيني كلّما لمحتُ رجلًا يقف أمام المبولة مُتناولًا عضوه من تحت ثيابه، فأتأملُ خلسةً تلك الحمَامات كما يسمونها، متسائلًا عن سر التسمية، فهل تطير كالحمامات؟ لم ينتبه أحد سوى رأفت.

كان يعمل مقصدار، شابًا له شاربٌ رفيعٌ ومستقيم، ويفرق شعره الأسود الثقيل من الجانب. أتذكره الآن يرتدي على الدام فانلة حمراء لامعة القماش وطويلة الرقبة، لا بدّ أنه كان يحبها جدًا، لكنّي لم أره قط في ثياب متسخة أو مهترئة مثل حال أغلب العاملين في ورش العمارة، ودائما ما كان صوت ضحكته الرائقة يجلجل على السلالم. هو وحده مَن لاحظ طرفَ عيني المتسلل، بل وأحب فرجتي على عضوه وتظاهرَ بالغفلة كأنّه لا يراني، وأخذَ مع الوقت يتمادى ويداعب حمامته البيضاء الناعمة، فيشتدّ عودُها وتحدثُ المعجزة التي كنتُ أراها لأول مرة، الحمامة تنتفخ كأنها ستطير، فهل تنوح مثل حمامات منور بيتنا؟ وعلى غفلة مني ينظر إليّ فيمسكُ بعينيّ تلتهمان قضيبه. انكشف أمري، وتوقعتُ مرتعدًا أن يشكوني لأبي، لكنه لم يفعل.

في المرة التالية لوقوفه هناك، وما إن استطعت تمالك نفسي والنظر إليه، حتى ابتسم لي ابتسامة خفيفة، وهزّ رأسه هزة صغيرة كأنه يدعوني لاستكمال اللعبة معًا، لكني أشيح بوجهي وقلبي يخفق بشدة وأسمع خفقانه يضرب في أطرافي وتتحوّل صور المجلة التي بين يديّ إلى مجرد بقع ملونةٍ بلا معنى، ثم أنتبه لأبي يقهقه بعد أن احتدمت السخرية من أحد أصحابه إذ انسطل وخرّف بالكلام. وقد ينتبه بابا إلى وجودي فجأة، فيطلب مِني أن أقلّد لهم فريد الأطرش. هنا أضع مجلتي المصورة جانبًا وأقفز من فوق مقعد الفوتيه وأقف بينهم وسط الصالة، مُتشنج الوجه والفم، مصطنعًا الآهات والليالي، قبل أن أغني بطريقة مضحكة، مُستلهمًا لبلبة الطفلة التي شاهدتُها في التليفزيون تقلّد الفنانين:

مش كفاية يا حبيبي مش كفاية، عايزك إنت، قلبك إنت.

تفرقع الضحكات من حولي مثل بُمب العيد، وربما علّق بابا بعبارة فخرٍ مازحة:

الفن بيجري في دمه من الناحيتين.

عندئذٍ يصير هاني شيئًا آخر، يصيرُ مهرجَ الملك ومركزَ الانتباه، يصيرُ أضحوكة الرجال ومحط نظرات أعينهم المختفية وراء الجفون المثقلة. عشقتُ هذا الدور زمنًا طويلًا، واندمجتُ فيه. بين الحين والآخر، وفي عز الاستغراق في لعبتي بينهم، كنتُ ألمحُ

وجه رأفت من وراء الشباك الصغير، واقفًا هناك، يتابع العرض المجاني، مُبتسمًا ابتسامةَ كاتم الأسرار.

(6)

كلّما تقدمتُ في الكتابة تتسع هذه الغرفة الصغيرة، وتتراجع جدرانها مبتعدة حتى تختفي تمامًا، وتبقى صفحات الدفتر أمامي هي المكان الوحيد الحاضر. أراوغُ، فآخذ الذاكرة لأبعد ما يمكنها الوصول إليه، تأجيلًا للمواجهة. أشعر كأنني أودّع حياتي بتكفينها في سطورٍ وكلمات. لم أقترب من الجروح المفتوحة بعد، ما زلتُ ألف وأدور على الورق، تمامًا كما أسيرُ مُضيّعًا جسدي في زحام وسط المدينة كل ليلة.

قبل يومين، خرجتُ في جولتي المسائية فاكتشفتُ أنني نسيتُ

نظارتي السوداء وخرجتُ مكشوفَ الوجه. رفعتُ يدي اليمنى لكي أضبط وضعها على عينيّ ففوجئتُ بأنها ليست هناك. شعرتُ وكأنني نزلتُ إلى الطريق عاريًا لا يسترني شيء. لم أكن قد ابتعدتُ إلّا بضع خطوات عن باب العمارة التي يشغل الفندق طوابقها الثلاثة العليا. نظرتُ حولي بسرعة، على سبيل الاطمئنان، لم أجد ما يُريب، ومع هذا فقد وجدتني أرتعش، على الأقل أصابع يديّ كانت ترتعش بوضوح. تظاهرتُ بأن كل شيء عادي، محتاطا لمراقبةٍ ما، كأنّ عينًا كبيرة واسعة، مفتوحة ليل نهار، ترصد أدقّ تحركاتي، وربما خواطري أيضًا. لستُ وحدي، ولم أُشفَ بعد. فتّشتُ في جيوب معطفي وبنطلوني رغم تأكّدي من أنّ النظارة هناك، على زجاج التسريحة بالغرفة. كنتُ أتصرّف وكأنني نسيتُ شيئًا ما لكي أنقل الرسالة المناسبة لتلك العين الخفية. استدرتُ ورجعت، أكاد أتعثر في خطواتي. حدثَ هذا كله في أقل من ثلاث دقائق، غير أنه كان كافيًا لأن أعرف أنني ما زلتُ بعيدًا.

ما زلتُ أستيقظ في عز الليل مفزوعًا، لا أعرف أين أنا. في إحدى نوبات الاختناق تلك، رحتُ أنظر إلى علب وشرائط الأقراص في درج الكومودينو بإغراء أن أتناولها كلها، فتنتهي الحكاية وأستريح. امتدت يدي إليها وأنا أكتم البكاء، وبدأتُ أمزق السُلوفان المغلف لأقراص الزاناكس بلونها الوردي الباهت الحزين، عندئذٍ ظهر صديقي الوحيد، عنكبوتي الأسود الصغير الذي التفيتُ

به يوم خروجي من السجن في هذه الغرفة ذاتها قبل أسابيع، أخذ يتسلّق أصابعي ببساطة ومودّة ودون خوف، وكأنه يوقف يدي ويحاول منعي، ويهمسُ لي بأن أهدأ وأفكّر مرة أخرى. تراجعت وظللتُ أرنو إليه يسعى فوق رسغي وكفي، ثم عدتُ للكتابة وأنا أتخيل نفسي عنكبوتًا أخرس ينسج من حوله بيته الواهن عسى ألّا يضيع.

كان طبيبي النفسي، دكتور سميح، قد قال لي اكتب يا هاني، أرجوك، ابعث لي إيميلات بانتظام أو حتى رسائل على الموبايل، إن كنت فقدت قدرتك على الكلام فأنت تستطيع أن تكتب، كلّما شعرتَ بالاختناق اكتب. احكِ ما حدث على الورق ولو لنفسك، اغسل نفسك مما لوّثها هناك. عندما قال اغسل نفسك أحسستُ أنه يرى ما بداخلي، كأنه يعرف أنني أقضي وقتًا طويلًا تحت ماء الدش منذ أن خرجتُ من السجن لأنظّف نفسي. بدأتُ أفكّر في اقتراحه بجدية، كتبت أول جملة في تلك الليلة على صفحة من دفاتري الصغيرة التي صرتُ أتواصل بها مع الآخرين "اسمي هاني محفوظ". لكنّي مزقّتُها ورميتُها، وتناولتُ قرص منوّم فغبتُ بعد دقائق.

أنام، طوال الوقت أنام، أغرقُ في إغماءات طويلة لا تقطعها إلّا ضرورة البقاء حيًا، يوقظني العطش أو الرغبة في التبول، أو الكوابيس طبعًا. لا أكاد أذكر منها غير صدمة نهاياتها.

وقد تزورني أحلامٌ عادية أحيانًا، بعضها يعيدني من جديد إلى السجن، بأدق تفاصيل العنبر والمسجونين معي، فأشعرُ خلالها بألفة دافئة مثل مَن أعادوه إلى بيته وأهله أخيرًا. لم أخرج بعد من الكابوس الطويل، وإن ابتعدتُ عنه بجسدي. لم يزل الطائر الأسود جاثمًا فوق رأسي. ظللتُ أتجنب النظر في وجوه الناس، في الشوارع والأماكن العامة، وإذا ما طالتْ نظرة أحدهم نحوي ولو لثوانٍ كنتُ أرتبك، وأشيح بوجهي ثم أبتعد سريعًا بأصابع مرتجفةٍ وريقٍ جاف.

اعترفت للدكتور سميح على الإيميل بأنني أحيانًا أتخيّل أسوأ الاحتمالات، كأنني أستمتع برُعبي وأغوص في طينه اللدن المعتم. بينما أسير بلا هدف كنت أتخيّل يدًا ثقيلة تحط فجأة عليّ، كمّاشة حيّة تقبض على عنقي، أتوقع نزولها عليّ في أي لحظة ومع كل خطوة. أشعرُ بانتصارٍ صغير كلما استطعتُ أن أتناسى هذا التهديد وقدتُ أفكاري بعيدًا عنه، ولا تمضي خمس دقائق قبل أن يعاودني من جديد، فأشعرُ بذلك الشخص المجهول، يقترب ويثبتني وينزع نظارتي عن وجهي بحركة واحدة عنيفة، فتقع على الأرض. يتجمّع آخرون حولنا في غمضة عين، يتعرّف بعضهم عليّ أو يقوم هو بتعريفهم عليّ، المعتدي السعيد بالعثور أخيرًا على فريسته. أراهم يأخذون جانبه، جميعهم دون استثناء، بعضهم يضحك، بعضهم يتأسف مشمئزًا حين يعرف حقيقتي، ويساهم أحدهم في العرض

المفتوح ببصقة يجيد تصويبها إلى وجهي مباشرةً، وآخر بصفعة محترمة على القفا، ثم يشد آخرون ثيابي فتتمزق بسهولة بين أيديهم وتتساقط عن لحمي كأنها مناديل ورقية، وسرعان ما أصير عاريًا بينهم، أحاول سَتر عورتي لكنهم يمنعونني، أتكوّم على الأرض بينما يركلونني. ويتواصل الذعر اللذيذ في التلاعب بمخيلتي، سجائر تنطفئ في ظهري وبطني، أصابع صلبة تمتد نحو فتحة شرجي، لا أجد طاقةً حتّى للصراخ والبكاء، أسعى بين أقدامهم على أربعٍ كحيوان يفتش عن فرجة بين آسريه، ولا منفذ.

لم أصف لسميح مخاوفي المتخيلة بكل تلك التفاصيل التي أذكرها الآن، ثمة مسافة واضحة بين ما أكتبه له على الإيميل، وما أكتبه لنفسي هنا في دفاتري. أرسل يقول لي إنني أحاول الانتصار على مخاوفي بتخيّلها ومضاعفتها لأقصى حد ممكن، وهو أمر جيّد كبداية لكنه ليس حلًا مناسبًا، وعاد يشجعني على الكتابة.

بينما أكتب، مواجهًا مرآة التسريحة في الغالب ومتجنبًا النظر نحوها مع ذلك، أنجحُ في النسيان، ليس فقط نسيان ما حدث لي خلال الأشهر الماضية، ولكن أيضًا نسيان ما يتوجب عليّ عمله الآن وغدًا وبعد غدٍ وفي كل يوم سأحمله على ظهري حتى يُريحني الموت. أتجنّبُ الأسئلة الملحّة وأهرب إلى الماضي السعيد، إلى جدي والأتيليه وبيت أهلي في عابدين وأوّل عِلاقة. لكنني بمجرد أن أخرج لجولات كل مساء حتى تتجمّع حول رأسي الأسئلة طيورًا

جارحة ذات صيحاتٍ بشعة. ماذا سأفعل بحياتي؟ هل سأهاجر كما يسعى الآن بعض من أُفرج عنهم معي؟ وإذا أردتُ، فكيف يمكنني المضي في الإجراءات وأنا ما زلتُ عاجزًا تمامًا عن النطق؟ لا بدّ أن أستعيد صوتي أولًا، ولأستعيده عليّ أن أنتظم في العلاج وأن أعمل بنصائح دكتور سميح وأن أحدّد موعدًا لزيارة طبيبة التخاطب التي أوصاني بها، وأن أفعل أشياء أخرى بلا نهاية، كل هذا وأنا أشعر بأنني جثة تتحرك، جثة تقاتل رائحة تفسخها كل نهار، ولا تملك غير هذا التجوّل المسعور كل ليلة.

حين تكلّ قدماي كنتُ أتوجه إلى ذلك البار الشعبي الصغير الذي اكتشفته مُؤخّرًا. لم يكن من الأماكن التي اعتدتُ التردد عليها في حياتي السابقة قبل الكابوس. وهناك أشرب البيرة بعد الأخرى، وربما تنفك عقدة يدي قليلًا فأكتب في الدفاتر الصغيرة التي أحتفظ بها معي على الدوام. وظلّت الأسئلة الملعونة تتكاثر عليّ، كلما وُلد سؤالٌ جديد تفرّعت عنه في ثوانٍ أسئلة أخرى، يندفعُ كلٌّ منها في اتجاهٍ مختلف حتى ترسم أمام عينيّ شبكة متفرعة لا حدود لها، ثم يتحوّل السؤال الوليد إلى مركزٍ آخر بدوره، تتفرع عنه أسئلةٌ جديدة، وهكذا. شَبَكةٌ لن ينسجها صديقي العنكبوت الصغير الذي أطمئنُ عليه بين الحين والآخر في مكانه من الدُرج. بدون صوت، خاطبتُه ذات مرّة: كان بودّي أن أغنّي لك، لكنني الآن أخرس.

(7)

أفلحَ الفرخُ إذن في الخروج بعد أن كسرَ بمنقاره قشرة البيضة، وأطلّ برأسه العاري وعينيه العمياوين، ثم هشّم بيضته تمامًا نافضًا ريشه القصير النحيل، ودبّ على أرض العالم كابوسًا أسود سيئ النية، يفتحُ عينيه ويحرّك منقاره المدبّب في كل اتجاه، مفتشًا عن مذاق اللحم ومتتبعًا رائحة الدم.

خلال الساعة التي انقضتْ دهرًا مديدًا، ما بين لحظة القبض عليَّ أنا وعبد العزيز وإلقائنا في حجز قسم عابدين، كان صاحبي قد نجح في رشوة أمين شرطة، ليسمح له بإجراء اتصال سريع.

فاتصلّ بمحامي عائلته الكبير. أفلح بعضنا في تقليد عبد العزيز، ولم يدرِ آخرون، مثلي، بمن عَسَاهم أن يتصلوا.

أرسل المحامي الكبير شابًا يعمل تحت يده، كان بهلوانًا ذرب اللسان وله معارف في جميع الأقسام تقريبًا. لم أره، لكنّ هذا ما فهمته من أمين شرطة آخر حكى لي ما حدث فيما بعد. قال إن ذلك المحامي الشاب أتى بعد ساعةٍ واحدة من وضعنا في الحجز، حين أخذوا منا جميعًا التليفونات المحمولة والبطاقات الشخصية والنقود وكل ما في جيوبنا. وفجأة أحدث هذا البهلوان ضجة في القسم كله، ما دفعَ بعض الضبّاط للاتصال بحسن فوّاز، رئيس مباحث الآداب والذي أشرف بنفسه قبل ساعات قليلة على حملة جمعنا من أماكن مختلفة. اتصلوا به بعد أن كان قد انصرف، فالقضية قضيته وهُم في عابدين لا ناقة لهم ولا جمل فيها، وكانت الحكاية كلها غامضة بالنسبة لهم، فلم يعرفوا كيف يردّون على هذا الببغاء الذي راح يردّد أمامهم أسماء من عائلة القاضي، عائلة عبد العزيز، ممن يشغلون مناصب في جميع أجهزة الدولة المهمة، ويظهر بعضهم في الإعلام كثيرًا، رجال لا يمكن أن يتسرب الشك في أنهم ليسوا رجالًا، تمامًا مثل عبد العزيز، رجال يمكنهم بكلمة واحدة أن يرفعوا سعيد الحظ وأن يضعوا المنحوس حتى الدرك الأسفل من الدنيا. ونجح في دسّ التهديدات بين كلماته بأناقةٍ وحرص، بحيث لا تفوت على أذن السامع الفطن.

وصل حسن فوّاز فقابلَ صياح المحامي الشاب بصياحٍ أشد، وسَبّ ولعن. ورغم الزعيق المتبادل تم استدعاء عبد العزيز، وكلّموه كلمتين، وتذكر حسن فوّاز أن المرشد، هياتم، لم يتعرّف عليه، وأنه أخذه على سبيل الاشتباه لا أكثر، فتراجعَ قليلًا، وخصوصًا بعد أن سمع أسماء بعض أقاربه. لم يطل جدالهم، وكان الاحتجاز حتى تلك اللحظة غير قانوني، بلا محاضر ولا مُبرر، وهُم في غنى عن الضجّة ووجع الدماغ، بسبب احتجاز شخص من عائلة كهذه، والطبخة ما زالت في أولّها. تشجّع عبد العزيز وطلب من حسن فوّاز إطلاق سراحي أنا أيضًا معه فرفض تمامًا وصاحَ بعلو صوته مؤكدًا أنه سيقطع ذراعه إن لم أكن "خوَل رسمي"، وأنه لو استجاب لكل واسطة سوف يطلق جميع الخولات الذين أمضى أيامًا يجمعهم من الشوارع. حكى لي أمين الشرطة ذلك كله وهو يكاد يموت من الضحك.

رغم هذا، فقد حاولَ حسن فوّاز طمأنتهم، زاعمًا أن الموضوع كله مجرد بحث يُجريه حول ظاهرة الشذوذ الجنسي، الغريبة على مجتمعنا والوافدة علينا بكل تأكيد. يريد أن يبدأ بحثه بمعرفة عدد الخولات في القاهرة تقريبًا، وهل هم سلبيون أم إيجابيون، أم يلعبون الدورين معًا. مجرد بحث اجتماعي، لا أكثر ولا أقل، وجمع بيانات ومعلومات، ربما تكون نتيجته الأهم حث الدولة على مواجهة هذا الداء البطّال المتفشي بيننا. وهكذا فإن المسألة كلها ساعات معدودة

وكل واحد منا يعود إلى بيته في أمان الله. بالنسبة لي، استمرت تلك الساعات المعدودة سبعة أشهر تقريبًا، من حَرّ مايو إلى بَرد نوفمبر، تم العفو عن آخرين وما زال بعضنا ينفّذ عقوبة السجن حتى لحظة كتابتي هذه.

عادَ عبد العزيز إلى الحجز مع عسكري ليقول لي كلمتين، اقتربتُ من الباب فرحًا ملهوفًا وقد أيقنتُ من الفرَج، وما إن رأيتُ تعبير وجهه حتى عرفتُ أنه سيذهب ويتركني. أمسك بيديّ وضغط عليهما بين كفيه الكبيرتين وهو ينظر في عينيّ، بينما يراقبنا كل المحتجزين في صمتٍ وانتباه. وَعدني هامسًا بأنه لن يتركني أو يتخلّى عني، وسوف يقلب الدنيا كلها حتى أخرج من هذه الورطة في أسرع وقت ممكن. كنتُ سعيدًا لأن أحدنا على الأقل قد نفذ بجلده حتى يستطيع أن يساعد الآخر ويهتم بأموره. وجدتني فجأة أمثل دور الهادئ الشجاع، وأخبره بأن يتصل بشيرين ويلفّق لها أي كذبة عن سفري خارج القاهرة وإغلاق موبايلي، أو أنني عند البرنس في الفندق أريح أعصابي بعيدًا عن البيت، أي شيء يبرر غيابي يومين أو ثلاثة، ثم أخذتُ علبة سجائره المارلبورو، رغم عدم مَيلي لها.

لم أبكِ، كنتُ مبهورًا بشجاعتي وتركيزي على المسائل العملية الصغيرة كأنني مسافر في رحلة سياحية أو أوشك على دخول غرفة

عمليات لإجراء جراحة هيّنة. أتت الدموع فيما بعد، حُرَّة وساخنة وعلى راحتها تمامًا. عدتُ إلى الحجز بعد ذهاب صاحبي، أحاول أن أجيب على الأسئلة التي انهالت عليّ من المحتجزين معي، دون أن تكون عندي أجوبة شافية، وتبددت محتويات المارلبورو سريعًا بيننا، قبل أن يسرقني النعاس لدقائق ويزورني ذلك الحلم المعقد الذي عدتُ فيه إلى شقتي ورأيتُ شيرين وخالتي حسنية وعبد العزيز يعتذر عن تركي في خجل.

آخرون غير عبد العزيز انتزعوا أنفسهم من الفخ والحكاية ما زالت في أوّلها، كما أطلقوا سراح غير المصريين جميعًا، عربًا أو غير عرب، وعرفتُ أنهم كانوا أكثر من عشرة. رفض بعض الغربيين الذهاب من غير اصطحاب رفيقه المصري، وأصرّ حتى نجحَ في استنقاذ صاحبه.

جمعتْ الشرطة العشرات خلال تلك الحملة التي استمرت بضعة أيام من أوائل شهر مايو، وكان مشهد الذروة في فجر الجمعة 11 مايو 2001، بعد يومين أو ثلاثة من القبض عليّ أنا وصاحبي بالقرب من ميدان التحرير، حين داهمت شرطة الآداب أحد المراكب النيلية قيل إنه يرحّب باستقباله للمثليين يسهرون فيه كل خميس، وكان اسمه الكوين بوت أو مركب الملكة ناريمان. وهو الاسم الذي اشتهرت به القضية كلها في وسائل الإعلام، تلك التي حرصت

على ترديد كلمة "داهمت" التي استخدمتُها أنا نفسي الآن دون وعي، رغم أنهم لم يداهموا شيئًا، ووقفوا منتظرين في الظلام أمام المركب في انتظار الخارجين للانفراد بهم، وتحميل السيارات التي فاضت بالمأخوذين وراحت تفرغ حمولتها في حجز أكثر من قسم، ثم تعود لأكثر من مرّة خلال الليلة نفسها. وغير هؤلاء المقبوض عليهم من الكوين بوت، أخذوا حوالي عشرين شخصًا من أماكن عامة مختلفة، شوارع وميادين، بل امتدّ الأمر إلى القبض على أشخاص من بيوتهم وأماكن عملهم، بمساعدة مرشدين مثل هياتم. كان من نصيبي أن أكون أحد هؤلاء العشرين الذين أُخذوا من الشوارع، بعد أن لمحني هياتم بالمصادفة في أثناء جولته بالبوكس مع رئيس المباحث.

لعلّ ذلك المحامي الكلامنجي الشاب استشعر أن الحكاية كبيرة، وأحس بحجم القضية التي يتم طبخها، لذلك لم يلحّ كثيرًا على مطلب خروجي مع عبد العزيز، وربما لأن المهمة الأساسية التي أتى من أجلها قد تمّت، واستخلص ابن العائلة الكبيرة من فم الأسد. وربما نصحَ عبد العزيز أن يترك صاحبه هذا لمصيره. ألم تكن أمه ممثلة مشهورة؟ من المؤكد أنّ له معارف كبارًا سوف يخرجونه منها مثل الشعرة من العجين. ألم تقم بالاتصال بزوجته وتطمئنها؟ واتصلتَ أيضًا بذلك البرنس الذي يعتبره مثل أبيه؟ ليس هناك ما يمكن أن نفعله أكثر من هذا، صدّقني، مجرد ترددك عليه في القسم

يمكن أن يورّطك في مشاكل كبيرة. أنا سمعت في القسم كلامًا غريبًا، وكله يوحي بأن القضية موضع اهتمام جهات عُليا لأسباب مجهولة، ولا تسألني كيف أو لماذا، فحتى إبليس لا يمكنه أن يتخيّل تدابير هؤلاء.

لا بدّ أنه قال كلامًا قريبًا من ذلك، فقد اقتنعَ عبد العزيز، أو خاف على سُمعته ومستقبله، وسافرَ بعد أسابيع قليلة من بداية القضية للعمل في الإمارات، هكذا فجأة، وبعقد عمل محترم. اختفى من البلد كله، حتى تتبدّد كرة النار التي راحت تكبر يومًا بعد يوم وتلفح بنيرانها كل مَن اقترب منها، أو حتى ينسى المحيطون به صداقته لواحدٍ من المتهمين بالفجور وازدراء الأديان في قضية قلبت الدنيا.

عاد صاحبي إلى بيته ليلتها، وتركني هناك، أحلم بأمير الحكايات الذي سيعود لإنقاذي على حصانه الأبيض المجنح، ويذوبُ صبري قطرةً فقطرة، وقبضةٌ خفية تشد خناقها على رقبتي مع كل دقيقة.

(8)

حتّى من قبل رأفت، وقبل تلصصي على أعضاء المتبولين، كثيرًا ما كنتُ أتخيّل رجلًا ما، أصنعه من أوهامي وأحاول أن أدفن نفسي بداخله، أتكوّر على سريري منكمشًا إلى أقصى حد، كما لو أنني أريد أن أصير صغيرًا جدًا بما يتيح لي أن أتسرّب داخل رجلي المتوّهم، ثم أستقر داخله وأعيش بقية حياتي تحت جلده، متظاهرًا بأنني هو. في أحيان قليلة كان هذا الرجل هو أبي.

مرّة في المصيف بالإسكندرية، ذهبنا أنا وهو نستحم معًا آخر النهار. خلع عنه المايوه المخطط الصغير فاستطاع ابنُ السابعة

أن يلتقط صورة واضحة للثمرة السمراء المنكمشة وسط شعر العانة النابت بعد جزّه حديثًا. أمعنتُ النظر نحو ذكره بابتسامة ودهشة، بينما كان هو يبول ببساطة، راشقًا خيط الماء القوي في فتحة مستديرة في ركن الكابينة المخصصة للاستحمام، وقد انفرد عود قضيبه قليلًا مع تدفق البول. أمسكتُ بيدي حمامتي الصغيرة، وحاولتُ تقليده فلم تنزل إلا قطرات ضعيفة، سقطت بين قدميّ مباشرةً. لاحظ هو نظرتي المترددة بين حمامتي وقضيبه المفرود فضحك ضحكة صغيرة، ثم قال في ثقة وطَمأنة:

ماتخافش يا هنّون، لما تكبر هيكبر.

داخل هذه الذكرى القديمة شيءٌ لا يزال حيّا ونابضًا، لا يمكنني أن أتجاهله أو أستخف به مهما كابرت. وحتى الآن أستمتع برؤية رجل يبول، ليس إلى درجة تشعلُ الرغبة والإثارة، بل ما هو أقرب إلى لُعبة تسلّينا بها في طفولتنا، نستعيدها للحظة وقد كبرنا بابتسامة تعاطف، وخلاص. ربما أربكني قليلًا تباين صورتي عن صورة أبي، اختلاف بشرتي البيضاء عن سُمرته العميقة، وشعر جسمه الكثيف، وقوته المكينة في مقابل نعومتي وبدانتي وطراوة أطرافي. ربما حمل هذا كله إليّ رسالة مفادها أنني لا أنتمي إليه، لا أشبهه، ولن أكون رجلًا مثله أبدًا، ثم مات قبل أن يساعدني في تبديد تلك الأوهام.

كنا جالسين أمام التليفزيون في إحدى المرَّات النادرة التي قضى فيها بابا المساء معنا في البيت، وفي برنامج للمنوّعات عرضوا استعراضًا راقصًا للأمريكي جين كيلي الذي عرفتُ اسمه فيما بعد. كان يرتدي بدلة بحّار ويغني ويرقص مع اثنين آخرين بثياب البحّارة أيضًا وهم يتجولون أحرارًا في المدينة، ويرددون: "نيويورك، نيويورك"، لم أعد أعرف ما الذي سَحَرني في هذه الفقرة التي لم تستمر إلا دقائق، هل هو رقصهم وانطلاقهم معًا أم أجسادهم الرشيقة في زيهم الموحَّد، اقتربتُ من أبي وقلتُ له دون مقدمات:

أنا عاوز بدلة زي دي بالظبط في العيد.

بعد أسابيع، وفي أوّل أيام عيد الأضحى، لم يعد إلى البيت إلا بعد أن استكمل سهرة الوقفة حتى الصباح، عادَ رائق المزاج على الآخر، فأيقظني بنفسه ولم أكن قد نمتُ إلا ساعتين أو ثلاثًا على أمل أن أظل ساهرًا حتى الصبح، وانتظرني حتى أفيق وأستحم لكي يلبسني بنفسه بدلة البحّار البيضاء، الثياب الوحيدة التي صنعها لي بنفسه طول عمري. ارتديتها ورحتُ أرقص مُقلدًا المُغني الأجنبي: "نيويورك، نيويورك".

ثم دخل غرفته لينام بعد هذا السهر الطويل، احتجزَ ماما معه لبعض الوقت قبل أن يُفرجَ عنها، ولاحظتُ أن ستي سكينة تمصمص

شفتيها وتغمغم بكلام غير مفهوم عند خروج ماما. نامَ طويلًا حتى ما بعد آذان الظهر بقليل، في أثناء ذلك كنتُ قد نزلت إلى الشارع وطلعت عشرات المرات، أنا وبنت من بنات الجيران، أصغر مني ببضع سنين وكانت تتبعني طول الوقت مثل قطة خائفة، وأحيانًا كنت أتسلّى بتصفيف شعرها كأنها دميتي.

ثم سمعنا صراخ ماما يأتي من غرفة النوم، قبل أن تأتي متعثرة، نحو ستّي الجالسة معي نشاهد مسرحية "إلّا خمسة"، وصاحت ماما فيها:

أحمد ما بيردّش عليّا، أحمد مات، ابنك مات.

شعرتُ بأنها تتهمها بشيءٍ ما، وكأن ستي هي من أخذت روح أبي. على صوت الصراخ، أفلتتْ بالونة حمراء من بين أصابع ابنة الجيران وراحت تُطلق هواءها بصوتٍ قبيح، وهي تتخبط يمينًا ويسارًا إلى أن فرغت وارتمت بقعة هامدة على السجادة. كانت جدتي قد ألقت بطبق الترمس من يدها، وفزّت واقفة بعودها الطويل، وأخذت تنادي بصوتٍ كان جديدًا عليها تمامًا:

أحمد، يا أحمد، قوم يا حمادة الفتة جاهزة، قوم يا حمادة تتغدى معانا.

فرّت ابنة الجيران باكية، وتمنيتُ لو استطعت الذهابَ معها،

لكني تجمّدت في مكاني على الكنبة وأنا أسمع صراخهما يتعالى، دون أن أجرؤ على الاقتراب من غرفة أبي. بقيتُ أحدّق في شاشة التليفزيون، بينما ماري منيب لا تزال تسأل عادل خيري، كما كانت تفعل قبل الصُراخ: "انتي جايه تشتغلي إيه؟"، فيُكرّر هو إجابته ذاتها المرة بعد الأخرى: "سوّاق يا ست هانم، سوّاااق".

سوف يبقى وجه شمردل هانم المخيف في هذه المسرحية هو صورة الموت بالنسبة لي، لسنوات فيما بعد، ولسنوات أطول سوف ترفض ماما الاحتفال بعيد الأضحى بأية صورة. ظلّت تصيح في كل مَن يُهنئها بالعيد: "ماحدش يعيّد عليَّ في ذكرى أحمد، فاهمين؟".

وحين استعادت الاحتفال به مثل بقية الناس، وتغافلت عن رحلتنا صبح كل عيد إلى قبره، فهمتُ أنها نسيته، وتحاول أن تجعلني أنا أيضًا أنساه، وأنها وضعتْ ذكراه مع ما تبقى من ثيابه في كرتونة صغيرة بالبلكونة. الثياب التي كانت تنتقي قطعة منها لتضعها أمام مُقرئ ترسل في طلبه كل ذكرى سنوية، فيقرأ رُبعين على روح أبي، التي ما زالت عالقة في ثيابه هذه بطريقةٍ ما. بمجرد ما كانَ يغادرُ الشيخُ البيت ينتهي طقس الحزن وتعود هي إلى العيد، قد تلوّن شفتيها بالأحمر، أو تُسارع إلى فتح التليفزيون، أو تقترح عليّ مكانًا نذهب معًا إليه، لنتظاهر بفرحة العيد.

بعد موت أبي، أجّرت ماما الأتيليه، فصرتُ أتردد عليه كل

شهر لتحصيل الإيجار. وكان المكان يتغيّر قليلاً في كل زيارة، كأنه يعكس ما طرأ على حياتي وجسدي أيضًا. انضم الأتيليه لورشة البدل الرجالي ذاتها التي كان يعمل فيها رأفت مقصدار، وكان دائمًا كأنه ينتظرني. صرنا نقف معًا على بسطة السُلم أو أمام العمارة ونتحدث. أعطاني أوّل سيجارة دخّنتُ منها نفسًا أو اثنين قبل أن أردّها له، مغالبًا السُعال ومنزعجًا من ضحكاته. كلّمني عن العادة السرية ومُتعتها، وذات مرة أخذ يدي في غفلة عن الآخرين ووضعها على ذَكره المشدود فانتزعتُ يدي وأشحتُ بعيدًا. مجرد لمس ذلك الشيء الحار بين فخذيه فكّ مفاصلي وأعصابي. قال إن معه مفتاح مخزن القماش الصغير وراء المصعد في الطابق الأرضي، وإنه يمكننا أن ندخل إلى هناك دقائق بمفردنا، رفضت وأسرعتُ بالذهاب. كنتُ أعبّ هواء الشارع عميقًا لأسترد أنفاسي، وأنا أتحسس الإيجار في جيبي كل دقيقتين، خشية أن يكون قد وقعَ مني.

بدا كأنّ رأفت هو الوحيد المتبقي لي من عالم أبي وجدي، الوحيد الذي يهتم بي أو يتحدث إليّ. في البيت انغلقت أمي على نفسها تمامًا، وابتلعتها ضرورات المعيشة. حتى جدتي تغيّرت، وصارت تتأرّجح بسرعة ما بين جبروتها القديم وحالة أخرى غريبة عليها من المسكنة والضعف. تجمّعت عليها كل أمراضها فجأة واكتملت شيخوختها في ظرف سنواتٍ قليلة إلى أن لازمت فراشها، فسلّمت

جميع أسلحتها وراحت تتودد إلى ماما وتخاطبها بكلمة "يا بنتي"، وتعطيها حُليها قطعة بعد أخرى لتبيعها حتى تصرف على البيت، فلا تتركنا وتخرج لتبحث عن عمل. عاشت سنواتٍ ما بين فراشها وكنبة تركية قديمة بجانب الشبّاك، تداعب مؤشر الراديو ما بين المحطات، لا تكاد تغادر غرفتها، كأنها تنتظر اللحاق بابنها في أقرب وقت، حتى نالت ما تمنت، وعندما أطلّ عليّ من جديد وجهُ شمردل هانم القبيح لم أعد أعتبره ضيفًا مزعجًا يحضر بلا موعد، بل صار كأنه صاحب قديم. لم نحاول أنا وماما أن نتظاهر بالحزن ولو يومين، وبعد أن باعت آخر قطع مصوغات ستّي سكينة لم تجد مفرًا من الرجوع إلى عملها القديم، وكانت خالتي حسنية مستعدة لمساعدتها.

صرتُ أهرب من البيت الموحش فتأخذني قدماي دون أن أشعر للورشة حيث رأفت، حتى في غير موعد تحصيل الإيجار. ثم خرج إليّ رأفت ذات مرة وهو يهز مفتاح المخزن في يده. حرصنا على ألّا يرانا أحد ونحن نتسلل إلى هناك، سبقتُه للداخل شابكًا يديّ فوق صدري حتى لحق بي بعد دقائق. أمسكَ برأسي بين يديه وانهال على وجهي بالقبلات، يوزّعها هنا وهناك سريعًا بفم مزموم كمَن يبتلع طعامه دون مضغ. لم نفعل الكثير، ولكني على الأقل عرفتُ القبلة أخيرًا، في الثالثة عشرة من عمري أو بعدها بقليل، وكان فم رأفت عذب الطعم رغم تشبُّعه برائحة السجائر. تجرأتُ على

تحسّس قضيبه المكوَّر بين فخذيه فأسرع بإخراجه، كان أنعم وأدفأ مما تخيلت، وكلما داعبتُه آلمني انتصاب عضوي القصير، فلم أعد أعرف أين ينتهي جسده ويبدأ جسدي.

في كل مرّة بعد تلك كان يحثني على المزيد، فأتمنّع وأسرع بالذهاب، وظلّ الخوف يقيدني مهما اندمجتُ معه في اللعبة. كنتُ أشعر أننا سجينان في مساحة خانقة لا تتعدى الثلاثة أمتار، تحيط بها في الخارج أصوات مقلقة، تضطرب أنفاسي فأتوسل إليه أن يكتفي ونخرج، رغم تلذذي بتمسكه بي. وكثيرًا ما تخيلتُ أن أبي لم يمت، وأنه ما زال يعمل في الأتيليه بالأعلى، وأنه سوف يكسر علينا باب المخزن فجأة، ويكتشف أنني أوسّخ نفسي مع هذا الشاب الذي يُشبه شيطانًا جميلًا.

يسكب رأفت منيه كاتمًا لهاثه، ثم يحك قدمه فوقه ليخفي بنعله أثره في تراب البلاط. ثم يضبط ثيابه ويتسمّع قليلًا إلى أن تهدأ حركة الأقدام، ثم يوارب الباب ويخرج هو أولًا، يتمهل قبل أن يشير لي بيده من فتحة الباب فأذهب مسرعًا، دون أن ألتفت خلفي. في نور مدخل العمارة، أتأكد أن ثيابي لا يلوثها أي شيء، وفي الطريق أظلّ أمسح فمي ووجهي كأن هناك بقايا شفافة، ما زالت عالقة بي من قبلاته ولعابه، قد تفضح سرّي أمام الجميع.

(9)

أرتبك وأغتاظ قليلًا كلّما سألني أحدهم عن المرة الأولى، وكأنّ لها قيمةً خاصةً. وكثيرًا ما أرد بسؤالٍ آخر عمّا يقصد بالمرة الأولى، أهي أول حلم، أم أول مداعبة، أم أول قبلة، أم أول ملامسة لجسم عارٍ؟ لدى كلِّ إنسان عددٌ لا نهائيّ من المرات الأولى. وطبعًا كان السائل يجدِّد مقصده بأول ممارسة كاملة، هنا أستدعي رأفت، وحكايته الجاهزة عندي، التي ضبطتُها وهذَّبتها مع الأيام، وصرتُ أحفظها كأغنيةٍ قديمةٍ تتدفق على لساني من غير تفكير.

كنتُ في السادسة عشرة تقريبًا، خُطّ لي شاربٌ أخضرُ قبيحٌ،

وغلظَ صوتي حتى صرتُ أستنكره عندما أتكلم، ولا تكف الأحلام الموجعة عن زيارتي، فأتقلب فيها مع رجالٍ من كل لون، وأصحو وقد ابتلّت ثيابي الداخلية بالبقع اللزجة، أغسلها بماءٍ دافئٍ، واقفًا أمام حوض الحمّام، لخجلي من أن تنتبه أمي إلى مغزاها. رغم أنها كانت أبعد من أن تنتبه إلى شيءٍ، أو إلى تلك اليد الخفية التي تعيد تشكيلي من الداخل والخارج. عادت للتمثيل، وحصلت على أدوارٍ حقيقيةٍ، بفضل ما بذلته خالتي حسنية من أجلها. خالتي التي صارت المطربة حُسنى، وعلا نجمها قليلًا، وهجرت ملاهي الدرجة الثالثة، وسجّلت أكثر من أغنية للإذاعة، وبدا أن المستقبل يبتسم لها، دون أن تهتم هي لا بمستقبلٍ ولا بماضٍ. كنتُ أسمع أمي تحذرها من الزمن، ومن عواقب الاستهتار مع الرجال، وتوبخها بأغلظ كلام لتعاطيها بعض المكيّفات الغريبة كالأفيون. ولا تستجيب الأخت الكبرى، إلّا بالاستهانة والضحك والغناء. كنتُ أكره خالتي في تلك الأيام؛ لأنها من اختطفت أمي مني، وأرسلتها إلى الأستوديوهات، حيث يلونون وجهها، لتقف أمام الكاميرا فتتظاهر بأنها امرأةٌ أخرى. تنتقل بسرعة البرق بين كذبةٍ وأخرى، وفي استراحاتها السريعة تقبّلني، وتعطيني نقودًا، وتتأملني قليلًا كأنها تستغربني، وسرعان ما تغيب من جديدٍ.

كنتُ مراهقًا بدينًا، أكلّم نفسي في خواء شقة عابدين الواسعة. مهما فتحت التليفزيون ورفعتُ صوته، أو جلستُ أخربش خواطري

الحزينة في دفاتري السرية، أو تخيلتُ أصدقاءً غير مرئيين أحكي لهم عن أوجاع روحي واختناقي من كل شيء، كان يمكنني أن أشم رائحة الوحدة تدور معي بين الغرف. ثم ظهر رأفت بعد غيابٍ طويلٍ، أتى فجأة في ظهيرةٍ لافحة الحرارة، عندما يودّ الواحد لو خلع ثيابه كلها وطلع من جسمه نفسه ليهرب من ثقل الرطوبة. سمعتُ طرقًا على الباب، ففرحتُ، وخفتُ.

ارتبكتُ حين رأيتُه واقفًا يمضغ ابتسامته أمام الباب. كنتُ قد توقفتُ عن زيارته في الورشة منذ فترة طويلة، ونسيتُه تقريبًا، وكانوا يرسلون الإيجار مع أحد الصبية. سلّم عليّ، وقال إنه أحضر الإيجار لماما، ويريد أن يبلغها رسالةً من صاحب الورشة. قلتُ إنها غير موجودةٍ. سمح لنفسه بالدخول، وجلس على كنبةٍ، وطلب شايًا، وهو يُخرج عُلبة سجائره من جيب قميصه الكاروهات الخفيف.

في المطبخ، كنتُ أحدّق في الماء الذي لا يريد أن يغلي، وأستعيد لقاءاتنا المسروقة في المخزن، فتغزو بدني جيوش نملٍ وحشيّ. أحسستُ أننا لو كررنا ما اعتدنا عليه هنا، ربما تتهدّ الدنيا، أو ربما ينشق سقف البيت، وتظهر السماء من فوقنا. كنتُ أتساءل إن كان سيحاول معي، ولا أعرف إن كنتُ سأفلح في مقاومته.

كان يشرب الشاي، ونحن نتظاهر بأن كل شيءٍ طبيعيّ، نلعب دور الضيف ومضيفه في صمتٍ وحرجٍ. عزم عليّ بسيجارةٍ،

فهززتُ رأسي شاكرًا. سألني عن أحوال المدرسة، فأجبتُه وأنا أتطلع نحو صورة لأبي على الجدار الذي خلفه.

داخل أولى ثانوي السنة الجاية.

طول عمرك شاطر يا هاني.

حين شرب آخر قطرةٍ من الشاي، وأطفأ سيجارته في المحارة الكبيرة ذاتها التي كان يستعملها أبي، نهض، واقترب مني، حتى جلس بجانبي على مقعدٍ لا يتسع لاثنين. في غرفتي رأيتُ جسده كاملًا وعاريًا تمامًا لأول مرةٍ. كان أجمل مما تخيلتُ. توزَّعت الشُعيرات على جلده شاهق البياض في خطوطٍ وتكويناتٍ سحرتني، فكنتُ أبتعد برأسي عنه قليلًا لمجرد أن أتأملها، وهو لا يتوقف عن تقبيل كل موضعٍ يطوله مني بشفتيه الممتلئتين.

المرة الأولى التي دخلني فيها رجلٌ ما. كان ألمي مختلطًا بالرعب من أن تصل أمي فجأةً، وبلذة امتلاكي لرجلٍ أخيرًا. لم أشعر بالمرة أنَّ شيئًا في داخلي انكسر، أو أنني فقدتُ معنى كبيرًا كالكرامة أو الشرف أو الرجولة، بل كأن العكس هو ما حدث، كأنني استعدتُ شيئًا كان ضائعًا مني، التأم كسرٌ ما، مثل دُميةٍ مكسورةٍ رُزقت بمن يضم أجزاءها معًا، فعادت إليها الحياة، وصار بوسعها الآن أن تتكلم وتتحرك وترقص وتغني.

بعد أن قذف لاهثًا، ضحكَ أو كتم ضحكةً صغيرةً كأنها شهقةٌ، ثم نهض عني مستحمًّا بالعرق ومحمّر البشرة، ومبتسمًا في حرج، وهو يواري عورته بين يديه. عاد من الحمّام بعد دقائقَ معدودةٍ، وكنتُ عدتُ إلى ثيابي الداخلية. لمحتُ على وجهه تعبيرًا غريبًا كأنه مشفقٌ عليّ قليلًا، أو كأنه فاز في مباراةٍ استمرت لسنواتٍ بيننا، لكنه يخجل الآن من فوزه هذا، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل به. ارتدى ثيابه الخفيفة في عجلةٍ، ووقف قليلا أمام المروحة مُغمض العينين، وهو يمشط شَعره بمشطٍ أسود لا يغادر جيب بنطلونه، ثم التفت نحوي، ورمى إليّ بقبلةٍ في الهواء. كانت إشارة الختام التي سأعتاد عليها فيما بعد. قال مبتسمًا:

لازم أطير.

قبل أن أفتح له الباب، احتضنتُهُ بقوّةٍ، وربما أكون قد تمنيتُ عندها ألّا يذهب، أن نعاود الكرّة من جديدٍ، لمجرد ألا يتركني وحدي. قبّلتُ شفتيه ببطءٍ شديدٍ، وقلتُ له عبارةً ساذجةً، لا أذكرها الآن، ربما قلت:

إوعى تسيبني يا رأفت!

ضحك ضحكته الصغيرة، وقبّل خديّ بخفةٍ، قبل أن يُدير مقبض الباب بهدوءٍ، ويخرج. سمعت خطواته تثبُ على السلالم بلهفةٍ، مثل مَن أُطلق سراحه أخيرًا.

بعد أسابيع قليلةٍ من زيارة رأفت الأولى لي، حدّثني أخيرًا عن تجاربه السابقة. كنا واقفيْن أمام سينما الكورسال، في ظهيرة يوم أحدٍ حارّ، نشرب كوكاكولا وندخّن، حين أشار لموضع غير بعيد وأخبرني بأنه، في هذا المكان نفسه، التقى لأوّل مرة بالكهل الذي دعاه لمشاهدة فيلم معًا، ثم علّمه بعد ذلك كل مُتعةٍ قد ينالها رجلان منفردان.

حين التقى بمعلمه الأول ذلك، كان رأفت ما زال غشيمًا فجًّا، غير أنّ ذلك الكهل رأى فيه البذرة الجيدة، فتعهده بالرعاية. قال رأفت إن ذلك الرجل كان مثل إسفنجةٍ تمتص كل قطرةٍ بداخله، من غير أن يشبع أبدًا، وكان دميمًا، له حدبةٌ واضحةٌ أعلى ظهره يطلعُ منها شَعرٌ بشع. ثم تركه رأفت بعد تعارفهما بنحو سنتين، لم يعد يذهب إلى المواعيد، ولم يكن الكهل يعرف طريقًا للوصول إليه، فعاد بعد يأسه للبحث عن غيره في الأماكن المعتادة، إلى أن لمحه رأفت مع شابٍ آخر بعدها بشهورٍ، بالقرب من ميدان رمسيس.

هجر مدربه الأول، لكنه لم يهجر اللعبة نفسها، وقد انفتح أمامه ملعبها السري المترامي، في أماكن الصيد، فأخذ يتجوّل فيها بمهارة، معتمدًا على ثروته المُكتشفة للتو من وسامةٍ وفحولةٍ وخبرةٍ زوده بها الأحدب. تعلّم كيف يمسح الأجواء من حوله بدراية المستكشف، فيقع على النظرات الجائعة، ليستغل أصحابها، يستخدمهم في عتمة

دور السينما أو في مراحيض عامة يتواطأ حرّاسها معهم، أو بين جدران آمنةٍ إذا أسعده الحظ بصيدٍ طيّب. كان يمارس شبه غائبٍ عما حوله، وربما يتخيل نفسه يضاجع امرأةً. المهم أن يقذف ويرتاح، وحتى القبلة لم يعتدها إلّا بالكاد، يخطفها خطفًا دون أن يفتح فمه.

لم يكن رأفت كثير الكلام، أظلُّ أنا أثرثر، عسى أن أنجح في فكّ عقدة لسانه، وهو يسمع مبتسمًا وشاردًا. أكلّمه عمّا أقرأ من كتبٍ، وعن الشِّعر الذي أحاول كتابته، على أمل أن يطلب مني أن أقرأ له شيئًا منه، ولا يبدو عليه أيُّ اهتمام. يدخّن، ويومئ برأسه، محتفظًا على الدوام بابتسامته الماكرة تلك، بينما يتسلل إلى ثيابه قطعةً بعد أخرى، حتى أنتبه فجأةً إلى أنه قد صارَ مُستعدًا للذهاب. أكتم رغبتي في الخروج برفقته، لأنني صرتُ أتوقع حججه الجاهزة للتهرّب. استطعت إغراءَهُ، بين الحين والآخر، بدعوتي له للذهاب إلى السينما أو تناول الغداء. كنتُ ألاحظُ توتره وحرجه في نزهاتنا القليلة معًا، وكلّما حاولت أن أمسك يده أو أن أضع ذراعي حول خصره ابتعد بسرعةٍ وهو ينظر إليّ في لوم، ويصيرُ أكثر حرصًا على ملاحقة الإناث من حوله بنظراته، مثل مَن يدرأ عن نفسه شُبهةً خفيّةً.

ثم صرتُ أقدّم القرابين إلى صنمي الحيّ؛ هدايا صغيرةً على

قدر طاقتي، مرةً قميصًا مزركشًا، ومرّةً حزامَ جلدٍ طبيعيٍّ بإبزيم معدنيٍّ مزخرفٍ، أو بعض الثياب الداخلية عندما لاحظتُ الثقوبَ والمزق تتكاثر في أطقمه القديمة. وكان يقبل هداياي متظاهرًا بالضيق:

ليه بس تكلّف نفسك؟ مفروض أنا اللي أجيب لك!

ثم يبوســني، ويحتضنني، فأشــعر بالانتصــار عليه رغم كل شكوكي، وأنوي كتابة قصيدةٍ عن ولدٍ يشتري المحبة.

بين دفاتري وكتبي، بعيدًا عن رأفت وأمي والجميع، كنتُ أصنع من وحدتي شيئًا آخر، شيئًا قد يبدو مُطمئنًا ومستقرًا ولو لساعاتٍ عابرةٍ، قبل أن يغلبني الضجر، وأشتاق للتحدّث مع أيِّ شخصٍ، ولو كان متخيلًا. كنتُ أتحدّث مع هاني الآخر، وقد انقسمتُ اثنين، فعلى ناحية هناك هذا المراهق العاشق الذي ينتظر موعد وصول عشيقه الجميل في قلقٍ ولهفةٍ، متطلعًا من الشرفة نحو أول الشارع، ثم يعود للداخل ويدقق النظر في المرآة مُفتّشًا عن شعرة أفلتت من موس الحلاقة فوق شفته العليا أو على خده، يُلقي نظرةً على طبق الفاكهة أو الحلوى، ويلمس ملاءة السرير مُتفقدًا نظافتها. وعلى الناحية الأخرى يقفُ هاني البريء الطيب المهذّب، لا يقلّدُ الشياطين الذين يهربون من المدرسة، ويقفون على النواصي يعاكسون البنات، يذاكر دون إلحاحٍ من أحدٍ، يضع ثيابه المُتسخة في الغسّالة ذات

المروحة ويملؤها بالماء ومسحوق الغسيل، وينتظر حتى يعصرها وينشرها بنفسه، ويرتب تلك التي أعادها المكوجي في مواضعها من دولابه ودولاب أمه، التي تمر بالبيت كضيفةٍ عابرةٍ. صرت أكثر من شخصٍ، صرتُ أنا نفسي أبي وأمي وأخوتي وأسرتي كلها.

وبين الحين والآخر يغلبني الإحساس بالذنب، والخوف من حساب الله وعقابه. فأنهك نفسي بالصلاة والصيام والدعاء، والبكاء ساجدًا كل فجرٍ، عازمًا على التوبة، وعلى ألّا أقترب من رأفت، أو من أي رجلٍ آخر. أنهض في الظلمة لأتوضأ، وأذهب لأصلي الفجر في جامع جنبلاط الأثري الجميل غير البعيد عن بيتنا. وبعد الصلاة أقرأ قليلًا من القرآن، متجاهلًا نظرات بعض المصلين من جيراننا الذين يعرفون عمل ماما، ولعلّ بعضهم سمع من جيراننا في البيت تلميحاتٍ إلى أنني لستُ رجلًا.

كنتُ أتمشّى قليلًا في براح الشوارع وسكونها النادر، مُسبّحًا ومُستغفرًا. تكاد الدموع تنفرط من عينيّ في نداوة أول الصبح، بينما أنشدُ بصوتٍ هامس:

هل تخذتَ الغاب مثلي منزلًا دون القصورْ

فتتبعتَ السواقي، وتسلقتَ الصخورْ

هل تحمّمتَ بعطرٍ، وتنشفتَ بنورْ

وشربتَ الفجر خمرًا في كؤوس من أثيرْ

متخيلًا شوارع حي عابدين قد تحوّلت إلى حقولٍ فسيحةٍ، لا يسكنها من مخلوقات اللـه إلاي، أتتبع سواقيها، وأتسلّق صخورها. أسير حتى يطلّ أوّل نور النهار، متذوقًا لذة الندم في فمي كأنها حلاوة الإيمان، وداعيًا لأمي هي أيضًا بأن يتوب اللـه عليها، ولو اضطرني ذلك إلى ترك المدرسة والعمل في أي مهنة بيدي.

نوبة، قد تبلغ عشرة أيام أو أسبوعين. أكون خلالها أكثر تركيزًا في مذاكرتي وأغزر إنتاجًا لقصائدي الحمقاء التي تهيمُ بسر الوجود وابتسامة الفجر. نوبة، تظهر ثم تتبدد ببطءٍ، عندما يهتز نظامي، وأرتبك لسببٍ مجهولٍ، عندما يتسربُ سائلٌ ثقيلٌ وداكنٌ إلى داخلي، كأنه الضجر أو الكسل أو الرغبة العارية في العصيان، فأفوّت صلاة الفجر وأنام، ثم أغيب عن المدرسة، وأتصيّد لأمي الأخطاء في وقتها القليل الذي تقضيه في البيت. أختنق بالنقمة عليها وعلى كل شيءٍ، فأوجّه عبارةً مُهينةً لها وهي على وشك الخروج. فترميني بنظرةٍ حارقةٍ، ثم تذهب دون ردّ. لا وقت لديها لتضيّعه معي.

خلال تلك النوبات، كنتُ أفلحُ في التملص من رأفت، حتى وصلتْ قطيعتي له ذات مرةٍ إلى شهرٍ كاملٍ، كنتُ أثبّتُ نفسي

خلاله بتذكر عيوبه وجهله وفظاظته، وأستعيد ممارساتي معه باشمئزازٍ لذيذٍ. إلى أن رأيتُه ذات يوم واقفًا أمام باب مدرستي ينتظر خروجي، ارتبكتُ، وخجلتُ، كأنه ذنبي، وقد تجسّد شخصًا مرئيًا للجميع تحت شمس النهار. اقترب مني بخفة الغندور الواثق، وسلّم عليّ باسمًا، فتح كلامًا، وعزمَ بسيجارةٍ، فرددتُ يده، وأنا أتلّفت حولي، ثم سألته دون أن أنظر إليه:

عايز إيه يا رأفت؟!

عايز أشوفك وأطمّن عليك بس. انت خلاص بقيت زي أخويا يا هاني. ولا انتا شايف غير كده؟!

ووسط حيرتي وغيظي، ألمح بداخلي قطرةً منوّرةً تختلج، تشبه فرحًا به، بحضوره إلى هنا، بوجود شخص واحدٍ يهمّه أمري، إلى درجة أن يأتي بحثًا عني إذا تهربت منه. أقول لنفسي ربما لم تسقه إليّ تلك الرغبة الدنيئة؛ فالأجساد كثيرةٌ، وهو يعرف كيف يحصل على واحد منها متى شاء، لكنه بحث عني أنا وانتظرني أنا، ولعلّ الحب ليس مجرد كلمةٍ صغيرةٍ في دفاتر خواطري.

سرتُ معه كالأسير، وأنا أردد بداخلي أنني قد أستطيع شدّه إلى ناحيتي بدلًا من أن يشدني هو، قد أستطيع إقناعه بالتوبة وتقوى الله ونسيان تلك المعصية البشعة التي يُزيّنها لنا الشيطان. غير أنني أخجل من الحديث معه عن المعاصي ووسوسة الشياطين،

ينعقد لساني ونبقى صامتين، بينما نبتعد عن المدرسة ونقترب من بيتنا، ومن باب البيت إلى باب شقة الطابق الثالث، ومنه إلى غرفة الضيوف، ومنها إلى غرفة نومي، حيث أتعرّي، وأستسلم.

(10)

ذهبتُ لاسترداد رأفت، بعدما انتهت محاضراتي في كلية الفنون التطبيقية التي التحقتُ بها مؤخرًا. لم أتصوّر أن ينقطع عني كل هذا الوقت بمجرد زواجه المفاجئ. لم أصدق أن يختفي بهذه البساطة بلا كلمةٍ، بعد سنواتٍ معًا، حتى ولو لم نلتقِ خلالها إلّا على فتراتٍ متباعدةٍ. بدت عمارة شارع عدلي أضيق وأصغر مما أتذكرها، وبالطبع أقل أناقةً ونظافةً، ولم تمضِ إلا بضع سنواتٍ بعد آخر مرةٍ أزور فيها رأفت هنا. ما زال المكان محتفظًا بسطوته القديمة عليَّ، أحسستُ كأنني أسمع ضحكات أبي ورفاقه من وراء باب الورشة، ووخزني الخوف كأنه قد يظهر لي الآن في أي لحظة.

خرج إليّ العريس من الورشة مُبتسمًا في حرج، وسرعان ما اختفت ابتسامته بعد أن صافحني. قال بسرعةٍ وارتباكٍ إن مجيئي إلى هُنا لم يعد مناسبًا، فالكل هنا يعرف أن الست والدتي قد باعت الورشة لمستأجرها من فترةٍ طويلةٍ، وبعضهم يشك في علاقتي به، وهو الآن رجلٌ مُتزوّجٌ. قلتُ إنني اضطررتُ للمجيءِ بعد اختفائه المريب لشهور، وإنني أردتُ الاطمئنان عليه فقطْ. عاد يقول هامسًا ووجهه في الأرض إنه كما أعرف قد تزوّج أرملة أخيه، ويريد أن يُربّيَ عياله اليتامى، وأن يستقيم، وكدتُ أضحك حينما ذكّرني بكلامي عن التوبة النصوح. لم أعرف ماذا أقول، وحين نطقتُ أخيرًا سألته كاتمًا انفعالي:

يعني انتا مش عايز تعرفني خلاص؟!

همّ بأن يقول شيئًا، لكنّه سكتْ، ونظر إليّ، وكأنه تذكّر شيئًا عابرًا أوشك أن ينساه تمامًا بفعل زيارتي المفاجئة له، طلب مني الانتظار دقيقةً واحدةً، وعاد إلى داخل الورشة، وبقيتُ في طرقة السُّلم، وأنا أتحاشى نظرات فضول المارين بي، وأسألُ نفسي عمّا أفعله هنا.

لم تمر سوى أشهر منذ موت أخيه الكبير، في مشاجرةٍ دمويّةٍ بمنطقتهم، قُتل فيها ثلاثة آخرون، حين قرر والد رأفت أن يزوّجه من أرملة أخيه، حتى لا يُربي أولادهم رجلٌ غريبٌ. واضح أنّه

رحّب بهذه الزيجة السهلة التي لم تكلّفه مليمًا. انتقل من شقة والديه في الطابق الأرضي إلى الطابق الثاني، حيث شقة أخيه المرحوم. صفقةٌ رابحةٌ، وسوف أسأل نفسي طويلًا كيف يمكن لإنسانٍ مهما كان غليظ القلب أن يحل محل أخيه في فراشه وبيته بهذه البساطة؟ ثم عدتُ أقول لعله يشعر أنهما شخصٌ واحدٌ، وأن هذا ما كان سيتمناه الأخ الراحل لو سُئل، وهو أمرٌ لن أفهمه أنا، ليس فقط لأنه يخص عالم الرجال بقوانينه المبهمة عليّ، ولكن أيضا لأنني لم أحظ يومًا بأخٍ.

خرج رأفت بعد دقائق قليلةٍ، وهو يحيط بذراعه كتفيّ شابّ قصيرٍ ومائلٍ للبدانة وتتناثر على وجهه بثور حبّ الشباب، وشعره الخشن الكثيف مثل خوذةٍ هائلةٍ حول رأسه المستدير. كان الشاب يبتسم في حرجٍ، مثل من اكتشف فجأة أنهم يلتقطون له صورة في غفلةٍ منه. قدّمه لي باسم نسيته بمجرد أن قاله، اسمٌ فيه حرف حاء واضح، ربما كان يحيى أو مُحيي أو حمودة. قال إنه زميله وصاحبه وأخوه، وكان يتمنى من زمان أن يتعرّف بي. ثم أضاف هامسًا، وقد قرّب رأسه مني إنه سيكون تحت أمري في أي وقت.

لفحتني الرائحة الأليفة للتبغ المخمّر في فمه، وانعقد لساني، وغرستُ عيني في بلاط الأرض غير قادر على استيعاب ما يقول. هبّت نسمة هواءٍ خريفية، فحملتْ معها نفحةً من رائحة المبولة غير

البعيدة، المبولة ذاتها التي وقف أمامها رأفت يداعب عُضوه منذ سنوات، بينما أختلس النظرات إليه في غفلةٍ من أبي ورفاقه.

لا بُدّ أنه حكى لزميله هذا عني متباهيًا، وربما لآخرين غيره، منذ فترةٍ طويلةٍ. لا بُدّ أنه كان يخبرهم عن مقدار معزته عندي، وأني لا أرفض له طلبًا. وربما كان يشكو لهم مني في زهقٍ، وكيف أنه ملّ مني، وتعب من نهمي الذي لا يرتوي ومن ملاحقتي له. من يدري؟ ولا بُدّ أن زميله، محمود أو حمّاد أو حامد، تمنى طويلًا أن يفوز بعلاقةٍ مثل هذه، وربما توسّل إليه أن يأخذه معه في لقاءاتنا، وأن يجلس معي وحدنا ولو مرةً واحدةً. ها هي فرصته أخيرًا، أن ينتفع بالبضاعة المستعملة، كأنني لست إلا قطعة ثيابٍ داخليةٍ، يمنحها الأخ الأكبر لأخيه الصغير، بعد أن ضاقت عليه أو اشترى جديدًا. كيف تساءلتُ عن عدم تردُّدٍ رأفت في قبول زوجة أخيه، فهي قد تكون أغلى وأهم من لباسٍ قديم مستعملٍ، ولكنها في النهاية ليست إلّا شيئًا يتوارثه الذكور، أو يتنازلون عنه دون مقابل لزملائهم في العمل كما يفعل هو الآن معي.

أفقتُ من شرودي على الصوت الخشن للشاب البرميلي، يردد كلام رأفت من أنه سيكون لي نِعمَ الأخ والصديق، وأنه ليس عليَّ إلّا أن أجرّبه مرةً واحدةً فقطْ، ولن أنساه بعدها أبدًا. قالها وهو يمسح بيده سريعًا ما بين فخذيه. لم أنطق بكلمةٍ، استدرتُ، ودفعتُ

جسدي للحركة، ثم هرعتُ نازلًا الدرج العريض القديم. في الخارج فاجئني هواء الخريف اللاذع فاحترقت منه عيناي قليلًا. كانت صورة الشارع تهتز أمامي كأنها ستارةٌ خفيفةٌ يلعب بها الظل والنور.

رحتُ أسير بسرعةٍ وبلا هدفٍ، لا أكاد أرى ما حولي، وأنا أسبّ نفسي، وأسخر منها، متسائلًا عن الخطأ الذي ارتكبه رأفت في حقي؛ لكي أختنق بكل هذا الغضب. ما مشكلتي بالضبط مع العرض الذي قدّمه لي؟ ألم يتصرف بحسن نيةٍ وكرم؟ أراد لكَ أن تواصل اللعبة ذاتها، ولو مع شريكٍ جديدٍ، رجلٍ آخر، ذكرٍ والسلام، مُستعدّ لِلّعِبِ، فما مشكلتك؟ ما الفارق بين أن يكون شريكك اسمه رأفت أو حمتو؟ أن يكون طويلًا ونحيفًا أو قصيرًا وبدينًا؟ ما الفارق بيننا وبين الكلاب الضالة؟ قد يكون حالها أفضل، فهي لا تكذب، ولا تسمّي الأشياء بغير أسمائها.

أخذتُ أتلفتُ حولي، كأنني أبحث عن شخصٍ ما، يمكنه أن يعثر عليّ فجأةً وسط الزحام والضجيج، وأن يجيب عن كل أسئلتي. شخصٌ يُشبه ذلك الشيخ الجليل أبيض اللحية الذي كان يظهر للبطل في الأفلام القديمة، كلّما ضاقت به الدنيا، فيمنحه الأمل والبشارة ويهديه حل اللغز. كان من الممكن أن أتخيّل مثل ذلك الشيخ أحيانًا عند خروجي من جامع جنبلاط بعد صلاة الفجر، أمّا الآن فقد كنتُ

أعرف أنه كذبةٌ لا تختلف عن الأكاذيب التي أنقشها في دفاتري عن وحدة الوجود وأنغام السماء.

كانت شوارع وسط القاهرة مكتظةً كما هي دائمًا بالسيارات والناس من كل لونٍ وصنفٍ، والرجال في كل مكانٍ حولي، في الأتوبيسات المزدحمة وعلى الأرصفة وفي المطاعم والمقاهي، متجمّعين على المحطات، أو يسعون بهمّة نحو مشاغلهم أو يتسكعون لمجرد قتل الوقت. انتبهتُ إلى احتمالاتٍ تمتد أمامي بلا نهاية، لماذا أبكي على مجرد رجل مرّ بي ويمكنني أن أجد ألف بديلٍ له، لا بُدّ أن لكل واحد من هؤلاء رائحة ومذاق وملمس، لكلٍّ منهم نبرة صوت وطريقة في الضحك وحكاية مهما كانت تافهة، وتعبير لا يخص سواه يُرسَم على ملامحه عند بلوغه الذروة. لماذا أسجنُ نفسي إذَنْ بداخل أوهام المراهقين؟ في تلك اللحظة، شعرتُ كأنني أفيق من غيبوبةٍ طويلةٍ، وأردتُ لو كان بوسعي أن أجرّب جميع الرجال الموجودين في العالم، جميعهم بلا استثناء تقريبًا، ما المانع؟ انفتح باب في داخلي لتبدو من خلفه غولة ظلّت حبيسةً وجائعةً، وراحت تعوي طلبًا للغذاء.

في ذلك اليوم نفسه، اصطدتُ رجلًا من الشارع لأوّل مرةٍ. كان في منتصف العمر، أصلعًا ونحيلًا، وتبدو بذلته واسعةً عليه، كأنه فقد نصف وزنه منذ أن خرج من بيته هذا الصباح. تبادلنا النظرات عند محطة أتوبيس بالقرب من ميدان رمسيس، وفهم

أحدنا الآخر. سرعان ما وجدتني معه في مكتب محاماةٍ يشتغل فيه، ويمتلك مفتاحه، ولا يوجد به أحدٌ في ذلك الوقت. تركتُ له نفسي على سجّادةٍ رثّةٍ، كان ملمسها مزعجًا على جسدي وركبتيّ المثبتتين في الأرض. قبضتْ أصابعه الصلبة عليّ من خصري بشدةٍ، وكأنه يخشى أن أفلتَ منه وأهرب. لم أستمتعْ بشيءٍ، ولكني أردتُ أن أجرّب وفقط، أن أكسر جدارًا، أن أنتقم من نفسي ومن تفاهتها وهشاشتها. كنتُ دُميةً من قماشٍ وقشٍّ، أدركتْ فجأةً أنها ليست سوى دمية، ولن يؤلمها شيءٌ بعد ذلك أبدًا، مهما غرسوا فيها الدبابيس، أو شدوا خيوط شَعرها. دُميةٌ مرميةٌ الآن نصف عاريةٍ على سجادةٍ قذرةٍ، بينما يشيرُ لها رَجُلٌ غريبٌ نحيفٌ بأن تسرع بارتداء ثيابها، قبل أن يفاجئهما أحدٌ.

لم تكن نوبةَ جنونٍ عابرةً، أو مجرد رد فعلٍ على بتر قصتي مع رأفت. كانت إشارةً لما ستكون عليه حياتي لسنواتٍ عديدةٍ بعد ذلك. مزّقت رقم هاتف ذلك الرجل، ونسيتُه بمجرد أن خرجتُ من تلك البناية، كان مجرد رقم واحد في طابورٍ طويلٍ من رجالٍ أشباحٍ بلا وجوهٍ أو أسماء، عبروا بجسدي وعبرتُ بأجسادهم، بلا مطالبٍ أو أوهامٍ سوى نزوة اللحظة.

تعلّمت مهارة الصيد بالممارسة، ودون مُعلّم. تعلّمتُ كيف أرسل النظرةَ، وأقرأ العلامات على الوجوه، وأنسحب خلف أحدهم، أو قبله بعيدًا عن موضع الصيد. تعلمتُ كيف ألقي نظرةً سريعةً على

عضو مَن يقف جواري أمام المبولة منتظرًا رد فعله، أو أن أخطف نظرةً إلى أحدهم إذ يداعب ما بين فخذيه كإشارة. اصطدتُ طلابًا من الجامعة وموظفين فيها، وقابلتُ بعضًا ممن يبيعون جسدهم للراغبين مقابل وجبةٍ أو مبلغ صغيرٍ، عرفتُ خطوط أتوبيسات النقل العام الشهيرة بازدحامها وبأنها ملتقى للمثليين حتى من غير المحتاجين لركوبها. مارستُ اللعبة في غرفتي بشقة عابدين، وفي عشرات الغرف الغريبة، وبعض أماكن عامة، وجربتُ حمّامات البخار المشبوهة حيث يجري التعارف، وربما بعض المداعبات.

صرتُ أخرج للصيد كلّما عضني الجوع، دون أن أكرر اللقاء مع الشخص نفسه إلّا نادرًا. وحتى بعد انقضاء تلك الفترة المجنونة من حياتي، ظللتُ ألتقي رجالًا لا أعرفهم ولا أذكرهم، قد يستوقفني الواحد منهم ويذكرني بنفسه، زاعمًا أننا فعلناها معًا ذات يوم. يقول أحدهم: "رحنا عندي في العيادة، مش فاكر لمّا كشفت عليك واديت لك الحقنة؟"، أو: "اتقابلنا في الساونا وكان معاك صحابك، وكنتم شاربين شوية"، أو:"أنا جورج، البارمان بتاع فندق الدقي يا أستاذ هاني، ده إنت حبستني معاك في الأوضه يجي تلات ساعات، معقول نسيت؟". كان هؤلاء مَن جمعتني بهم الصدفة مرة ثانية، مجرد عينة عشوائية من بحر الأجساد الذي استسلمتُ لتياراته تأخذني حيث تشاء، مثل جثةٍ جميلةٍ طافيةٍ.

رحتُ أستكشف في نهم حياة الليل ومخلوقاتها، وذلك الشخص

الآخر الذي يُولد بداخلي مع دخول كل مساءٍ. ذلك الشخص الذي ظلّ ينمو ويشتدّ عوده مع السنوات، فاقدَ الحياء مكشوف الوجه. أستكشفه في مرآة كلِّ رجلٍ جديدٍ. وصوّرتُ هاني الجديد هذا في خيالي بريشٍ ملوّنٍ ومنقوشٍ حول رأسه، ورسمتُه مزينًا بعقود الخرز وخيوط الكريستال وسلاسل الألماس والترتر واللؤلؤ. لم يكن شخصًا بقدر ما كان شخصيةً في عرضٍ موسيقيّ راقصٍ، أو نمرة في سيرك، كباريه متحرّك من لحمٍ ودمٍ. في الظاهر فقط يبدو مثل بقية الناس.

صرتُ أجذب أشباهي أينما ذهبتُ، فتكوّنت حولي شلّةٌ صغيرةٌ. كانوا حاشيةً، وكنتُ الملكة، وصاروا ينادونني هانوشكا. لم أعد أخجلْ من عمل ماما كما كنتُ قبل ذلك، بل صرتُ أتباهى به، وحين أنفق على شلة السوء بسخاءٍ، أقولُ لهم:

ادعو لماما يا بنات!

تسلّحتُ بمواهبي القديمة في المزاح والعبث، ووجهتُ طلقات سخريتي إلى الآخرين جميعًا، أصحابي والرجال ممن لعبوا دور ذكور النحل، يلاحقونني بينما أصعد إلى أن يصل إليّ أقواهم وأطولهم صبرًا. صرتُ هانوشكا، مصّاص دماءٍ لا يشبع ولا يستقر مع صيدٍ واحدٍ لأكثر من مرة أو اثنتين، مجرّد تذوق، مجرد العلم بالشيء، ثم ربما ألقي به صدقةً إلى أقرب البنات إليَّ. لا أتورط،

لا أبقى طويلًا، لا أريد أن أعرف شيئًا عن الآخر، أو أسمع منه حكايته، أريد فقط جسده، حرارته، وصوت أنينه، أو حشرجته عند الذروة. الجنس وفقط، ضيفٌ خفيفٌ على الجسد، لُعبةٌ مُكرَّسةٌ للنسيان والمحو، ثم يتواصل العرض.

ثم يعود المهرج إلى مرآته في نهاية اليوم. أعود إلى غرفتي المغلقة على وحدتي العارية. ربما تمسني كهرباء خفيفةٌ للحظات عابرة، بينما أخلع ثيابي، وأتأهب للنوم قرب الفجر، فأشعر وكأنني صرتُ ماما نفسها، وهي تنزع عنها إكسسوار إحدى شخصياتها. لم أكن هانوشكا في الحقيقة، كان هذا هو الدور المناسب لي، مجرد دورٍ، لا أكثر ولا أقل. ربما اندمجتُ فيه أكثر مما يجب، حتى لم أعد أعرف من هو هاني محفوظ الحقيقي، وكيف أعود إليه عندما أريد. عندي نسخٌ كثيرةٌ منه. صحيحٌ: كلها طبق الأصل، لكنها ليست الأصل، ليست أنا، كلها أقنعةٌ وخلفها لا يوجد أيُّ شيءٍ، فراغٌ مُفْزِعٌ، وله لذةٌ. في مثل تلك اللحظات الصغيرة، ربما أكتب بضعة سطورٍ في دفتر يومياتي، قبل أن أعيده إلى موضعه في دُرجٍ مغلقٍ لأنساه هناك أسابيع أو شهورًا، إلى أن تعاودني موجة الشكِّ هذه من جديد. مجرد لحظاتٍ عابرةٍ ترتبك فيها النجمة، الفنانة المشهورة، سفّاحة الرجال، بينما تعبر الكواليس المظلمة وراء خشبة المسرح، ولكن ما إن يقع الضوء على وجهها، حتى تعود إلى دورها المرسوم فورًا، فلا بدّ أن يتواصل العرض.

(11)

بينما يُدخلوننا إلى غرفة الحجز في قسم الأزبكية، اقترب مني أحد المخبرين أو أمناء الشرطة وشدّ خصلات شعري المتدلّية فوق مُؤخّرةِ عنقي، وجذبها بقوّةٍ، حتى لوى رقبتي للوراء، وصار وجهي للسقف القبيح، وقال مخاطبًا زملاءه بين الجد والمزاح:

أنا أول مرّة أشوف الشرموطة دي مع إن شكلها خبرة!

فوجدتني دون وعي أصيحُ بصوتٍ مختنقٍ:

سيبني يا حيوان!

لم تكن إلّا مداعبةً مبدئيةً خفيفةً، ممّا قد يقع بين بعض المحبين

قبل مباريات العشق المجنونة، لكني كنتُ أجهل هذا طبعًا. انتبهتُ على صفعة يدٍ ثقيلةٍ ترتطم بصفحة وجهي، فتحوّل اتجاهه إلى الناحية الأخرى، وللحظةٍ خاطفةٍ لمحتُ قطرتي ماء تطيران بعيدًا عن عينيّ بالحركة البطيئة، بينما يمضي وجهي وبالإيقاع ذاته في الاتجاه المقابل الذي أرسلتني إليه الكف الغليظة. حينما أفقتُ على ما حولي، وأنا مكوّم على أرضية الحجز، ملتفٌّ حول نفسي، أدركتُ أنهم أقنعوه بالصفح عني، وبالتوقف عن ركلي بقدميه؛ كي لا يتسخ حذاؤه -الذي لمّعه للتو- بسبب واحد وسخ مثل هذا.

عندما أغلقوا علينا باب الحجز، نظر بعضُ المحتجزين إليّ كما ينظرون إلى مجنون، وأدرك بعضهم بحدسه أنني عديم الخبرة بالأقسام والاحتجاز، لذلك سأتعب كثيرًا، تبرّع بعضهم بإسداء النصح، لكني لم أكن أسمع شيئًا، كنتُ فقط أستمتع بملمس الدموع تنزل على خدي النابض بالألم. كانت نوبات البكاء تروح وتجيء دون استدعاءٍ أو رغبة. تضرعتُ إلى الله في صمتٍ وخجلٍ، محاولًا السيطرة على ارتجاف أطرافي بلا جدوى.

لم يكن البرنس قد نجح في الوصول إليّ بعد، ولم يكن قد بدأ يدس في جيوب بعض الأمناء والعساكر ما يتجاوز رواتبهم الشهرية؛ حتى يتركوني في حالي على الأقل، ويوصلون لي الطعام والسجائر، ولم أكنْ قد بدأتُ أعتاد الضرب والسب والمهانة، ولا

تعرّفتُ باسم أول شخصٍ ممن معي في القبضة، أو بدأنا طقس تبادل الحكايات المعتاد، كريم سعدون، الذي ظلّ معي لساعاتٍ طويلةٍ داخل الكابوس قبل أن أنتبه إلى وجوده.

صار للوقت دبيبٌ مختلفٌ، يمضي بطيئًا بحيث يمكن لكل دقيقة أن تستوعب ملايين الأفكار والأشياء. لذلك لم أعد أذكر كم بقينا محتجزين في قسم عابدين دون أن نعرف عن مصيرنا شيئًا، ولا كم لبثنا في قسم الأزبكية بين يَدَيْ حسن فوّاز وضبّاطه يتسلّون علينا، بمتعةٍ مريضةٍ. أذكر فقط الضيق والاختناق والروائح البشعة، ووقوفي خجلًا للتبوّل في الركن أمام جردل بلاستيكٍ طافحٍ بالخراء. أذكر جيدًا طعم أول كوب شاي صغير أشربه في الحجز، بعد نحو يومين بلا طعام أو شراب غير الماء القذر، وكان بعض العساكر يزودوننا بالشاي من خلال فتحة صغيرة في سلك شبّاك الحجز، يمر منها خرطوم شفّاف كان من المستحيل قبل يومين أن ألمسه بيدي مجرد لمسةٍ، ثم يصب طرف الخرطوم الرفيع الشاي داخل زجاجة بلاستيكية نمسكها من داخل الحجز، تنبعج الزجاجةُ وتضيقُ من فرط السخونة مع كل دور شاي، حتى صارت في نصف حجمها تقريبًا، ورغم قرفي تناولت كوبًا بلاستيكيًّا مستعملًا، وشربتُ منه. وكم كانت أول جرعة شاي رائعةً ومنعشةً، كأن الدم كان قد توقف في عروقي قبلها، وها هو يجري الآن سعيدًا منطلقًا.

تعلمتُ أن للجسد حساباته الخاصة، وأن أنتبه لكل تلك الأشياء الصغيرة التافهة، مثل: جرعة شاي ساخنة أو سيجارة، حتى تحوّل يومي إلى سلسلةٍ طويلةٍ من الانشغال بتلك المسائل، الأكل والشاي والنوم وقضاء الحاجة. وعند الفراغ من تلك الهموم الملحة والعاجلة، نرجع إلى المسائل الأهم، مصيبتنا، القضية، الفضيحة، وماذا سيفعلون بنا بعد ذلك. لكنّ لقمةً بقطعة جبنٍ كانت في أحيانٍ كثيرةٍ أهم من كل شيءٍ آخر، وكنتُ مُستعدًا لتحمّل كل شيءٍ مثل الآخرين معي، لولا أن داهمتني نوبات لهاث ونَهجان واضطرابات في التنفس مصحوبة أحيانًا بتسارع في ضربات القلب، لأتذكّر فجأة أنني لم أتناول أي مهدئات أو أقراص مضادات الاكتئاب منذ فترةٍ.

على مدار يومين أو ثلاثة، أخذوا يستدعوننا واحدًا بعد آخر، ويلعبون معنا لعبة (اعترف بأنك خول، وأنا أتركك تذهب)، دون أن يذهب أحدٌ منا إلى أي مكان، مهما اعترف بأي شيءٍ. كان مع حسن فوّاز مسجّلٌ صغيرٌ؛ لتسجيل اعترافاتنا؛ لتكون دليله الحاسم قبل العرض على النيابة، أو قبل تحويلنا للطب الشرعي لتأكيد تلك الاعترافات الشفوية، وكان محاطًا على الدوام برجلين أو ثلاثة أقرب إلى خراتيت منهم إلى البشر، لم أعرفْ كيف أتصوّر أن يكون لهم خارج هذا المكان بيوت وأهل، وربما أولاد يحبونهم ويحنون عليهم.

في دولابٍ زجاجيٍّ جوار مكتبه كان هناك كرباج أسود حقيقيٌّ، استخدمه أوّل مرة مع كريم سعدون، حين أوشك الكرباج على النزول فوق رأسه، رفع يده تلقائيًّا، فالتف طرف الكرباج في ثوانٍ حول إصبع في يده اليسرى، وانقطع عرق فيه أو شيءٌ كهذا، وظل ينزف بيننا في الحجز وقتًا طويلًا، حتى بعد أن قطعتُ قميصي مِزَقًا، وربطتُ إصبعه بها مرةً بعد أخرى. لم يبدُ الدم شيئًا غريبًا في الجو المحيط بنا، لكنّ الولد راحَ ينظر إليه ذاهلًا، لاحظ اختناقي ولهاثي وتأمّل وجهي قليلًا، وسألني عن اسمي.

ضُربنا جميعًا في قسم الأزبكية، مَن اعترفوا، ومن عاندوا، مَن قالوا إنهم إيجابيون، ومن قالوا إنهم سلبيون. لم آخذ في يدهم غلوةً كما يُقال، ضربتان أو ثلاثٌ، وكنتُ مستعدًا للاعتراف بكل ما يملونه عليَّ. طلبوا مني أن أخلع بنطلوني، والحمد لله أني كنتُ أرتدي ثيابًا داخلية بيضاء، فقد عرفتُ أنّ من وجدوهم يرتدون كيلوتات ملونة بالغوا في ضربهم وإهانتهم، باعتبار هذا دليلًا دامغًا على خنوثتهم. كانوا يضحكون طوال الوقت، وفي أصواتهم رنةُ انتصارٍ عجيبةٌ، كأن ذكورتهم وفحولتهم نفسها كانت تنتفخ وتعلو وتصلُ إلى السماء مع كل "شاذ" جديد يمثل بين أيديهم ليلعبوا به.

لم أُضرب بالكرباج مثلما فعلوا مع كريم، لكن كانت اللكمات في انتظاري بمجرد دخولي إليهم. تستقر قبضة الثور منهم في بطنك

مثلًا للحظات، وكأنها سيارة نقلٍ ضخمة تضع حمولتها بداخلك، ثوانٍ معدودةٌ، وترجع إليكَ من جديدٍ، فتشعر أن تلك الحمولة لن تغادركَ إلى الأبد، وأنك لن تتنفس بصورةٍ طبيعيةٍ بعدها بالمرة. ثم تأتي الضربة التالية والتالية، على ظهرك، أو صفعةٌ سريعةٌ لاذعةٌ على قفاك، فتعيدك إلى الواقع، وتُنسيك الحجر الرازح في بطنك كأنه لم يكن، لتُفاجَأ بأن الألم كالمتعة، لا حدود يمكن معرفتها له.

دون أن أعي أو أفكّر، قلتُ لهم ما أرادوه:

أنا "جاي"، سلبي وإيجابي.

فطلبوا مني أن أكرِّرَ ما قلتُ بعد تشغيل المُسجِّل وإيقاف الضرب، وقد هدأ صوتي قليلًا، وصار أقرب ما يكون إلى الصوت الطبيعي. آخرون غيري ردّدوا هذه الكلمة تحت وطأة الضرب دون أن يفهموا معناها حقًّا، حتى أنَّ أحدهم سألني بعد أن عادَ نازفًا:

هو "جاي" دي يعني بياخد، ولا بيدّي؟

في النهاية انشغل كلٌّ منا بأوجاعه وصرخات جسده، تلك الأوجاع التي استمرتْ طويلًا حتى بعد تحويلنا للنيابة، ثم تجددتْ في حفل استقبال سجن طرة. بقيتُ بالقرب من كريم، لا أرتدي غير فانلة بحمالات بيضاء فوق البنطلون، وأنا أبكي في صمتٍ، يضيع صوت أفكاري وسط العويل والنحيب. ثم انفتح باب الحجز، ووقف

به ضابط، بدا ابنَ حلالٍ وطيّبًا، ولم نكن قد رأيناهُ من قبلُ، قال بوجهٍ جادٍّ ونبرةٍ مُتعاطفة:

أنــا مش هاكذب عليكم. قضيتكم كبيرة جــدًّا، عايزكم تجمدوا، وتستعدوا للي هيحصل.

ثم ذهب بسرعةٍ دون أن يتمهّل ولو ثوانٍ أمام فيض الأسئلة والتوسلات الذي انجرف نحوه من الجميع. بث فينا تعاطفه ذلك مزيدًا من الذعر.

بدأتُ في تلك اللحظة أعاني نوبة حقيقية من هَرب الأنفاس واللهاث، وأنا أدور ببصري في المكان، كأنني أفتّش عن نجدةٍ بأي شكل، فجأةً ووسط نهنهة البكاء والتوجّع، ارتفع صوت كريم من الركن الذي يندسُّ فيه صائحًا، وقد أشهر إصبعه المربوط نحو الأعلى: إنت الشاهد.

كان يُحدق في سقف الحجز بعينين واسعتين ومُندهشتين، وكأنه يرى شيئًا آخر غير ما نراه جميعًا.

(12)

أطول سَنَةٍ عشتُها في حياتي. تأكدتُ أنني خرجتُ من السجن حقًا، حينما وقفت عاريًا تحت ماء الدُش الساخن قبل عدة أسابيع، في حمّام هذه الغرفة بفندق آندريا الذي يملكه البرنس صديقنا العجوز، تحديدًا في فجر يوم الأحد 18 نوفمبر من عام 2001.

انتهت إجراءات إطلاق سراحي في الموضع ذاته الذي شهدَ ولادة الكابوس؛ قسم عابدين، وغير بعيد كذلك من موضع ابتداء حكايتي كلها، بيتنا القديم. لم يصدّق الضبّاط والأمناء في القسم أنني عاجزٌ عن النطق بالفعل، ظنّوا أنها حيلةٌ، ولولا وجود البرنس

والمحامي وعبد العزيز، لتمادوا في لعبهم معي، حتى يضجروا، ولعلّ هذا ما سيحدث مع آخرين ممن لن يسأل عنهم أحدٌ قريبًا. خرجتُ من القسم بينهم ألتقطُ أنفاسي بصعوبةٍ، ألهث مثل حيوانٍ شاردٍ في صحراء، رغم المهدئات التي عاجلني بها البرنس بمجرد خروجنا. هذا الرجل لا ينسى شيئًا، ولولاه لضعتُ.

تحت ماء الدش يومها، نزعتُ اللصقة الطبية الصغيرة عن جبيني بشدةٍ، فأوجعتني، وتحسستُ الغُرَزَ القليلة تحتها، وتذكرتُ كيف جرحتُ رأسي في سيّارة الترحيلات، عاودني البكاء من جديدٍ. ربما كانتْ دموع فرحٍ، إذ اكتشفتُ ببساطةٍ أنني قد صرتُ وحدي من جديدٍ. أخيرًا لا يوجد أحد بجانبي، بعيدًا عن رفاق العنبر وعن العساكر والكلبشات وزحام قفص المحكمة أو الحبسخانة.

لعلّ هذه هي الحرية الوحيدة الحقيقية، أن يملك الواحد فرصةَ أن ينفرد بنفسِهِ.

رأيتُ بعضًا من ملابسي القديمة، وقد أرسل البرنس في طلبها من بيتي قبل أيام، فاحتضنتُها بشوقٍ، ورحتُ أتشممها. اختّل توازني، فجلستُ على الأرض أمام الدولاب المفتوح، وعندئذٍ رأيتُهُ، ساكنًا تمامًا في ركن الدولاب، عنكبوتًا أسود صغيرًا للغاية، كأنه وُلِدَ للتوّ. وجدتني أتحدث إليه بلا صوتٍ، أخبره بأنني لم أعد أخاف منه هو وعائلته كما كنتُ وأنا صغيرٌ، فقد عاشرتُ جميع أنواع الحشرات

لشهور في السجن، وكثيرًا ما صحوتُ من نومي على مداعباتها. مددتُ يدي نحوه، في البداية تهرّب كثيرًا، وحين لم يجد مفرًّا بدأ يصعد على طول رُسغي، فالتقطتُه بيدي الأخرى، ووضعته على راحتي المفتوحة، فكّرتُ قليلًا وأنا أنظر إليه، ثم حبسته في درج الكومودينو. سجنتُه، لن أكون وحدي تمامًا.

أصبح سجني الجديد غرفة في فندق أربع نجوم، مزوّدة بمكيف للهواء وحمّام خاص وتليفزيون، وتسـريحة، أحاول تجنب النظر نحو مرآتها أغلب الوقـت؛ لأتجنّب الغريب الذي يُهددني بنظراته الميّتة. كنتُ آخذ الأدوية، وأنام لساعات، وبين الحين والآخر، أقوم فآكل، وأستحمّ طويلًا. وقد أقلّب قنوات التليفزيون، على أمل العثور بالمصادفة على فيلم أو مسلسـل من أعمال ماما، فأسـمع صوتها، وأرى وجهها، تكشيرتها، وابتسامتها، ولمعان عينيها.

في الأيام الأولى لخروجي من السجن، لم أغادرْ هذه الغرفة. يتناوبُ على رعايتي البرنس وأصدقاء آخرون، كلهم يريدون أن يطمئنوا على الناجي من المذبحة. وزارني صديقنا دكتور سميح أكثر من مرةٍ، مؤكدًا على عدم المبالغة في تناول الأدوية وضرورة الراحة وتجنب أي انفعالٍ. جميعهم يتكلمون وأنا صامت، لا أستطيع التجاوب معهم إلّا بالورقة والقلم، وألمحُ في أعينهم على الدوام الإشفاق والإنكار، كأنهم يسألون السؤال ذاته الذي لا يفارقني:

أين اختفى هاني؟ أين حبيبنا القديم؟ لذلك كنتُ أتظاهر بالنوم كثيرًا لمجرد أن أبقى بمفردي، وأحدّث نفسي بأنه لا جدوى من ذلك كله، فأنت انتهيتَ يا هاني، ولا فائدة كذلك من الاستحمام كل بضع ساعات، ولا من دعك جسمك بالصابون بكل غلّ. لقد نجحوا في تلويثك من الداخل إلى الأبد، ولن يمحو آثار أصابعهم عنك أي شلّال طاهر.

على سبيل إنكار هزيمتي تلك، أو تأجيل الاعتراف بها لأبعد مدى ممكن، أخذتُ بنصيحة دكتور سميح، وقررت أن أخرج من الفندق ذات ليلةٍ لأحرّك قدميّ على الأقل. رأيت الفرح في ابتسامة البرنس، حينما رآني قد ارتديتُ ثيابي، وتهيأتُ للخروج لأوّل مرةٍ. وفيما بعد، حين اعتاد خروجي الليلي، ظل يتابعني بعين القلق والترقّب، فلعلّه كان يحاول أن يخمن الأفكار التي تدور في رأس صاحبه الأخرس العائد من الأسر. ربما لم أكن أخرج من الفندق كل ليلة إلّا هربًا من مراقبته ورعايته المفرطة.

كنتُ أمشي في البداية مترددًا، أتقدم وكأنني أتراجع. ورغم كل الضجيج المجنون في وسط المدينة فقد كان كل شيءٍ يُغلّفُهُ صمتٌ مذعورٌ، صمتُ طفلٍ ضبطوه مُتلبّسًا بجريمته، لا يسمع إلا خفقان الدم يضرب في أذنيه متوقعًا أشد العقاب. أمشي ناظرًا إلى الأرض، كمن يبحث عن شيءٍ سقط منه عفوًا، أتابعُ حركة قدميّ تسبقان جسدي، وتجرّاني إلى الأمام رغمًا عني تقريبًا، أراهما مستغرقتين

في رقصتهما الخاصة على الأرصفة والطرقات. شعرتُ مرّةً بأنهما حيوانان أليفان، محبوسان داخل الجورب والحذاء. لا أدري إلى أين يقوداني كأعمى لا يرفع عن عينيه نظارته الشمسية أبدًا، رغم أنه لا يخرج إلّا ليلًا. أحسستُ بوضوحٍ أنّ قدميّ شيءٌ حيٌّ، بل ربما الشيء الوحيد الذي ما زال حيًّا فيّ. ونادرًا ما كنتُ أرفع عينيّ عنهما، كأنني سأتوه لو غفلتُ عن حركتهما ولو ثوانيَ. نادرًا ما أرفع عينيّ لأقلّب النظر فيما حولي، فماذا قد أرى؟ ناسًا؟ ناسًا أكثر من اللازم، أصنافًا وأشكالًا وأعمارًا وهيئاتٍ وثيابًا، كلماتٍ ونداءاتٍ وهمساتٍ ومعاكساتٍ. الدنيا تتنكر في هيئة ناسٍ لتمشي وتنسى، لا تلتفت أبدًا وراءها.

مع تكرار خروجي، كنتُ أبتعد أكثر في كل مرة عن ممر بهلر حيث الفندق، وكل مرة أمضي بالخارج وقتًا أطول قليلًا. قدماي تدبّان بسرعة، وكأنهما تعرفان لنا وجهةً ما، مرفأً أخيرًا حيث يسعهما أن تتنفسا وتستريحا، وتحكي كلٌّ منهما لصاحبتها عن أوجاعها وأمنياتها. إلى أن أخذتاني ذات مرّةٍ إلى بارٍ صغيرٍ شعبيٍّ في منطقة الألفي، حيث ارتشفتُ أول جرعة بيرةٍ منذ شهورٍ طويلةٍ. رغم إلحاح البرنس أن أشاركه سهرات السطح في فندقه، دون أن أستجيب له، فلم أشعرْ بأنني مستعدٌّ لأن أواجه من جديدٍ عالمي القديم. في ذلك البار الصغير، قبل أسابيع، حررتُ قدميّ من حبستهما، وأخرجتهما للهواء تحت المائدة. ثم أمسكتُ القلم، وكتبتُ

أول جملة غير موجهة لشخصٍ غيري:

(اسمي هاني محفوظ، وكنتُ طفلًا وحيدًا مُدلّلًا من الجميع، كأنّ أمي الشمس وأبي القمر.)

أنظر الآن إلى تلك الجملة بامتنانٍ، بعد أن تتابعتْ من تحتها السطور والصفحات. لولاها لما انفلت لساني على الورق، ولصار خرسي مسخًا مزدوج الرأس. كانت الكلمات بخيلةً في البداية، وكأنّ خرس لساني يقبضُ على يدي، ويمنعها من الحركة. صبرتُ على تلك الجملة أيامًا، حتى عرفتُ كيف أتابع الرحلة، وعرفتُ ما الذي أريد أن أحكيه، لنفسي أو لدكتور سميح على الإيميل، أو لشخصٍ مجهولٍ رحتُ أتخيّله يقرأ سطوري بعد موتي بسنواتٍ طويلةٍ.

منحتني السماء أمس هديةً باسمةً. كنتُ أبحث بين قنوات التليفزيون عن أي عمل من أعمال ماما؛ لأشاهده قبل أن أنام قرب الفجر، ففوجئتُ بمسلسلٍ قديم لها، كانت تُمثّل دور امرأةٍ مُطلّقةٍ لها ابن اسمه هاني. لعلّ المخرِج هو مَن اقترح تغيير اسم الابن في السيناريو عامدًا، حتى تبدو طبيعيّةً أكثر بينما تناديه وتداعبه وتبكي حين ينتزع أبوه حضانته منها. رأيتُ أمي ليلتها، وسمعتُها تناديني، ولو كانت صورةً ملونةً على شاشةٍ باردةٍ، "هاني، حبيبي". نمتُ بمجرد انتهاء الحلقة، راضيًا مثل جنين في ظُلمة الرحم.

(13)

حينما شاهدتُ ماما لأوّل مرةٍ على الشاشة تتبادل قُبلةً ساخنةً مع ممثلٍ، في واحدٍ من أفلام الشواطئ والمايوهات، انقلبتْ معدتي، وأوشكتُ أن أتقيأ. لم أعدْ طفلًا، وأعرف أن هذا كله تمثيلٌ في تمثيلٍ كما يقولون، لكنها رغم ذلك أمي، وأنا كبرتُ، وهذا الرجل الوسيم ليس أبي.

في ذلك اليوم نفسه، حين استيقظتْ من نومها لم أتحدّث إليها، وانتظرتُ منها أن تسألني عمّا بي، لكنها لم تهتم. ثم سخرتُ من نفسي، وقرّرتُ مشاكستها. ذهبتُ إليها ساعة العصر في الشرفة

وهي جالسة كالملكة في روب نبيذيّ، تشرب الشاي، وتدخن، وتتصفح بعض المجلات. جلستُ على الناحية المواجهة لها، وبقيتُ صامتًا، حتى رفعتْ رأسها نحوي مبتسمةً، فقلتُ:

ماما، أنا قررت أدخن.

جلجلت ضحكتها، ومدّت لي يدها بسيجارة مارلبورو أبيض، ثم أرسلتني لأحضر لها علبةً خشبيةً مُطعّمةً بالصدف من غرفتها، وحين ناولتها لها، أخرجتْ ولاّعةً فضيّةً وأعطتها لي:

حافظ عليها يا حبيبي، دي من ريحة بابا.

شردتْ للحظة بعينيها بين الأشجار والعصافير، وكأنها تتذكر أحمد، رجلها الوحيد. استعادت ابتسامتها، وعادت للقراءة من جديد، أو تظاهرت بذلك.

أغلب الوقت، كانت تبدو بعيدةً مثل ضوء فنار، يومضُ ويخبو، على الضفة الأخرى من ضياعي. وكنتُ أتأملها تتفتح كوردةٍ، أثمرَ تعبها مع الوقت بما تجاوز كل توقّع. كأنما انتبه إليها فجأة كبار المخرجين، إلى موهبتها وبساطة أدائها، فمنحوها شخصياتٍ أهم ومساحاتٍ أوسع، فمن دورٍ في فيلم دينيّ كبيرٍ عن غزوات الرسول، إلى شخصية زوجة العُمدة الطاغية في مسلسل ساقية الأيام، والذي حقّق نجاحًا غير مسبوق بمجرد عرض أولى حلقاته

في شهر رمضان. وكأن موضعها هذا ظلَّ شاغرًا بانتظار أن تملأه هي بالذات. كنتُ أتأملها، وأنا أتقلّب بين الإعجاب والحسد والغيظ.

كُنَّا قد انتقلنا إلى شقة جاردن سيتي في السنة الثانية لي في الكلية، وباعت شقتنا القديمة حين علمت أنني ما زلتُ أترددُ عليها مصطحبًا بعض الأصدقاء. أفزعها هذا، وربما ظنّت أنني انجرفتُ مع موجة المخدرات، مثل خالتي حُسنية، واستجوبتني طويلًا، ولم تقتنع بتأكيدي وقَسَمي لها على المصحف، فأخذتني إلى طبيب. شعرتُ بالمهانة لأنها لم تصدقني، لكنها اطمأنت، من هذه الناحية على الأقل، وصرتُ أنا مَن يبدأ فترات القطيعة بيننا التي قد تمتد لأسابيع. كنتُ أغلي بسُخطٍ لا أجد له أسبابًا واضحةً، وطوال الوقت أتوقّع مفاجأةً أخرى تهدمُ ركنًا جديدًا من حياتي فوق رأسي، ربما كنتُ أخشى أن تجد رجلًا آخر، غير أبي، غيري، فينقطع الجسر الهش بيننا.

حتى الشقة الجديدة، لم أفرح بها في البداية، رغم اتساع غرفها وأثاثها الثمين، والهدوء الراقي لشارع جمال الدين أبو المحاسن. افتقدتُ حي عابدين وجامع جنبلاط، وكثيرًا ما كنتُ أذهب إلى هناك، بعد الكلية، لأتمشّى قليلًا قبل الرجوع إلى البيت.

في دفاتر يومياتي، كنتُ أحدّثها أكثر من حديثي معها في الحياة،

أكتبُ عنها كلماتٍ طيبةً وودودةً، وأنوي أن أقولها لها في أقرب فرصةٍ، غير أن الكلام كان يتلاشى بمجرد أن أراها. وتحت ضغوط عملها، كانت تفرغ توترها فيّ أحيانًا، وصرتُ أسمع عبارات من قبيل: "إيه اللي ناقصك عشان تنجح وتتفوق؟"، "أنا باحرق أعصابي كل يوم علشان تعيش كويس"، إلى آخره.

ثم تحاول بلا مقدماتٍ أن تستعيد أيامنا القديمة السعيدة معًا، حين تأتي إليّ؛ لتعرف رأيي في ثوبٍ جديدٍ، أو تسحبني من غرفتي لنشاهد معًا حلقة أولى من مسلسلٍ جديدٍ لها. كانت تحاول، لا بُدّ أن أعترف. أتخيّل الآن فقط قدر انحباسها هي أيضًا في وحدتها، على الجانب الآخر. ثم أُضيفتْ إلى قائمة همومها العديدة مشكلاتُ خالتي حُسنية التي انحدر بها الحال في غضون سنواتٍ قليلةٍ من الإذاعة وحفلات التليفزيون، إلى صالات الدرجة الثالثة من جديدٍ.

بعد سنوات، سوف أسمعها تحكي لماما كيف كانت تغنّي في حفل بالسويس تحت إشراف أحد الأجهزة الأمنية كما كانت العادة في ذلك الزمن، وأنهم نبّهوا على المطربين المشاركين ألا يتجاوز كلٌّ منهم نصف ساعةٍ على الأكثر. سمعتْ خالتي هذا الكلام من أذنها اليمنى وأخرجته من اليسرى. كانت في المزاج المناسب، وتريد أن تجلجل بالغناء. حين حان دورها، أخذت تغني حتى انتهت الوقت المحدد، وهي في غاية الانسجام مع الجمهور الذي يطالب

بالإعادة، والمطربة التالية تنتظر دخولها واقفةً في الكواليس. اضطر المشرفون على الحفل أن يطفئوا عليها النور، ويسدلوا الستار، ثم جذبوها بالقوة من فوق المسرح، وهي ما زالت تغني أغنيتها الناجحة آنذاك، (م العسكري الأسمر يا غُلّبي). لم تستسلم ببساطةٍ، فبينما كانوا يجذبونها مرّت بالمطربة الأخرى، فمدّت يدها، وأمسكت بباروكتها المنتصبة فوق رأسها كالبُرج، وجذبتها عن رأسها، فخلعتها، وعلا صوتها بالسباب حتى سمعه الجمهور:

يا شرموطة المخابرات يا أم صوت مُستعار يا مغزة.

بعد تلك الواقعة، لم تجرؤ على الاقتراب من مبنى الإذاعة، ولم تعد تشارك في حفلات الدولة أو تظهر في التليفزيون، وعادت لجمهورها الأول من سكارى الكباريهات، وهي تضحك وتلهو، كأنها تتابع فيلمًا كوميديًا عن حياة واحدةٍ أخرى غيرها. ظهرتْ ضلوعُها من تحت ثيابها الخفيفة، وتحولت عيناها الجميلتان إلى حفرتين داكنتين وسط رماد وجهها، واختفى العشّاق والمعجبون من حولها. وخلال أزماتها المالية والصحية المتكررة، لم تكن تجد ملجأً، إلا في بيت أختها الصغيرة، وكلّما رأيتُها ووراءها البوّاب يجر حقيبة سفرها الكبيرة، أغتم، وأغلق على نفسي غرفتي. كنتُ أكره تلك الأسابيع أو الشهور التي تقضيها معنا كفترة نقاهةٍ، وتتأكد عزلتي طوال وجودها معنا.

اكتشفتُ وقتها أن وحدتي لم تعد صخرةً أحملها وأسعى بها ليلَ نهار، بل صارت هي رفيقي الوحيد الحقيقي، مرآة لا تحبسني بداخلها، بل تحررني، وتطلقني؛ لأطير على راحتي طول الوقت. وكان وجود خالتي يفسد هذه الحرية، ويخل بالتوازن المحسوب الذي صنعناه أنا وماما. كانت حُسنية أقرب إلى عورةٍ مكشوفةٍ في نور النهار، لا تُبالي بانكشافها، وكان حضورها يكسر جو البيت، وما يخيّم عليه من صمتٍ وكتمانٍ وأبوابٍ محكمة الإغلاق. ضحكتها المعتوهة تجلجل في أي وقت من اليوم بسبب أو من غيره، وتجوّلها بين الغرف شِبْهَ عاريةٍ معظم الوقت، ورغبتها في التحدث مع أي شخص، حتى لو كان الخادمة، أو زوجة البوّاب، ثم وصلات الغناء التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد. وحينما تستعيد نفسها، وتملّ بيت الأشباح كما أسمته، نصحو في الصباح فنُفاجأ برحيلها، لا ندري إلى أين. عندئذٍ كنتُ أتنفسُ بعمقٍ، وأعيد إغلاق النوافذ والأبواب، كأنني أخشى أوهن نسمةٍ أو أضعف شعاع.

ثم جاء رسوبي في سنتي الثانية في الكلية جرس إنذارٍ، أيقظ أمي من شرودها، لكنها لم تدرِ ماذا تفعل، حاولتْ أن تتكلم وتقترب وتنصح، بلا جدوى. ثم أخذتني إلى شاليهٍ صغيرٍ في العجمي، اشترته مؤخرًا. لأيَّامٍ معدودةٍ، استعدنا صورة المودة المطموسة، لكنها أفسدتْ كلَّ شيءٍ، حين أوعز لها عقلها بأنني قد أكون بحاجةٍ إلى أب، رجل يعيش معنا في البيت والسلام، وبعد تردُّدٍ ومراوغةٍ

أفضتْ لي بفكرتها، بينما نشرب الشاي ساعة المغرب في الشرفة. ألمحتْ إلى أنها رفضتْ عروضَ زواجٍ كثيرة، وأنها لا رغبة لها في الرجال، ولكنها قد تفعل ذلك، فقط لو أحسّت أن في ذلك مصلحة لي.

للحظة أوشك أن يغلبني ميلي الأصيل للتهكم، وتخيلتُ رد فعلها لو قلتُ لها إنني موافق، شرط أن يكون الزوج الجديد مستعدًا لأن نتقاسمه أنا وهي معًا. لكنني كبحتُ نفسي كالعادة، وهززتُ كتفيّ غيرَ مبالٍ، وقلتُ بنبرةٍ مستفزةٍ وأنا أتناول سيجارةً أخرى:

لو عاوزة تتجوزي اتجوزي، إنتي حُرَّة، بس بلاش تعمليني حِجّه، أنا كبرت ومش محتاج لا بابا ولا...

لم أكمل جملتي. أشاحتْ هي بعينيها بعيدًا، ثم لملمتْ أذيال روبها الحريري الفضفاض، وقامت، وغادرت الشرفة. نجحنا في تجاهل هذا الموضوع، حتى نهاية أيام الإجازة القصيرة، ولم نعد إليه بعد عودتنا إلى القاهرة.

كان جرس الإنذار الثاني أعلى صوتًا، حين بدأت تصيبني نوباتُ الهلع، تنزل عليَّ فجأةً بينما أقرأ أو آكل أو أشاهد التليفزيون. كنتُ أشعر بشيءٍ يمسكُ بخناقي وتتسارع دقات قلبي، وترتجف أطرافي، وأحس كأنني موشكٌ على الموت. أحالني الطبيبُ الذي زرتُه مع أمي إلى طبيبٍ نفسيٍّ وصف لي بعض الأدوية، وترددتُ

عليه لفترةٍ طويلةٍ، مُستمتعًا بمراوغته وخلط الحقائق بالأكاذيب في جلسات البوح المضحكة تلك. لكنني استسلمتُ بعد فترةٍ، وحكيتُ له عن كوابيسي، كوابيس العناكب القديمة، ثم تلك الجديدة التي أرى نفسي فيها عاريًا تمامًا وسط جميع مَن أعرفهم.

لم أفكر حتى في اطلاعه على ميولي السرية نحو الرجال، كنتُ واثقًا أنه يقدّم تقريرًا عن حالتي لأمي أوّلًا بأوّل. وبعد فترةٍ، بدأتُ أعتاد نوبات الهلع، بل بدأتُ أحبها بطريقةٍ ما. كنتُ أشعر بعدها أنني متُّ، وعدتُ إلى الدنيا من جديدٍ، أو مثل مَن ينال عقابًا غريبًا، ولكنه يخرج بعده مغسولًا وجديدًا ومستعدًا لارتكاب المزيد من الأخطاء والذنوب.

كنتُ أصحو أحيانًا بعد منتصف الليل بكثير مذعورًا، ربما بعد حُلم من أحلام العناكب، أو حلمي الآخر الذي أتأخر فيه عن موعد امتحانٍ مهمّ. فأتنفّسُ بنهم، واقفًا أمام النافذة المفتوحة. كنتُ أعرف عندئذٍ أنني أريدُ شخصًا ما يضمني إليه، حتى أذوب وأتلاشى تمامًا في حضنه. أحيانًا كنتُ أتذكر أبي، وأقرأ له الفاتحة، ثم لا أدري لماذا أجدني ألعن أمي وخالتي والطبيب النفسي، وجميع الآخرين، وأفكر في أن الموت هو الحل الوحيد الممكن والمنطقي لكل ما أحمله فوق رأسي من خراء، وأمشي به بين الناس متظاهرًا بأنني طبيعي.

ثم أعود من جديدٍ إلى الصلاة والدعاء والصبر، بعد أن اكتشفتُ مسجدًا صغيرًا وجميلًا بالقرب من بيتنا الجديد، فصرتُ أُصلّي فيه الفجر أحيانًا، ثم أتمشى في الحي الهادئ متنشقًا طراوة الصبح، ومتأملًا هندسة العمارات الأنيقة، أتابع السماء تخلع ببطءٍ حجابها الداكن، وتكشف عن ألوانها الباسمة. دون أن أشعر مع هذا بأي شيءٍ يشبه تلك المسرّة القديمة الدافئة، التي جرّبتُها منذ سنواتٍ معدودةٍ، عندما كنتُ أتخيّل شخصًا ما سوف يظهر لي من العدم ليغيّرني تمامًا.

كنتُ أتصوّره شيخًا أنيسًا وجليلًا، سألتقي به ذات مرةٍ بعد صلاة الفجر، وبنظرةٍ واحدةٍ منه نحوي سوف يدرك كل شيءٍ، سوف ينفذ ببصيرته إلى باطني، ويطّلع على ما أخفيه من أسرار مشينةٍ، ثم يدنو مني، ويضع يده الرطبة على مقدمة رأسي، وبهذه اللمسة سوف يمحو كل إثم وكل نجسٍ، سوف تتبدد في ثوانٍ معدودةٍ كل ذكرى كريهة بأشباحها ومخاوفها، وعندئذٍ سوف تعود للسماء ألوانها القديمة الضاحكة.

كانت تسلية لطيفة، مُسكّنٌ لا ضرر منه، لكنه لا يملأ الحفرة التي انشقت داخلي، ويزداد عمقها مع كل يوم. كنتُ أدركُ أن مثل هذا الشيخ الطيب لا وجود له إلّا في الأفلام الساذجة، وأنني حتى لو تعثرتُ به ذات يوم، فإنني على الأغلب سأحاول اصطياده،

سأعرضُ عليه مضاجعةً سريعةً، وأنا أشاكسه متسائلًا إن كان ما زال قادرًا على فِعل ذلك. لكنه سيهرب مني، فمثل هؤلاء الشيوخ الخرافيين لا يملكون جسدًا حقيقيًّا، وغاية طاقتهم ابتسامة رخيصة، ابتسامة المواساة العاجزة، يتبادلها مريضان في عنبر الحالات الميؤوس منها.

(14)

لم أنتظر طويلًا قبل أن أعثر على شيخي الطيّب، لكنه كان أبعد ما يكون عن حُلمي به. لم ألتق به بعد صلاة الفجر، ولم يكن مجللًا بالبياض أو حول رأسه هالةٌ من نورٍ، بل اقترب مني وسط البخار ونفثات الشهوة والأجساد العارية. البرنس أكثم، أبي الروحي الذي لاتزال رعايته حتى الآن تحيط بعنقي مثل طوقٍ من حرير.

في رحلاتي الاستكشافية، كنت قد عرفتُ الطريق إلى حمّام بخارٍ شعبيّ، غير بعيد عن ميدان رمسيس، مبنى عتيق، ربما يكون تابعًا لوزارة الآثار، يكاد يكون غاطسًا تحت سطح الأرض.

يقصده الراغبون في الاستحمام والتدليك، كما نقصده نحن لأسبابٍ أخـــرى. كان مجرد ملتقى للتعارف والاصطياد، ولا يحدث الكثير بالداخل، رغم تواطؤ العاملين فيه. ربما ينفرد اثنان في ركنٍ معتم لبعــض الوقت، لكنّ اليائســين فقط مَن كانوا يكملون الشــوط إلى نهايته هناك.

أوّل مرةٍ لي هُناك اندهشتُ، وارتبكتُ أمام الأجساد العارية والنظرات المتفحصة، وإحساسي الغريب رغم ذلك بالألفة وسط تلك الأجواء، كأنني أعرفُها وعشتُها من قبل. مع الوقت وتكرار الزيارات، بدأتُ أتكلم، وأضحك، وربما أتبادل قبلاتٍ ومداعباتٍ خفيفةً مع غرباء ومجهولين، مُحتمين جميعًا بغيابٍ شبه كاملٍ للهوية. أتشجّع قبل الذهاب غالبًا ببضع زجاجات بيرةٍ في أيّ بارٍ في وسط البلد، ثم أتخلّى في باحة الحمام الخارجية عن ثيابي واسمي وحياتي كلها، وأدخل مكشوفًا إلّا من رغبتي، أكاد أترنح لصعوبة الحركة بالقبقاب الخشبي الثقيل، لا تسترني غير ملاءة حول خصري.

ربما أكون قد لمحتُ البرنس قبل تلك الليلة، بشعره الذي كان يصبغه آنذاك بأحمر ناريّ، واهتمامه المذهل بأناقةٍ تنتمي لعهود بائدةٍ، فلا يستغني أبدًا عن القبعة والعصا. كان يرسل نحوي نظراتٍ متسائلةٍ كلما رآني في أحد أماكننا، كأنه ينتظر أن أمثل بين يديه لتقديم فروض الولاء والطاعة، وكنتُ أتجاهله، ويكتفي هو بنفخ

دخان سيجاره البني الرفيع في الهواء، وقد يبتسم، أو يغمز بعينه. حتى تلك الليلة حين مدّ يده، وأمسك بي، قبل أن أقع في شَرَكٍ أعدّه لي أحدُهم.

كان الفخ رجلًا عملاقًا داكن السُمرة، يطفح كل شيءٍ فيه بفحولةٍ مُعلنة. تفاهمنا بالأعين، ثم اقترب مني، وفتح حوارًا. رآنا البرنس نتهامس، وفهم اللعبة، وكنتُ سأذهب مع ذلك المارد إلى شقته القريبة كما قال لي. ما إن سبقني لارتداء ثيابه، حتى أحسستُ بيدٍ باردةٍ على كتفي، فاستدرتُ وتعرّفتُ في الحال على العجوز المُتصابي، نظرَ في عيني، وهزّ رأسه يمينًا ويسارًا ببطءٍ، وهمس بكلمةٍ واحدةٍ رنّت مثل جرسٍ: خَطر!

ثم أخذني من يدي، وجلسنا أمام غرفة البخار، حيث تمدد، وأشعل سيجارًا، وأخبرني بأن الرجل الذي أوشكتُ على التورط معه، ليس إلّا بلطجيًّا، احترف بيع جسمه للرجال، ثم بدأ يتعاون مع مباحث الآداب مُرشدًا لهم، وصار الآن يعيش على الابتزاز، مهدّدًا مَن يتعرّف عليهم؛ إما بفضحهم لدى أهلهم، أو تسليمهم للشرطة. قال بصوتٍ عميقٍ يصلح لمذيع:

مش أي حد تروح معاه على طول كده يا سي هاني. انتا ابن ناس ووالدتك فنانه كبيره. وفيه ولاد حرام كتير، هنا وف كل حته، وانتا بالنسبه لهم فرصه هايله للابتزاز.

صدّقته بلا تردد، وقد أوحى لي بالثقة والطمأنينة. ولم أندهش أمام معرفته بي إلى هذا الحد، فهو البرنس. وظللتُ إلى جانبه كالمُنوَّم مغناطيسيًّا، حتى قرّر الذهاب، واتفقنا على لقاءٍ قريبٍ. أحسستُ أنني أمام مدرسةٍ حقيقيّةٍ، وأن عليّ الالتحاق بها فورًا، كما تبينتُ أنه لم يكن سخيفًا وثقيل الظل كما ظننتُ، ربما بسبب ما له من هيئة إقطاعيّ هاربٍ من متحف الشمع.

بعد يومين فقط من تلك الليلة، كنتُ أجالس البرنس، على مائدةٍ محجوزةٍ باسمه دائمًا في مكانٍ غريبٍ اسمه الكوب ويب، أو عش العنكبوت، مطعم وبار يقدّم حفلات موسيقية أحيانًا، في الطابق الأرضي من عمارة في الزمالك. كان ديكوره غريبًا وكئيبًا يشبه القصور القديمة في أفلام مصّاصي الدماء، لكّنه كان مكانًا مثاليًّا للنميمة الهامسة وإفشاء الأسرار والتعلّم في مدرسة البرنس. حكيتُ له، في لقائنا الأول هناك، وبمناسبة اسم المكان، كيف وقع فوقي وأنا في السادسة من عمري تقريبًا عنكبوتٌ صغيرٌ وأنا جالس على قاعدة الحمّام، نزل فجأة على رقبتي وتسلّل إلى داخل البيجامة بسرعة فصرختُ وقمتُ أجري منتفضًا، ونصفي التحتي عارٍ تمامًا إلى أمي وجدتي، وأنا أصيح:

عنكبوت! الحقيني يا ماما! عنكبوت يا ماما!

شبعتْ أمي وجدتي من الضحك عليّ يومها. لكنّ الحكاية لم تنتهِ

عند هذا الحد، بل بدأت. قلتُ للبرنس كيف صرتُ من يومها أرى في أحلامي عناكب على الدوام، مختلفة الأشكال والأحجام، إمّا عنكبوتًا واحدًا كبيرًا، وإمّا عناكب كثيرةً صغيرةً تجري باتجاهي. قد تختلف سيناريوهات الحلم، ولكن تبقى العناكب هي الأساس. في لقاءاتي التالية معه، سوف أُطلعه على نوبات الهلع التي تتردد عليّ، وعن طبيعة علاقتي بأمي واختناقي من المذاكرة، واحتقاري لنفسي بسبب ميولي نحو الرجال، وخوفي من عجزي عن الانجذاب لأي أنثى مهما حاولت. كنتُ أتفجّر بالكلام كلما انفردتُ به، عندما لا تُزين مائدته الوجوه الجميلة وتنتعش السهرة بالنكات والأغنيات. كان يجذب إليه جميع أصناف البشر، منا ومن سوانا، رجالًا وشبابًا ونساءً، كان أقرب إلى شيخ طريقة يتبعه المريدون أينما حلّ، ولم يبخل يومًا بالنصح والإجابة عن أي سؤال في أي موضوع، فهو أبعد ما يكون عن التواضع وغير مستعد للاعتراف بجهله في أي مسألة. بدا لعينيّ موسوعةً حيّةً في ذلك الحين، وخصوصًا فيما يتعلق بشئوننا، نحن "الحبايب"، كما اعتاد أن يُسمينا.

علّمني الحذر والتردد، وكيف أنظر لمواضع خطواتي، وألّا أرتمي على كل رجلٍ مُتاح، وكيف أتذوّق، وأنتقي، وأفاضل. تعلّمتُ كيف أفصل بين وجهي السريّ بنزواته ومغامراته، وبين حياتي الاجتماعية العلنية. تعلّمتُ الطموح، وبدأتُ أفكّر في كلمة المستقبل لأول مرة تقريبًا. لم أعد أخجل من شراء العازل الطبي

من الصيدليات ولا أمارس الجنس من دونه أبدًا، فحكايات البرنس عن بعض معارفه ممن أصابهم نقص المناعة ظلّت تدق في رأسي. كان يأخذ بيدي، أنا وآخرين، ليقودنا وسط غابة الرغبة المعتمة، التي لم نكن نعرف أي ثمارها مسمومة وأي حيواناتها ضارية. وعلى مائدته في الكوب ويب كوّنتُ صداقاتٍ حقيقية بآخرين لهم نفس الميول غير الشلّة القديمة التي قطعتُ صلتي لها، متعاليًا على تفاهتها وابتذالها، فقد صرتُ الآن أعرف كيف أتذوّق النبيذ والطرب والرجال، بينما أستمع لقصة حياة البرنس التي لا يتردد في إعادتها كلّما انضم ضيفٌ جديدٌ إلى مائدته الخالدة.

أغلب ما لدى البرنس من مالٍ وعلاقاتٍ ورثه دفعةً واحدةً عن أخيه الذي كان يكبره بنحو سبعة عشر عامًا، والذي توفي قبل أن يبلغ أخوه أكثم الثلاثين. كان أخوه هو الملحن الكبير إلهامي الألفي، لم يرزقه اللـه بعيالٍ، فاتخذ من أخيه لأبيه ابنًا ومدير أعمال وسكرتيرًا خاصًا، وكان الشاب أكثم بلا شهادةٍ كبيرةٍ ولا مهنةٍ واضحةٍ، لكن مهاراته الاجتماعية واضحةٌ، ويتقن لغاتٍ عديدةً، ويعرف كيف يبتسم ويجامل ويتحرك في الأوساط الفنية كأنها غرفة نومه. لم يكتفِ أكثم بذلك، ظلّ يحلم بالفن، أحسّ أنه وُلد ليكون نجمًا في دنيا الموسيقى والغناء، حاول إقناع أخيه الكبير بصوته، لكنّ الملحن الرزين لم يجارِه في أوهامه قط. كان يواسيه قائلًا إن موهبتك الحقيقية في أذنك يا أكثم، تستطيع أن تميز بها

الماس من الصفيح، لا تنسَ أنني كثيرًا ما آخذ برأيك حول لحنٍ جديدٍ أو صوت أحد المطربين. أراده إلهامي بجانبه، وتمنى أن ينسى أكثم حُلم الغناء ذات يوم، وأن يتوبَ اللـه عليه من داء الوَلع بالرجال، حتى قال له مرّة حين يئسَ منه:

اعمل اللي انتا عاوزه بس من غير فضايح، ما دام عايش وسط الناس باحترامك محدش له حق يسألك إذا كنت بتنام مع ستات ولّا رجاله ولّا قطط.

لعلّه نصحه بذلك في أيامه الأخيرة، حين انزاح ستار الخجل بين الأخوين، خلال رقدة الملحن الكبير على فراش المرض في لندن. لم تكن أزمته الصحية الأولى، فكأنّ محاولاته المستميتة للإنجاب، وتجربة كل علاج ممكنٍ، لم تترك جسمه بلا أثر. أصابه داءٌ مجهولٌ حتى بالنسبة لأَطباء الغرب آنذاك، وأخذ يبري بدنه مع كل ساعةٍ تمر، حتى تحوّل في أسابيع معدودةٍ إلى هيكلٍ عظميٍّ، يستطيع أن يحمله صبيٌ في التاسعة من عمره. كان أكثم الشاب هو الوحيد الذي بجانبه حين رحل في أواخر السبعينيات، هو مَن سنّده ليقضي حاجته، أو ليطل من وراء النافذة للحظات، هو من أدارَ له بعض التسجيلات القديمة؛ ليستعيد طعم العَظمة، وهو من استمع إلى آخر عزفٍ له على العود، بذراعه التي صارت مثل قصبةٍ نحيفةٍ، تخرج منها خمس إبر تمسك بالريشة.

في تلك الأيام الأخيرة، استجاب الأخ الأكبر أخيرًا لأمنية أكثم القديمة، ولحّن له أغنيةً وحيدةً. هكذا ولدتْ (خفيف خفيف باهوى)، التي سوف أسمع البرنس يُغنِّيها مراتٍ لا تُحصى، والتي رفض تمامًا أن يبيعها لمطربٍ أو أن يغنيها أيُّ شخصٍ سواه، فكأنها كانت إرثه الوحيد الحقيقي.

(15)

إنتا عارف يا هاني إن الست والدتك لسّه صغيّره ومرغوبه، ومن حقها تستمتع بحياتها؟

هكذا قال لي البرنس ممسكًا يديَّ، بعد أن انتحى بي جانبًا في الكوب ويب، ووقفنا في ممرٍّ صغيرٍ شِبْهَ مُظْلِم. كانت ليلةً قاسية البرودة من شهر يناير، وقد استعدتُ أخيرًا شيئًا من التوازن النفسي، واستطعتُ التركيز في الدراسة حتى وصلت للسنة الثالثة في الكلية بمعجزةٍ، دون أن يمنعني هذا عن سهرات البرنس أو علاقاتٍ خاطفةٍ محسوبةِ العواقب بين حينٍ وآخر.

قرأتُ ما بين السطور، لكني تظاهرتُ بالغباء، وطلبت منه توضيح ما يقصد، فأخبرني دون مراوغةٍ أنه علم بزواج أمي عرفيًّا من عادل المُرّ، مُخرج كانتْ قد تعاونت معه أكثر من مرةٍ، في الستين من عمره تقريبًا، وله زوجةٌ من عائلةٍ معروفةٍ وأبناء كبار.

سحبتُ يديَّ من بين كفيّ البرنس الدافئتين، وقلتُ ناظرًا إلى لوحةٍ على جدار الممر تصوّر عنكبوتًا مُشْعرًا مقرف المنظر:

هيّ حُرَّة، تعمل اللي عاوزاه.

تمام، برافو عليك يا هاني. لو حبيت تتكلم معايا بعدين ماتترددش.

لم أرجع معه إلى مائدتنا مباشرةً. أردتُ أن أنفرد بنفسي للحظات. وقفتُ أمام مرآة الحمّام مشوّشًا، لا أعرف بمَا ينبغي عليَّ أن أفكر، وما هو الشعور الذي يُفترض أن ينتابني الآن؟ أتتبعُ ملامح وجهي المستعارة بوضوح من وجه أمي، وكأني إذا دققتُ النظر بما يكفي ستظهر لي من وراء المرآة، وتجيب تساؤلاتي، فيستريح قلبي.

رجعتُ إليهم، ووضعتُ همّي في الشُرب، ورقصتُ ليلتها بعنفٍ. وحينما ثقلَ لساني، وتداخلت أفكاري، أوصلني صديقٌ للبيت. في المصعد رأيتُ وجهي من جديدٍ، فصفعتُ المرآة صفعاتٍ رقيقةً، كأنني أحاول إفاقة السكران دَاخلها، وقلتُ لنفسي:

انتا فرحان لها، متكذبش. مافيش داعي تمثّل إنك زعلان.

كنتُ أعرف أنها لن تعود من المسرح قبل الرابعة صباحًا تقريبًا، فجلستُ أنتظرها. لم تكن لديَّ نيةٌ محدَّدةٌ سوى أن أتحدث معها. كنتُ قد اطمأننتُ أخيرًا إلى إيقاعٍ ما في علاقتنا، وكل تغيُّرٍ جديدٍ يهدد ثبات الوتيرة كان يُربكني ويعيدني لمخاوف قديمةٍ. لم أتوقّع منها أن تصوم عن الرجال، بينما أتقلّب أنا بين الرجال من كل لون، فكأننا معًا الصورة ونقيضها، حتى من ناحية الشكل، بقدر ما كنتُ آكل وأزدادُ بدانةً، ظلّت محتفظةً برشاقة جسمها، وكلّما تمرّغتُ أنا في الخمول والاتكال عليها في كل شيءٍ، كانت تتواثب هي في حيويةٍ مذهلةٍ، معاندةً سنّها ومتاعبها الصحية، مُنتقلة من فيلمٍ إلى مسلسلٍ إلى مسرحيةٍ، بلا هدنةٍ لالتقاط الأنفاس، إلّا للسؤال الخاطف عن شئون البيت وأحوال هنّون، وهل يحتاج أي شيءٍ، وهل ينتظم في الجامعة، ويذاكر. كانت تجد الوقت والطاقة كذلك لحمل أعباء أختها الكبيرة دون شكوى أو تذمر. تكفلتْ بمصاريف علاجها في مصحاتٍ باهظة التكاليف، وكانت موضة العلاج من الإدمان في عز ازدهارها، وأفلام المخدرات هي الموجة الرائجة. وخالتي حسنية لا تتردد أمام تجربة كلّ جديدٍ، مهما تدهورت صحتها، أو اقتربت من النهاية المؤكّدة، حتى أتى بها إلينا ذات فجرٍ سائق تاكسيّ وجدها شبْهَ غائبةٍ عن الوعي في شارع بالجيزة. أعطته عنوان أختها حين أفاقت ونجحتْ في النطق بكلماتٍ قليلة.

تداركتْ ماما الصدمة الأولى، وأدخلتْ أختها أوّل مصحةٍ في حياتها، وأحاطت الحكاية كلها بأقصى قدرٍ ممكنٍ من الكتمان. ومع ذلك، التقطت بعض الصحف الخبر ونشرته، فأنكرته أمي تمامًا، وهددتْ برفع قضيةٍ عليهم إن لم ينشروا تكذيبًا، وانتصرتْ عليهم. ثم راحت تصرّح في أكثر من لقاءٍ أو اتصالٍ تليفونيّ بها من وسائل الإعلام أن شقيقتها المطربة الكبيرة حُسنى قد اعتزلت الفن منذ سنوات، وأنها وضعت الحجاب وتفرغت للعبادة، وطوال الوقت معتكفة في خلوةٍ لا ترى أحدًا إلّا المقربين.

كنتُ أتابع كل تلك الدراما الرخيصة ساخرًا هازئًا في داخلي. مواصلًا رحلة ضياعي الخاص، لا يمنعني من الاستسلام الكامل للجنون إلّا حُبي لأمي، وربما خوفٌ غريبٌ من أن تفقد أملها فيّ، وتمنح نفسها لواحدٍ ممن يطرقون بابها. وها هي قد فعلتْ أخيرًا، فكأنني استرحتُ من حِملٍ خفيّ، ومع ذلك فمن أين ينبعث ذلك الغيظ الذي يدفعني لانتظارها الآن، وحرق السجائر وتقليب قنوات التليفزيون ملتحفًا ببطانية. غلبني النوم، ولم أنتبه إلّا وقد عادت قربَ الفجر. صحوتُ على لمستها وصوتها:

قوم نام على سريرك يا حبيبي!

نظرتُ نحوها ذاهلًا، كان جمالها أقسى من برد ذلك الشتاء. راحتْ تخلعُ قفّازيها، وتضع عنها فراءها الأسود، وتسحب بحركةٍ

ســـريعةٍ قرطيها. حاولـــتُ أن أنتبه، أن أفيـــق، أن أتذكر غضبي وغيظي، ولم أفلح إلا أن أهمس بصوت النُعاس:

ألف مبروك يا عروسة!

توقفتْ قليلًا ناظرةً إليّ، وكأنها تحاول أن تتعرّف فيّ على ابنها دون جدوى. أشاحتْ بوجهها، واتجهتْ إلى غرفتها، قمتُ أسير خلفها كأنها تسحبني بخيطٍ خفيّ. مع كل خطوةٍ تقريبًا كانت تضع شيئًا ما عنها، تُلقي به هنا أو هناك، حقيبتها، جزءًا من شعرٍ مستعارٍ، عُقدًا، أي شيءٍ. أحسستُ أنها تتعمد فعل ذلك، حتى نستطيع تتبع طريق عودتنا من الغابة مثل الأخ والأخت في حكايات الأطفال.

بينما تخلع معطفها أمام الدولاب، برزتْ أنفُها في حركة اشمئزازٍ صغيرةٍ وهي تنظر إليّ، إشارةً لرائحة الويسكي التي تفوح مني. نظرتُ بعيدًا، وحاولتُ أن أستجمع أفكاري بعيدًا عن مسألة الشُرب التي تشاجرنا حولها من قبل. لم أستطع أن أقول لها إنني شعرتُ بأنها تخونني بزواجها هذا. كان كل ما وجدته لأعترض عليه، هو أن الزواج كان عُرفيًا وسريًّا. فقالتْ وهي تحاصرني بنظراتها بينما تخلع ثيابها قطعةً بعد أخرى:

- كده أحسن لنا كلنا، مش عاوزين وجع دماغ.

- كأنكم بتسرقوا.

- أنا وعادل مارتكبناش جريمة يا هاني.

ضايقني سماع اسمه بصوتها لأوّل مرة. لم أجد ما أقوله، فانتظرت حتى خرجتْ من وراء البارفان، وهي تُحكم لف الروب الثقيل حول جسدها. قالت:

- كنت هاقولك، بس في الوقت المناسب، عادل إنسان محترم وبيخاف عليّا.

وجدتني أهمس، وكأنما أحدّث نفسي:

عمرك ما قلتي إنك محتاجة زوج.

تعبت! فين سجايري؟

ناولتها سيجارةً بعد أن أشعلتُها لها، أخذتْ منها نَفَسًا طويلًا، ثم نفختُ الدخان ببطءٍ، حتى كاد يخفي وجهها عني. وخلال خمس دقائق أو أقل، تدفق منها أطول مونولوج قالته لي في تلك السنوات، أخبرتني بأنها تعبتْ من كل شيءٍ، من العمل، ومن البيت، ومن فضائح أختها، ومن ضياعي وطيراني بعيدًا عنها. سنوات وهي تحتمل ما يفوق طاقتها، ولا بُدّ أن تتصرف بمنتهى العقل والثبات طول الوقت أمام الناس، ولا بُدّ أن تبقى صامدة أمام الكلام الناعم والمغازلات الخفية والصريحة.

جلستُ على السجّادة تحت قدميها، فأخذتْ تمشط شَعري الناعم

بأصابعها، كما كانت تفعل قديمًا. اعترفتْ لي بأنها في أحيانٍ كثيرةٍ كانت تبكي على فراشها قبل أن تنام، دون أن تعرف لذلك سببًا. وفي أحيانٍ أخرى، تجد نفسها تتمنى أشياء غريبةً، لو كانت هي مَن ماتت وليس أحمد، وكان هو مَن عاش وربّاني وتحمل المسئولية، أو أن تتبادل الأماكن مع أختها، فتكون هي حُسنية الهائمة في ملكوتها تفعل ما يحلو لها. لسنواتٍ سابقةٍ كان عادل المر هو صديقها الوحيد، تلجأ إليه في الشدائد، وتجد لديه أذنًا تُصغي لهمومها. لم يخفِ عنها مشاعره، فقررت أخيرًا أن تمنّ على نفسها باستراحةٍ قبل فوات الأوان، قبل أن تظل بقية عمرها نادمة.

رفعتُ عينيّ نحوها، متسائلًا:

وأنا؟ ليه ما تتكلميش معايا أنا؟

أوشكتْ أن تقول شيئًا، لكنها أمسكتْ عن الكلام، وجذبت نفسًا أخيرًا من سيجارتها. ونظرتْ إليّ نظرةً كأنها لومٌ أو استغرابٌ.

فيه حاجات ماكنش ينفع أتكلم معاك فيها، وبعدين كنت باخاف عليك، باخاف ألخبطك زياده.

نهضتُ مُستنفرًا، وقفتُ أمامها صائحًا بصوتٍ جريح:

أنا مش متلخبط. أنا بقيت كويس، أحسن من الأول.

عارفة، عارفة يا حبيبي.

لفّنا الصمت، وأطفأت ماما سيجارتها، ثمَّ نظرتْ إليّ بجديةٍ، وسألتني من جديدٍ عمّن أبلغني بخبر زواجها. لم أعرف ما أهمية ذلك بالنسبة لها، فأجبتها بهدوء أنه صديق اسمه أكثم ألفي. ما إن سمعتْ ماما الاسم حتى قامت منتفضةً، وكأن النار شبّت في طرف روبها، وهي تصيح:

البرنس؟

توقعتُ معرفة ماما بالبرنس، لكني لم أتوقع ثورتها هكذا بالمرة.

أنا سمعت إنك مصاحبه، ومش قادره أفهم إيه اللي يجمع طالب في سنك بعجوز منحلّ زي ده.

تلعثمتُ أمام ثورتها، فرحتُ أردد كلامًا عائمًا عن تعليمه لي تذوّق الموسيقى وتقديمي لفنانين وشخصيّاتٍ مهمةٍ. أردتُ أن أخفي ذلك الشيءَ الآخر بأي طريقة. سخرتْ من كلامي، وقالت إنها غير مستعدةٍ لأن تقامر بأهم إنسان في حياتها، وأمرتني بقطع علاقتي به فورًا.

أنا آسف، مش هاقدر. البرنس صديقي وزي أبويا بالظبط.

صاحت في لوعةٍ رأيتُها مبالغًا فيها بالنسبة لعروس جديدةٍ:

أبوك؟ اللـه يرحمك يا أحمد يا محفوظ. ما تقولش كده تاني أبدًا،

الدنيا كلها عارفة إن البرنس ده شاذ. فاهم؟!

تساءلتُ ربما إمعانًا في عنادها، أو مُتصنعًا عدم الفهم؛ لأبعد الشبهات عني قدر المستطاع:

يعني إيه؟

يعني خَوَل، خلاص فهمت؟

نطقتُ تلك الكلمة الشائنة من غير تفكيرٍ، ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن ربما، تبدّل شيءٌ ما في الدنيا كلها، شيءٌ صغيرٌ للغاية، لكنه أساسي ومستمر، كأن إضاءة العالم كله انخفضتْ بدرجةٍ طفيفةٍ للغاية، لا يكاد يشعر بها أحدٌ، إلّا من لاحظ انطفاء ذلك المصباح الضئيل في السماء.

زغتُ بعينيّ منها، وحين تجرأتُ على النظر إليها من جديدٍ، وجدتها قد اقتربتْ قليلًا، وأخذتْ تحملق في وجهي في ريبةٍ وتساؤلٍ، ولم تتردّدْ طويلًا قبل إعلان شكوكها صراحةً:

إوعى تكون....

لم تستطع أن تكمل سؤالها، ولا أنا بقيتُ لأسمعها تنطقه.

قررتُ أن أترك البيت كله في الحال، دون خطّةٍ ولا ترتيبٍ. بعد أن اجتزتُ باب الشقة، رجعتُ قبل أن أغلقه ورائي، حين أحسستُ ببرودة الخارج. التقطتُ معطفي الصوفي الثقيل بسرعةٍ،

كانت هي من اشـــترته لي من لندن في إحدى سفرياتها. ثم صفقتُ الباب بشـــدةٍ، كأنني أســـجّل اعتراضًا أخيرًا قبل أن أستقبل صقيع الفجر في الشارع.

(16)

مع انحلال طبقة الضباب الخفيفة التي كانت تحيطُ بكل شيءٍ، أخذتُ أتنفس الهواء الطازج المنعش. في شارع قصر العيني، لمحتُ مقهًى في ممر ما زال يستقبل الزبائن حتى هذا الوقت. لطمتْ رأسي أول رشفةٍ من القهوة، وتساءلتُ عمّا أفعله هنا الآن، وهل سأعود إلى البيت لأنام أم لا، وإذا عدتُ فكيف أعاقبها وأعبّر عن غضبي منها. ماذا لو كان الناس يُولدون بلا آباء ولا أمهات؟ لا أظن أن ذلك كان أمرًا عسيرًا على خالق كل هذا الكون المعقّد البديع.

تذكرتُ قبل أن أنهي فنجان القهوة أن لي صاحبًا يسكن قريبًا من هنا، الشاب النوبي عُمر نور. صادفته منذ شهرين تقريبًا غير بعيدٍ عن هنا، وذهبتُ معه بعد تردّدٍ قليلٍ؛ لأنني كنتُ أرغبُ في استكشافه. بعد أن أخذنا المصعد العتيق حتى آخر طوابق العمارة، صعدنا سُلمًا معدنيًّا حلزونيًّا إلى السطح، حيث استأجر شقةً صغيرةً للغاية، غرفةً وحمّامًا وصالةً هي بالفعل أصغر من حمام شقتنا الكبير.

ونحن نشرب الشاي لديه، راح يتحدث عن مسائل سياسيةٍ وأحوال البلد، وتلك الأمور التي لم أهتم بها يومًا. كنتُ أهز رأسي متظاهرًا بمتابعته، بينما أدور بعينيّ شارد الذهن، باحثًا عن شيءٍ واحدٍ جميلٍ في مسكنه، ولم أجد إلّا بعض مستنسخات اللوحات العالمية من أعمال بيكاسو وماتيس وخوان ميرو. بعد رشفتين من الشاي، كنتُ قد ضجرتُ من القعدة، ومن ثرثرته التي تشبه برامج الحوارات في التليفزيون. استأذنت عُمر يومها لأنصرف وأنا أشعر بضيقٍ وخجلٍ من عيشته، أكّد لي هو أن بابه مفتوحٌ لي في أيّ وقت، ولكي يدمغ هذه الدعوة بالدمغة المناسبة، قبلني على الخدين وهو يقرّب شفتيه للغاية من شفتيّ. ابتسمتُ لنفسي يومها وأنا في المصعد، وقلتُ لا بأس من وضعه على قائمة الاحتياطي، فمن يدري؟

قررتُ فجأةً أن أذهبَ إليه في ذلك الصباح؛ ربما لأعاقب ماما، أو لمجرد الابتعاد عن محيطها لبعض الوقت. جرجرتُ قدميّ إلى عمارته، وقد ثَقُل جفناي، ورحتُ أتثاءب بانتظام، وكل ما أرجوه أن أجد لديه على الأقل بطانيةً نظيفةً ودافئةً.

كانت أسرة عُمر جيراننا أيام عابدين، وكلٌّ منا يرى الآخر في الطريق إلى المدرسة حيث يكبرني بسنتين، أو في الجامع عند صلاة الجمعة، أو أمام الفرن الإفرنجي في المساء، وكان دائمًا نحيفًا وطويلًا ومبتسمًا كأنه أبله. ثم تركنا عابدين ونسيتُه. وتذكرنا بعضنا فورًا بمجرد أن التقينا مرّة في مقهى الحرية، فتبادلنا التحية، وعرف كلٌّ منا آخر أخبار الآخر. كانت شلته معظمها من أهل الفن والصحافة والسياسة، ولم أرتح كثيرًا إلى الجلوس معهم، لكنه كان كثيرًا ما ينضم إلى شلتي وأصحابي، والتقط طرف الخيط بذكاء، فأرخى زمامه تدريجيًا، وبدأ يكشف لي بإشاراتٍ ذكيةٍ عن ميوله المُلتبِسة وتردد رغباته بين النساء والرجال. بدا لي عاقلًا رزينًا، رغم السياسة التي لحست مخه. كان يبدو في الظاهر رجلًا طبيعيًّا تمامًا، ولا شيء في ملابسه أو في طريقة سيره وحركاته وكلامه ينمّ عن ارتباك ميوله. ومع ذلك وإذا دقق الواحد فيه قليلًا، في وجهه المسمسم وفي أدائه عمومًا، استطاع أن يلتقط شيئًا لينًا في نظراته ولفتاته، شيئًا مكبوحًا مثل جمرةٍ برتقاليةٍ خجلةٍ تحت طبقة جلده الأسمر النديّ.

فتح الباب وهو يدعك عينيه. حمدتُ اللـه على أنه لم يكن قد غادر مبكرًا إلى أي مكان، فرغبتي في النوم كانت مُلحّة بدرجةٍ غبيةٍ. انتبه للواقف أمامه، فابتسم، وأفسح لي لأمُرّ وهو يفرد ذراعه نحو الداخل ناثرًا عبارات الترحاب من حولي. لم يتغيّر شيءٌ في المكان منذ زيارتي الوحيدة السابقة، ومع ذلك فقد كنتُ ممتنًا للحيطان الأربعة التي تحيط بي، وللبقُسماط والشاي المعدّ على بوتاجازٍ صغيرٍ بعينٍ واحدةٍ، ذكّرني بالوابور البريموس الأصفر القديم الذي كانت ستي سكينة تعتزّ بامتلاكه، وفضحت الدنيا عندما علمت أن ماما باعته لتاجر الروبابكيا. سألت عُمرًا الذي بدا هادئًا وحائرًا قليلًا:

فاكر ستي سكينة يا عُمر؟

فضحك فجأةً حتى غصّ بجرعة الشاي في حلقه، وراح يسعل بوجهٍ مختنق، إلى أن صفا صدره، واستعاد أنفاسه، فواصل الضحك قائلًا:

الله يرحمها بقى. كذا مره بهدلت أمي على أسباب عجيبة يا أخي.

بعد حديثٍ قليلٍ عن أيامنا القديمة في عابدين، أدرك عُمر أنني أتيتُ مقيمًا لبعض الوقت، فقام وأحضر لي جلبابًا صوفيًا ثقيلًا ودافئًا بلون المشمش. خرجتُ من الحمّام فوجدته يلف سيجارة حشيشٍ. لم أحبّ يومًا ذلك المخدر، وفي المرات المعدودة التي

جربتُ منه نَفَسين أثار غثياني، وذكرّني بنوبات الهلع. كنتُ مائيًّا، كما يُطلقون على عشّاق الخمور، وأحترمُ قدرتها الساحرة على تحرير النفْس من المخاوف والأعباء وفك أوصال الجسد، فيرقص ويتوثّب للحياة كأنه عصفور الجنة. ومع هذا فحين مدّ لي يده باللفافة الأولى مُتردّدًا تناولتها منه على أمل أن تجعلني أستغرق في النوم، رغم تغيير الفراش والغرفة الغريبة عليّ. بعد أول نَفَس قلتُ له ببساطة:

أمي ابتدت تشك فيّا أخيرًا.

ورحنا نضحك من جديدٍ، رغم أن عينيّ تبللتا بماءٍ سُخْن. اقترب عُمر مني، وربّتَ على كتفي. كان عمر صاحبًا لي حينئذٍ، حتى ولو للحظات أو دقائق أو ساعات. كان صاحبي بما يكفي لأن يربّت على كتفي، ويضمني إلى جسده النحيف والنابض بحرارةٍ جوّانيةٍ مُطمئنة. وحين حاولتُ بلسانٍ متلعثم أن أكشف له بعض أفكاري المتداخلة في تلك اللحظة، التقطَ شفتيّ بين شفتيه، فأسكتني تمامًا.

قضيتُ يومين في شقّة عُمر، لم أغادرها خلالهما بالمرة، وأعجبتني عزلتي تلك، خصوصًا في الساعات التي أنفردُ فيها بنفسي، كلّما ذهب إلى عمله في المجلة، فيصمتُ العالم وأسمعُ أفكاري بوضوح. وكان يعود سريعًا، ملهوفًا مثل عريسٍ جديدٍ، يحمل أكياس الاحتياجات التي لا غنى عنها، وبعض البيرة

والحشيش الذي لا أشـــاركه إيّاه إلّا نادرًا. كنتُ أشعر بلذعةٍ خفيفةٍ مـــن الغرور أمام لهفته وفرحه السـاذج بي، وكنتُ أعرفُ أنني لا أستحق كل هذا، وأنه قد يكرهني إذا ما أطلعته على بعض أفكاري عنه.

قررتُ أن أعود للبيت في اليوم الثالث من استضافة عمر لي، رأفةً بأمي. ولأنني ضجرتُ من المكان ببساطةٍ، افتقدتُ أسباب الرفاهية، الماء الساخن في الحمّام، وثيابي النظيفة، وليونة فراشي، ووسائدي العديدة الصغيرة التي أنامُ محتضنًا إياها على الدوام. وربما أكون قد ضجرتُ من عُمر نفسه، رغم كل مودته وطيبته، حتى اهتمامه بي وحرصه عليّ صارا بعد وقتٍ شيئًا بائخًا ومفتعلًا. كان يتظاهر بأنني شريكه، ويحاول إرضائي على هذا الاعتبار بكل طريقةٍ ممكنةٍ، رغم أنه في داخله كان يعلم دونما شك أنني لستُ كذلك. تظاهرنا بأننا مُشبعان وراضيان بهذا الجنس الوديع الطيّب بيننا، ننهمك فيه المرّة بعد الأخرى، مثل أرنبين ذكرينِ يظنّان أن بوسعهما التناسل إذا اجتهدا بما يكفي، فينهكُ كل منهما الآخر دون جدوى.

قلتُ له إنني لا بُدّ أن أرجع إلى البيت قبل أن تجن ماما من القلق عليّ، وقال إنه كان ينتظر أن أقرر هذا بنفسي عندما أستعد، رغم سعادته بإقامتي معه. أصرّ أن أعده بالحفاظ على تواصلنا، على الأقل لكي ننفّذ بعض المشاريع المشتركة التي تخيلناها معًا خلال

هذين اليومين، كأن نقرأ بعض الكتب والروايات المهمة ونناقشها، وأن أعرض عليه بعض قصائدي وكتاباتي القديمة، ربما أتحمّس لمعاودة الكتابة. وعدتُه بكل ذلك، كاذبًا. وأحسستُ داخلي نقمةً على بساطته وبراءته، وحلمه بعالَمٍ نظيفٍ لجميع الناس، رغم أن بعض هؤلاء قد يعدمونه رجمًا بالحجارة لو اطلعوا على سره.

فيما بعد، تتبعتُ خيط نفوري منه حتى عثرتُ على أصله داخلي، كان صادقًا، حياته تكاد تكون بلا أقنعةٍ وأدوارٍ. يعيشُ كما يشاء، وكما يقرر، لديه مبادئ واضحةٌ، وإن كانت صارخةً، تلك الكلمة الغريبة عليّ، ربما حتى الآن. ما زال يدرس في كلية الصحافة والإعلام، ويعمل بالقطعة في مجلاتٍ مستقلةٍ وصحفٍ يساريةٍ، ويعيش على الكفاف تقريبًا، لكنه بلا كوابيس أو نوبات هلعٍ، يتحدّث دون أن يفكر، ويضحك من قلبه لأبسط الأسباب.

بعد أن غادرتْه في اليوم الثالث، التقينا كثيرًا على فتراتٍ متباعدةٍ، بمواعيد أو مصادفاتٍ، لكننا لم نكرّر تجربة الفِراش بعد ذلك قط، ولم تتأثرْ مودتنا مع ذلك، كان يجرني أحيانًا إلى لقاءات المثقفين والفنانين، ندوات أو جلسات نقاش، دون أن أفلح في الاعتياد عليهم. كان أغلبهم مختلفين عن بساطة عُمر وصدقه، كلامهم كثيرٌ وفعلهم محدودٌ، يحاولون دائمًا الظهور على غير حقيقتهم، يعيشون على القهوة والسجائر، وفي الليل البيرة والحشيش. عرّفني عمر على روائيّ منهم يقولون إنه كبيرٌ ومهمٌّ. وفي سهرةٍ بشقة ذلك الكاتب

العجوز في وسط البلد، ظلّ ينظر إليّ، ويبتسم ويهز رأسه، ثم تبعني إلى المطبخ، حين نهضتُ لأجلب بيرة، اقتربَ مني من الخلف يحتضنني، ورائحةٌ بشعةٌ تنبعث من فمه. تملصتُ بهدوءٍ تجنبًا لمشكلةٍ سخيفةٍ أمام الناس، ولكنه شدّ يدي، ووضعها على عضوه من وراء سرواله، فقبضتُ على إحدى خصيتيه، وضغطتُ قليلًا حتى تأوّه، ودفعني بعيدًا وهو يغمغم: "أمّا خَوَل صحيح". الكلمة الكريهة ذاتها التي أعتمَ العالم بعد أن سمعتُها من أمي. الكلمة التي كان يقشعر جسمي كلما سمعتها في الشارع ولو سبابًا مازحًا بين أصدقاء.

لم أهتم بإخبار عُمر بما حدث، فقد انصرفتُ دون إبداء عذر، ولم أعدْ إلى لقاء رفاقه هؤلاء منذ تلك السهرة، لكني لم أخسر علاقتي بعُمر نفسه، وكنتُ ممتنًا للأثر الجميل الذي تركه فيّ، فقد شجّعني على العودة إلى القراءة، هذه المرة بنهم الجائع الذي اكتشفَ تحت غرفته ممرًّا سريًّا يقود إلى بلاد العجائب، فأدمنَ النزول إلى عالم ما تحت الأرض كل ليلةٍ تقريبًا، على الأقل لأريح نفسي من دراما البيت ولُهاث الركض وراء الرجال. صرتُ أغيبُ عن واقعي في الروايات الجميلة، متقمصًا شخصيات أبطالها بيني وبين نفسي. صرتُ أكتشف كتبًا ورواياتٍ جديدةً بنفْسي دون ترشيح من عُمر، ولشطارتي في اللغة الإنجليزية، قرأتُ كتبًا غير مُترجمةٍ، فأدركتُ كم تنتقص الترجمةُ متعتَنا، ونبشتُ حتى عثرتُ من بينها على

رواياتٍ وكتاباتٍ كثيرةٍ عن المثليين، قصصهم وحكايات العواطف والمغامرات الجنسية، ورغم أن المتاح منها لم يكن كثيرًا، فقد كان كافيًا لأدرك هذا العالم الآخر، البعيد عن أبعد أحلامنا حتى، وتظل أقصى أمانينا أن نقرأ عنه أو نشاهده على الشاشة. وبدأت الكتب تنمو في أركان البيت مثل نسج العناكب، رغم حرصي على التخلّص مما أنتهي من قراءته أولًا بأولٍ، إلّا إذا كان تحفةً لا مثيل لها. لن أنسى أنّ عمر هو من أهداني أوّل روايةٍ أقرؤها يكون لبطلها ميولٌ مثليةٌ، روايةٌ يابانيةٌ نسيتُ اسم كاتبها الآن، عنوانها اعترافاتُ قناع، بدأتُ قراءتها خلال إقامتي القصيرة عنده، فأعطاني إياها بينما أتأهب لمغادرته، ثم استثقلتُ ظلها واستغربتُ شخصية بطلها فلم أكملها بعد أن عدتُ إلى البيت.

يومها، تبادلنا قبلةً طويلةً على بابه، وقد خلعتُ عني الجلباب المشمشي الذي تشبع برائحتي، لأعود إلى ثيابي الجميلة ومعطفي الإنجليزي الذي ظلّ طوال الوقت مُعلقًا على الحائط كسائح أوروبيّ جمدّته الدهشة أمام عشوائيات القاهرة. وبداخلي فرحةٌ مزدوجةٌ؛ لأنني استطعت الابتعاد عن ماما ولو ليومين ونصف لأوّل مرة في حياتي من غير أن تعرف عن مكاني شيئًا، ولأنني سأترك هذا المكان أخيرًا، رغم سخاء هذا الولد الأبنوسي النحيل، واحتراقه البطيء على الفراش مثل عود بخورٍ لم تُسكرني رائحته.

(17)

امشِ يا هاني، لا تتوقف عن المشي، لو توقفت تتجمّد وتنتهي. امشِ بسرعةٍ كالمطارَد، هاربًا من الحكايات كلها، القديمة والجديدة، الحكايات نفسها التي تلاحقها الآن على هذه السطور. في النهار، ترسم صورك القديمة بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الصدق، وفي الليل تمحوها، متخيلًا نفسك شخصيةً أخرى، غريبةً عنك، فتحاول أن تتصرف وكأنّك ذلك الغريب. رجلٌ طبيعيٌّ تمامًا، مثل هؤلاء جميعًا. أهم طبيعيون حقًّا؟ ماذا يُخفون وراء تلك الوجوه والجماجم؟ مَن هو الشخص الطبيعي أساسًا، كيف يكون؟ هل أولئك الذين عذّبونا وأهانونا طبيعيون؟

اكتبْ يا هاني، اكتب، لا تتوقف عن الكتابة. هكذا نصحني دكتور سميح، بعد أن أرسلتَ له بعض ما كتبته في الأسابيع الماضية. قال أيضًا إنه يقرأ بكل شغفٍ، يلتهم السطور، يقرأ وهو يتخيّل صوتي الذي يعرفه من زمانٍ، قبل خرسي الطارئ، يتخيلني أنطق بما كتبت.

أنا أيضًا أتخيّل صوتي أحيانًا، أسمعه يردد جملًا في رأسي، وربما يترنم بأغنيةٍ أسمعها في ذلك البار الصغير الذي تأخذني إليه قدماي كل مساءٍ تقريبًا. كنتُ هناك قبل يومين، عندما أُذيعت إحدى أغنيات خالتي، وسمعتُ حوارًا عنها بين بعض روّاد المكان. اختلطتْ في حديثهم الوقائع بالأكاذيب، لكنّ أحدهم أشار إلى ابن أختها، الممثلة بدرية أمين، الذي قُبِضَ عليه منذ سنة تقريبًا في قضية الشواذ الكبيرة في مركب الكوين بوت.

ركبني الذُعْر، للحظة تخيّلتُ أنهم يعرفون مَن أكون، ويوجهّون كلامهم ذلك لي مُواربةً وتلميحًا. بمعجزةٍ سيطرتُ على خوفي، ورفضتُ أن أنهض وأرحل، أو لعلّها شجاعة الكحول الهشّة، ثم دعوتهم إلى بيرةٍ، وتحدثت معهم بالورقة والقلم عن حُسنى، وحكاياتها وأساطيرها، وكذبّت ما ذكروه عن ابن أختها. كتبتُ عنها كأنني أؤلف قصة فيلم عن حياة المطربة الراحلة، لكنني أعطيتُهم مزقًا من الحقيقة على صفحاتٍ ممزقةٍ من دفاتري. لم أقل إنني ابن

الأخت ذلك، وإن أسوأ فترات حياتي كانت حين تأتي خالتي حُسنى للإقامـــة معنا، أو أنَنـــي مَن حمل جثتها من الحمّـــام ليضعها على فراشها، بعد أن قتلتها جرعة مخدراتٍ زائدةٌ.

قلتُ سأكتبُ عن هذا كلّه في الصباح، في سكون غرفتي المحتشد بأصواتٍ مخيفةٍ تنبعث من رأسي. أكتب الآن في هدوء ودفء غرفة الفندق، لكنني ألهث مع ذلك، وكأنني أجري أمام قطيع كلابٍ مسعورةٍ.

كلّما كانت أمي ترجع من زيارة أختها في المصحّة، كانت تبكي، وتردّد أن قلبها يتقطّع عليها، وأنها لم تعد تعرف ماذا تفعل. وفي المرة الوحيدة التي زرتُها معها فيها، وجدتُ خالتي في غاية الانتباه والتركيز، وآلمني أنها توسّلت إليّ أن أقنع ماما بأن تُفرج عنها، وتأخذها من هنا.

"أنا بقيت كويسة يا هاني، الدكاترة هنا كل همهم الفلوس، خلّي مامتك تخرجني يا حبيبي أرجوك، أنا باموت هنا كل يوم".

ثم رقّ قلب أمّي عليها أخيرًا، وأخرجتها، وربما لم تكن شفقةً، بقدر ما كانت بحاجة إلى وجود أختها بجانبها. استقرتْ خالتي معنا، ومكثتْ فترةً وديعةً مطيعةً قبل أن يبدأ العرض الهزلي بينهما من جديدٍ. كنتُ أترك لهما البيت أغلب الوقت، أو ألزم غرفتي لا أكاد أغادرها إلا للمطبخ والحمّام. أتركهما في عالمهما الخاص،

عاكفًا على نسج خيمة وحدتي يومًا بعد آخر. أذاكر، أقرأ، ثم أغرق في بحار الإنترنت التي اكتشفتها حديثًا، وصارت أنيس وحدتي لسنواتٍ. أتعرّف، وأدردش - وأشاهد الفيديوهات الإباحية من كل بلاد الدنيا، وأنا مستريحٌ على مقعدي مثل الباشا، مُهشِّمًا أحجار شهوتي باستمناءٍ بعد آخر، بلا رغبةٍ في الخروج والعثور على رجلٍ حقيقيٍّ لن يمنحني إلا وهمًا عابرًا بالشبع.

ورغم تجاهلي لهما، ظلّ من الصعب تجنب حُضور الأختين العجوزين تمامًا، فأضبط نفْسي أتأملهما خلسةً من بعيدٍ، وقد جعلهما التقدّم في السن أكثر شبهًا من أيِّ وقتٍ مضى، كأنهما كانتا توأمًا، حسنية هي النسخة المهدمة والشاحبة، وماما هي النسخة النضرة والريانة، لكن الصورة الأصلية واحدةٌ. قلّلت ماما من التزاماتها الفنية إلى أقصى حد، ربما حرصًا منها على صحتها التي لم تعد مثل زمان، أو لتتفرغ لملاعبة أختها الكبيرة التي سقطت في نهاية الأمر تحت رحمتها.

لم يتبق لهما إلا التقليب في جراب الذكريات، فتخرج يدُ أيٍّ منهما بما قُسم لها، وردة ربما وأحيانًا عقربة، فمرّة أجد هذه تطبع قبلةً على خد أختها، ومرةً يوقظني صوت شجارهما من النجمة. كأنّ كلاًّ منهما صارت تخجل من حنانها نحو أختها واحتياجها الواضح إليها، فغلّفت كل واحدةٍ منهما تلك العواطف بهجماتٍ مسمومةٍ

على الأخرى، بعد أن نزعت خالتي رداء الاستكانة والانكماش في غضون شهورٍ معدودةٍ من إقامتها معنا، واستعادت روح اللبؤة القديمة.

حرصتْ خالتي على تذكير ماما طوال الوقت بفضلها عليها في إعادتها إلى الوسط الفني وتقديمها إلى المخرجين والفنيين، بعد أن ابتعدت وتزوّجت ونسيها الجميع.

ومن جانبها، لم تكن ماما تسكتُ لها، أُفاجأ بها ترد عليها ساخرةً من موهبتها المزعومة، ومن ذوقها المنحط في الرجال وغرقها في المخدرات. فتلعّب خالتي حاجبيها، وهي تقول:

المزاج له ناسه.

أو تفتّل يدها من الجانبين، وتقول:

الحمد لله، شبعنا وضعنا. عمري ما حرمتْ نفسي من حاجة.

فيحين دور أمي لتذكرها بالتقاطها من الشـــارع وهي غائبة عن الوعي، وبأن هنـــاك كثيرين من أمثالها، ينامـــون على الأرصفة ويأكلون مـــن القمامة، لأنهم لم يجدوا أحدًا بجانبهم يشـــفق عليهم ويرعاهم.

وقد تستمر تلك المبارزات، بهدوءٍ أو بعصبيةٍ، لأيام متواصلةٍ، حتى تطال أبي والحادثة التي تحرّش فيها بخالتي، وكثيرًا ما ناله

من مكرهما نصيبٌ. وكلّما التقطتُ طرفًا من حواراتهما تلك انتابني الغثيان والقرف، ودارت بي الدنيا، فلا أعود أعرف أين أنا الآن وفي أيِّ زمنٍ؟ كأننا عدنا إلى أيام عابدين، وستي سكينة ووابور الجاز، لكن بعد أن فقدنا كل براءةٍ أو حنانٍ. أو كأنّها لحظةٌ واحدةٌ ممتدةٌ، تتخذ فقط أشكالًا وهيئاتٍ مختلفةً، لكنها الدراما الرخيصة ذاتها بلا شك.

كنتُ أضطر لمغـــادرة البيت تمامًا حتى تناما. ألجأ إلى البرنس في فندقه الذي اشـــتراه بممر بهلر بوســـط البلد، بعد أن بيع محل الكوب ويب، وتغيّر نشاطه. وحين أملَّ سهرات البرنس في حديقة ســطح فندقــه، أبحث عن عُمر فـــي مقهى الحرية أو بار ســـتلا، لنتحدث عن الكتب وحال البلد والعزلة المحكوم بها علينا. يخبرني بمشـــاريعه الكبرى التي لا يتحقق منها شـــيءٌ بالمرة، ويحكي عن مغامراته الجنســـية القليلة العابرة. كنتُ أحكي له أيضًا، لنكتشـــف أننا فقدنا شـــهيتنا القديمة، وأنه قد تمرّ بنا الأسابيع والشهور، دون طلعةٍ مُشْـــبعةٍ، يقول إن الغريب والمضحك أن الناس لديها صورةٌ عجيبةٌ عنا، يظنون أننا نمـــارس الجنس ليلَ نهار. لا يعتقدون أننا مثلهم جميعًا، مضطرون إلى أن نذاكر لكي ننجح، وأن نعمل لنأكل ونعيش، وأن نهتـــم أيضًا بالقضايا العامة وأحـــوال البلد. كأن كل همّنـــا في الحياة تلخّص في الجنس. فلا أقول له إننا ربما نبدو هكذا لهم، ولأنفســـنا أحيانًا، لأن مشكلة الجنس بلا حلّ، وربما لو تقبّلونا

وتقبلنا نحن أنفسنا، لاستطعنا رؤية الجوانب الأخرى المشتركة بيننا وبينهم، وما أكثرها. لكنني غالبًا ما أكتفي بالاستماع إلى مونولوجاته الطويلة ساكتًا.

وبين تلك المحطّات، واصلتُ جولات السير في الشوارع، وخصوصًا بعد أن تخرّجت في الخامسة والعشرين تقريبًا من عمري، حينما داهمني فراغٌ شاسعٌ. أمشي لا بغرض الصيد، أصبح مجرد التجوّل في الشوارع بالليل هوايةً، رغم الزحام والضجيج، وربما بسببهما. اكتسبتُ عادة التلصص على الناس والتقاط صورٍ خاطفةٍ لهم في عقلي، وخصوصًا صور اللحظات الهاربة من جحيم حياتهم اليومية. مثلًا؛ كهلٌ يستند على حافة نافذةٍ، ناظرًا إلى العالم من تحته بخيبة أملٍ وضجرٍ، بنتٌ تبتسم شاردةً وهي تتأمل فستانًا في فاترينة وتدس خصلةً من شَعرها تحت الحجاب، رجلٌ أنيقٌ للغاية ينحني ليربط حذاء طفله الذي يمسك بأذن أبيه كأنه يوبخه على سوء سلوكه.

فكّرتُ في شراء كاميرا والتقاط صورٍ حقيقيةٍ؛ لأشغل نفسي، وربما أتخذها حرفةً، لكني أحسستُ أنها سوف تفسد متعة تلصصي وتفضحني أمام المستَهدَفين. فكّرتُ أيضًا في أنني قد أصير كاتبًا إذا اجتهدتُ وركزّتُ، وسرعان ما اعترفت لنفسي أنه لا صبرَ لي على الجلوس للكتابة ولو ساعةً واحدةً على بعضها. فكّرتُ في

التمثيل، وقلت إنه يناسبني أكثر من أي شيءٍ آخر، واستحوذتْ عليّ أحلام يقظةٍ، أرى نفسي فيها نجمًا سينمائيًّا تطارده الأضواء وتحيطه الأسرار والنميمة حول سبب عدم زواجه حتى الآن، ثم أفيقُ منها بمجرد أن أتذكر بدانتي وصلعي المبكر، ذلك المظهر الذي يؤهلني بجدارةٍ لأدوار صديق البطل الأكول خفيف الدم. كنتُ واثقًا بأنَّ حياة الفن هي الحياة الوحيدة التي أستطيعُ أن أتخيّلها لنفسي، ولكن أيّ فنٍّ؟ لم أعرف قط. وظلّت النوايا والخيالات هي آخر حدود جهدي.

ثم أعود إلى البيت مُرغمًا في النهاية، مهدودًا من الدوران في الشوارع، لأتابع من جديدِ المسلسل ذاته بين الشقيقتين، الذي صارت خادمتنا أم إبراهيم تتابع حلقاته أولًا بأوّل في شغفٍ، وتطلعني على المستجدات بينما أتناول لقمةً على منضدة المطبخ.

الست بدرية هددت الست حُسنية إنها ترجّعها المصحة تاني، قامت الست حُسنية بقى هددتها إنها تطلع في التليفزيون، وتحكي التاريخ القديم والجديد كلّه.

ثم وضعت أمي الحجاب على رأســـها، وقلّت أدوارها إلى الحد الأدنى، واقتصرتْ على دور الأم بالأساس أو المسلسلات التاريخية والدينية. وبدأتْ تشــعر بأنها كســـبت أرضًا جديدةً في حربها مع شقيقتها، وأخذَ انتقادها لها يتخذ لونًا دينيًّا جديدًا. فإذا وضعتْ خالتي

على رأســـها باروكةً قديمةً، أو تسلّت خلال النهار بتزيين وجهها، وتجربة بعض قطع الفراء والحُلي، تنتهز ماما الفرصة، وتُشـــبعها ســـخريةً في البداية، ثـــم تنعطفُ فجأةً نحو وصلـــة وعظٍ قصيرةٍ مُطعّمةٍ بالآيات والأحاديث والأقوال المأثورة، ولا تقابل خالتي هذا كله إلا بالضحكات الفاحشـــة، أو تفرد ذراعيها أمامها وتهز نهديها المتهدلين اليابسين، وهي تترنم بأغنيةٍ قديمةٍ لها:

بتغني على مين يا جميل؟ ده احنا اللي بدعنا المواويل!

ثم حلّ مشـــهد الختام الملائم لتلك التمثيليـــة الرخيصة المملة، عندما اضطررتُ لكســـر باب الحمّام لأجد خالتي مُمدّدةً في البانيو الفارغ، بعينين مفتوحتين على اتســـاعهما كأنهـــا رأت أخيرًا ذلك الشيء الخارق الذي نجح في انتزاع نظرة دهشةٍ منها. كان جسدها أثقلَ مما ظننتُ، وقد اكتسى لونًا غريبًا كأنه رمادٌ يميل إلى الزُرقة. جرى كل شيءٍ بســـرعةٍ غريبةٍ، وكأنني أشـــاهد فيلمًا مع تسريع الحركـــة، وانتهى فجأةً كما بدأ دون أن أدرك ماذا جرى. لم أعرف قـــط كيف كان يصل إليها الهيرويـــن حتى البيت، رغم أنها لم تكن تخرج تقريبًا، وشككتُ في أم إبراهيم لفترةٍ، قبل أن أتذكر الممرضة القصيرة البدينة التي كانت قد تعرّفتْ عليها في المصحة، وصارتْ تزورها بانتظامٍ منذ إقامتها معنا.

نجحتْ ماما في إبقاء ظروف موت خالتي طيّ الكتمان. اهتمّت

الصحافة الفنية بالمطربة القديمة حسنية أمين، أو حُسْنَى كما عرفها جمهورها، والتي لم تُسجِّلْ إلا بضعَ أغنياتٍ في الإذاعة، وظهرتْ كمطربةٍ في فيلم أو اثنين قبل أكثر من عشرين سنة، أذاعوا لها في بعض المحطّات التليفزيونية والإذاعية ما وجدوه متاحًا، ربما إكرامًا لأختها الممثلة القديرة.

رأيتُ في جنازة خالتي حفنةً من عجائز أهل الفن، وللحظةٍ عابرةٍ فكّرتُ في جنازة ماما، كيف ستكون؟ مَن سيحضر؟ أين سأكون أنا؟ ماذا سأفعل عندئذٍ؟ ولم يسعفني خيالي بأي شيءٍ، لم أستطع حتى أن أتخيل ماما وقد ماتت، وأنا أقف كما أقف الآن أتلقى العزاء. هربتْ مني أنفاسي، وضاق صدري، ورحتُ أفتش عنها بعينيّ، كأنّ وجودها صار مُهدّدًا، كأنها قد تُختطف مني في أيّة لحظةٍ، حتى رأيتها من بعيدٍ، وجهها يشع ضوءًا وسط سواد ثيابها، حزينة ومُنكسرة، لكنها صلبة وعفيّة، تصافح المعزين وتومئ برأسها الجميل. قلتُ لنفسي إن ماما لا تموت، لا بُدّ أن أؤمن بهذا، لا بُدّ أن أصدّقه. هذا شيءٌ لا شك فيه، لن تموت الآن أو قريبًا أو حتى بعد عشر أو عشرين سنة. وحتى يأتي ذلك اليوم لا بُدّ أن أستعد، أن أدرّب نفسي على تخيّل موتها، وإلا فسوف أجَن إذا حان أجلها.

أول مرة رأيتُ وجهي في المرآة بعد جنازة خالتي حسنية، اكتشفتُ أن شعراتٍ قليلةً فوق أذنيّ قد ابيضتْ على الجانبين، وأن

الضلع أخذ ينشط زحفه. تذكرتُ أيضًا أنني بلا عملٍ أو حياةٍ حقيقيةٍ منفصلةٍ عن حياة أمي، وأن آخر مرّةٍ رأيتُ فيها شيئًا في الحلم ثم تحقق كان قبل سنواتٍ بعيدةٍ، وكان أمرًا تافهًا، مجرد جورب أحمر اللون كنتُ أحبه وضاعت منه فردةٌ، حلمتُ أنها مزنوقةٌ في المكتبة خلف رواية عن الحب وشياطين أخرى، وفي الصباح وجدتها في الموضع ذاته.

شعرتُ أن شيئًا ما لا بُدّ أن يحدث، شيئًا ما لا بُدّ أن يتغيّر، ولو كان للأسوأ. حين أوشكتُ على البكاء أمام المرآة تماسكتُ، وهمستُ في تأنيبٍ وتوسُّلٍ معًا:

إنتَ كبرت يا هاني.

(18)

كان كريم سعدون هو من يقف بجانبي في ردهة القسم، حين أتى الأمناء والعساكر بالكلبشات، فكان هو أوّل مَن قُيِّدْتُ معه. أوّل مرّةٍ تنغلق الكلبشات على رسغ الواحد لها إحساسٌ مفاجئٌ، فرغم الحسرة والخنقة، هناك أيضًا شيءٌ يُشبه الراحة والتسليم، وكأنّكَ لم تعد مضطرًا للتفكير واتخاذ أي قرارات بنفسك، عُدْتَ فجأةً طفلًا تمسكُ بيد أبيك أو أمك مُستسلمًا لهما، غير أن الحكومة عندئذٍ تكون هي الأب والأم وولي الأمر والإله المحيط بكل شيءٍ.

لمحتُ البرنس أمام القِسم وهم يسوقوننا نحو سيارة الترحيلات، ففقدتُ صوابي، ورفعتُ ذراعي الحُرَّ مُلوِّحًا، وناديتُ عليه. اقترب

مني مُسرعًا ومُزاحمًا بعض الأقارب والمعارف ممن علموا بسجن ذويهم. مجرد رؤيتي له أعادت إليّ شيئًا من الطمأنينة، بعد أيَّام بين قسمي عابدين والأزبكية امتدت كأنها عمر آخر. تأكدتُ عند رؤيته أن عالمي القديم لم يكن وهمًا، ما زال موجودًا ومتواصلًا، وتوّهمتُ أنّ بيني وبين إطلاق سراحي شعرة.

أمطرتُهُ بالأسئلة، وأجابني بسرعةٍ وقد انتبه للنبرة اللاهثة التي بدأتُ أتكلم بها، وتقطّع أنفاسي، وراحَ يتأمل مذهولًا بقع الدم على فانلتي الداخلية، وشحوب وجهي، وبعض كدماتٍ خفيفةٍ على كتفيّ. أخبرني باتصال عبد العزيز، وأنه أبلغه بالقبض عليّ، وأنني محجوز لسببٍ مجهولٍ في قسم عابدين، ثم اختفائِه وإغلاقِ هاتفه. اتصل البرنس بزوجتي، وطمأنها زاعمًا أنني سافرت إلى الإسكندرية فجأةً، وأغلقتُ الموبايل. تملّص من استجوابها له، ولم يشعر أنها صدّقته مع هذا. وأنا على باب سيارة الترحيلات، ناولني شنطةً فيها طعام ومياه وسجائر ومناديل وقال بعينين دامعتين:

ماتخافش يا هاني، إنت مش لوحدك.

حاولتُ ألّا أصدقه، لكنّني صدّقت هذا الماء الثمين الذي يغسل مقلتيه، وقلت لنفسي وهم يحشروننا فوق بعضنا في الصندوق: إنه ليس عبد العزيز الذي حسبتُ أنه خرجَ من مخبئه أخيرًا، وتجرأ على الاعتراف بحقيقة مشاعره، بل هو البرنس، الذي أنفق عمره

كله في رعايتنا، كأن اللـه نفخ فيه روحَ أمٍّ طيبةٍ، فإذا تخلّى عني، فقد تكون كلبشات الحكومة هذه أرحم عليّ ساعتها من الجميع.

سألني كريم:

ده أبوك؟

فقلتُ له لاهثًا وكاتمًا البكاء:

صديقي، وفي مقام أبويا.

فهمسَ بنبرته البطيئة:

طب ما تعيّطش عشان خاطري.

بينما نبتعد عن منطقة رمسيس، كان بقية المحبوسين قد حوّلوا سيارة الترحيلات إلى جنازةٍ مُلتاعةٍ، وقد أدركنا أن المسألة لن تمر مرور الكرام، وأنها قضية فجورٍ حقيقيةٌ، بأوراقٍ ونيابةٍ وطبٍّ شرعيّ وكل ما يلزم، وربما ما دفعهم للانطلاق في البكاء والنواح رؤية بعضهم لأهاليهم وخزيهم أمامهم، أو مجرد رؤية نور النهار والابتعاد عن خنقة الحجز الذي لم نكن نميّز فيه النهار من الليل طول الأيام الماضية. كان معنا شخص ممصوص وطويل كأنه خيزرانة وله رأس كبير أصلع، يسمونه سعيد جمجمة، يتحرك ببطءٍ وهو يميل إلى الأمام برقبته الطويلة، وطوال الوقت يجرّ من خلفه الشخص المكلبش معه. بعد مرور بعض الوقت ونحن في الطريق

نظر سعيد من فتحةٍ صغيرةٍ في البوكس، وأعلنَ بصوتٍ أجشٍّ وهو يجــول بعينيه الغائرتين في وجوهنا: شــكلهم هياخدونا ع المعتقل على طول. كان يبدو كأنه يستمتع بتأجيج مخاوفنا وعذابنا.

بدا أن كل شيء كان مُعدًّا في انتظارنا، لا ينقصه غير حضورنا بأجسادنا أمامهم، حتى تتم الطبخة في أوراقهم المزينة بالنسور السوداء. وكيل النيابة الذي أمر بحبسنا أوّل مرة على ذمة القضية لم يلتفت إلى بقع الدم على ثيابنا، لم يهتم بما تعرّضنا له من ضربٍ، وما يظهر علينا جميعًا من إصاباتٍ. تصرّف كأنه لا يرى ولا يسمع، حين طالبه بعضنا بتسجيل تعرّضنا للضرب والإذلال، وأن اعترافاتنا في قسم الأزبكية تمّت تحت الضغط والتعذيب. كان ذهولي أمام ما يحدث مضحكًا مقارنةً بهدوء وتقّبل بعض المحبوسين معنا. في البداية لم أتوقّف عن الاستغراب من أشخاص مثل سعيد جمجمة، أو محمد سكّر، صديق كريم الذي قُبض عليه معه عند خروجهما من مركب الكوين بوت. فقد تعامل هؤلاء مع المصيبة بتسليم كأنها قضاء الله وقدره. ربما لأنّ بعضهم لم يكن لديه ما يخسره أساسًا، حياته نفسها كانت على كف عفريت طول الوقت، بالدليل المرسوم على وجه محمد سكّر نفسه، حيث تُزَيّن خدّيه ندبتان طويلتان، تركتهما هناك شفرةُ حلاقةٍ حادّةٌ، أو ربما شفرتان اشتغلتا معًا في اللحظة ذاتها، بين يديّ فنّانٍ خبيرٍ بتشويه الوجوه.

حكى لي سُكّر في إحدى مرّات كلبشتنا معًا، خلال إحدى رحلاتنا الكثيرة من النيابة أو إليها، كيف سبقنا جميعًا ببضعة شهور إلى المثول بين يدي حسن فوّاز، في شتاء هذا العام نفسه، حين احتجزه هو وآخرين وتسلّى عليهم لأيام، قبل أن يحوّلهم للنيابة التي أفرجتْ عنهم. قال لي سكُر:

دلقوا علينا ميّه متلجه في عز البرد عشان ما تغمضش لنا عين ليل نهار، وف الآخر سلّطوا علينا شوية عيال مبرشمين، وقالوا لهم: الخولات دول بتوعكم. واحد من العيال دول نام معايا غصب عني وعنه هو كمان، عشان يروّحوه، طلّع غيظه فيّا، وقعد يلطش بغباوه، وأنا مهما أصرّخ ولا أستغيث مافيش فايدة، لحد ما روحي راحت، وأغمى عليا، فسابوني لحد ما فُقت.

كان يحكي لي والآخرون أيضًا، كلما جلستُ بجانب أحدهم أو قيدوني معه في كلبشاتٍ واحدةٍ، ربما لأنني لم أكن أتكلم كثيرًا بسبب متاعب تنفُّسي، فتصوّروا أنني مستعد لأن أصغي، وربما لأنهم طمعوا في إثارة شفقتي ومساعدتي لهم بأي شكل، وربما لأن كل واحدٍ منّا كان يحاول أن يُفضي بما لديه لأيِّ شخصٍ يجده جواره في أي لحظة. كريم كان مختلفًا، لا يتكلّم إلا للضرورة، ولم يحكِ إلا بعد أن طلبت منه ذلك في عنبر السجن. ووحدها حكايات كريم كانت تسندني، فكأنّه قرأ ما كان مكتوبًا على وجهي طوال

الحبس، أدرك أنني بحاجة لبلسم، أحسّ بجرحي بفطرةٍ لم يلوثها شيءٌ مما يحيط بنا. سأشعر مع الوقت وكأن هذا الولد ينتمي إليّ بالدم، كأنه ابني أو أخي.

شيءٌ ما في وجه كريم يخطف النظر من أول لحظةٍ، شيءٌ كأنه سِرٌّ يجعل الواحد لا يشبع من التطلع إليه، وكأنّ العين إذا بحثتْ في ملامحه وقتًا كافيًا سوف تعثر على جواب سؤالها، فيبطل العَجب، ولكن على العكس، يتواصل النظر، ويتواصل السؤال. يكاد وجهه أن يكون تام الاستدارة تقريبًا، ببشرةٍ بيضاء نقيةٍ، وتزيّن خدّيه غمازتان مثل نقطتين غائرتين وهو ساكت، حتى إذا ابتسم أو ضحك أو تكلّم تأكّدتا كوشم مزدوج. شَعره فاحمٌ وثقيلٌ، لا ناعمٌ ولا خشنٌ كذلك، وحاجباه كثيفان ومعقودان ويصل بينهما خطٌّ خفيفٌ من الشَّعر يعبر فوق أنفه، ليُضفي عليه مزيدًا من الغرابة. له شفاهٌ ممتلئة قليلًا ومضمومة، فتبدو بارزةً للأمام دائمًا، فكأنه متأهّبٌ للتقبيل أو مُمتعضٌ قليلًا أو يُبدي علامة الجهل على سؤال ما، فكأنه يقول: وما أدراني؟ أنا جميلٌ، وهذا كفايةٌ. كنتُ أتأمله أحيانًا بين نوبات انقطاع النفس والانخراط في البكاء، أتأمله معجبًا، ولكن دون شهوةٍ، فقد قطع السجن كل شهوةٍ، ولكنه لم يقتل مع هذا قلقي أمام لغز الجمال.

خلال شهور السجن التالية، سوف أنام على صوت حكاياته التي

لا تنتهي، وحين أصحو أجده إلى جانب فرشتي مُنتبهًا، يقول لي:

انت نمت كويس الحمد لله، أعمل لك سندونتش؟

فأعرفُ أن اللـه موجود، وما زالَ يحبني ويرعاني.

أثناء التحقيقات، فوجئنا بالأسئلة التي طُرحت علينا. أسئلة لا علاقة لها تقريبًا بالسبب الذي لمّونا من أجله. سألوا بعضنا هل هو عضو في جماعة وكالة اللـه في الأرض؟ ماذا يعرف عن الغلام الكردي؟ هل سبقَ له أن حضر اجتماعاتٍ دينيةٍ على سطح مسكن المتهم الأول سمير بركات؟ هل حضر حفلات زواج بين ذكور من بين طقوس الجماعة؟ اتضح لنا أن التهمة تجاوزت مجرد اعتياد ممارسة الفجور، إلى ازدراء الأديان وتكوين منظمةٍ دينيةٍ سريةٍ. فهمنا أنهم قرروا إرسالنا وراء الشمس بأيّ ثمنٍ، وتذكّرنا قضية عَبدة الشيطان قبل سنوات، بل إن بعض الصحف قد أعلنت ببساطة: (القبض على ما يزيد عن خمسين عضوًا من جماعة لعبادة الشيطان كانوا يمارسون الشذوذ، ويلتقطون الصور العارية)، ونشروا أيضًا أنه قد قُبِضَ عليهم (أثناء قيامهم بممارسة أعمالٍ مُخلّةٍ وهم عرايا داخل الصالة (الكوين بوت)، وأن الحفل كان حفل زواج بين شابين والعياذ بالله).

قرأتُ هذا كله بعد خروجي، من ملف أوراق وقصاصات جمعه البرنس بمعاونة بعض المحامين. وقد أثبتَ أنه ليس مجرد

شيخٍ متصابٍ يغوي الشباب بماله وعلاقاته وسِحر شخصيته. كان بوسعه أن ينزوي ويختفي ويهدأ، صونًا لسُمعته واسمه واتقاءً للشبهات التي لا تنقصه، غير أن هذه لم تكن طبيعته، كان محاربًا عنيدًا، حتى وهو يقترب من السبعين. راح يتحرّك في كل اتجاهٍ ممكنٍ، يلتقي بالمحامين والعاملين في منظمات حقوق الإنسان من المصريين والأجانب، متعاونًا مع صديقنا وجدي، مخرج المسرح، بعد أن قُبِضَ على أعز أصدقائه من الكوين بوت، ولولا وعكة منعته من السهر معه ليلتها، لكان وجدي نفسه أحد المقبوض عليهم. أخذ وجدي يرسل البيانات في كل اتجاه مثل المجنون، إلى كل جهةٍ يستشعرُ فيها أملًا في المساعدة، إلى أن انتبهتْ للقضية بعض منظمات حقوق الإنسان الدولية، التي راحت تتابع الموقف وتدين وتفضح، ولكن حدث هذا بعد أن فات الأوان، وأُعِدّتْ الملفات، وأحكموا نسج خيوط العنكبوت.

ربما كان الدافع الأساسي للقضية، كلها هو الانتقام من سمير بركات، أو بالأحرى الانتقام من عائلته، وتشويه سُمعتها من خلال شخصه لخلافٍ مع عائلةٍ أخرى كبيرةٍ. كانوا قد داهموا منزل سمير قبل أن تبدأ تمثيليتهم معنا بشهر تقريبًا، وتحفظوا على كل ملفاته وصوره وكتبه، ثم استدعوه ليسترد أشياءه، فلم يرَ النور بعدها. قبل القبض عليه كان تحت المراقبة أسابيع، ثم ظلّوا يحققون معه أسبوعين وهو معصوب العينين، في أسوأ ظروفٍ نفسيةٍ ممكنةٍ.

يعلم اللـه وحده إن كان ابن الناس المدلل قد انهار مثل حالاتي تحت الضغوط والمهانة والتعذيب البدني وأقرّ بما يريدونه أن يقرّ به، أم أنه بالفعل كانت لديه أوهامه الدينية العجيبة.

زعموا أنه قد روى لهم فجأةً ودون سياقٍ واضحٍ، عن حلم زاره أو رؤيا حسب تعبير المحاضر الرسمية، منذ خمسة عشر عامًا وما زال يذكره، رأى فيه كأنّ الرسول محمد يزوره غلامٌ أشقر، وقال النبي إن ذلك الغلام الكُرديّ سيظهر، وينتقم من العالم أجمع، يهود ونصارى ومسلمين، فقط لأنهم لم يحاولوا منع الهجوم التركي على الأكراد. ما لنا نحن والأتراك والأكراد؟ قد تكون تلك تخاريف سمير بعد وجبة عشاءٍ دسمةٍ، وقد تكون أيضًا من إبداع مؤلفٍ مجهولٍ في أجهزة الدولة، أطلق العنان أخيرًا لمواهبه الأدبية المكبوتة، وراح يُدبّج عشرات الصفحات عن منظمة وكالة اللـه في الأرض. المهم أن ذلك الحُلم المضحك سيكون هو محور القضية التي ستهز مصر، وتزعج العالم وتقضي على حياة بعضنا.

في البداية لم أفهم شيئًا، ولم أعرف بماذا أجيب حينما أُسأل عن الغلام الكردي ومنظمة وكالة الله. كنتُ قد أصبحتُ بالفعل في عالمٍ آخر، لا أستطيع أن أنطق جملةً واحدةً مفهومةً على بعضها من فرط اللهاث والتهتهة، وصرتُ مُستعدًا للتوقيع على أي شيءٍ يكتبونه، طالما سيتركونني أعود إلى الحبس لأرتاح.

آخرون اعترفوا بميولهم المثلية عند سؤالهم عن صُنعهم لطيارات أو صواريخ وهم أصلًا لا يقرأون ولا يكتبون، فكأنهم يقولون بكل بساطة نحن مجرد خَوَلات، فارحمونا ولا تصنعوا منا إرهابيين.

يحلو لي الآن أن أتخيل ذلك الموظّف الموهوب الذي جلس يشطح بخياله أمام الورق، مثل أي كاتب روايات عبقري، وهو يؤلّف الكُتيّب ذا التسع والعشرين صفحة، الذي زعموا أنهم عثروا على عدة نسخ منه في بيت سمير بركات. أعطى كتابه هذا عنوان: (وكالة الله في الأرض: ديننا دين قوم لوط، ونبينا ومرشدنا أبو نوّاس). شخصيًّا لم أكن أعرف أن أبا نواس واحدٌ من "الحبايب". اطلعتُ فيما بعد على بعض التحقيقات والوثائق التي ورد فيها إشارات لهذا العمل الأدبي الظريف، أذكر من عناوين فصوله: "عالمنا، لماذا قوم لوط، شريعتنا باختصار، أناشيد مثلية، أوامر ونواهي"، ومن بين النصائح التي وردت في الكتيب: "أشبع شريكك حتى لا يتركك". يمكنني الآن أن أبتسم أو أضحك وأنا أقرأ هذا الكلام، بينما أنظر إلى الكابوس من بعيدٍ، كأنني أتذكّر فيلم رعب، مرتاحًا لأنني خرجت من عتمة السينما وقبضة الفزع إلى نور الشارع وأُنس الحياة.

وردَ في أحد المحاضر الرسمية أن سمير بركات اعترف بأنه "قد أنشأ وكالة الله، رب الجنود" وأن أحد زملائه في العمل كان

قد بنى مُصلًّى لهذه الوكالة فوق سطح عمارة سمير. ألقوا القبض على مصطفى ذلك، كما تحفظوا على 893 صورة فوتوغرافية من متعلقات سمير، يظهر فيها بين رجالٍ وفتيان في أوضاع فاحشة. لم تظهر في التحقيقات أي صور فيها رجال عرايا أو يمارسون الجنس، ومن بين ما قاله أهل سمير لمندوبي منظمات حقوق الإنسان إنه كان يهوى التصوير الفوتوغرافي، وإن أعماله عُرضت في عدة معارض، وأنه كان متدينا وحجّ إلى بيت الله الحرام.

وقد رأيتُ المدعو مصطفى ذلك يصرخ في سمير في رُدهة المحكمة:

ضيعتني معاك، ربنا ينتقم منك.

فيصرخ عليه سمير من بعيد، بصوتٍ باكٍ:

أنا زيي زيك يا مصطفى! متدعيش عليّا! حرام عليك!

بعد ذلك بأسابيعَ عديدةٍ، سمعتُ سمير بركات يصرخ في قاعة المحكمة أمام الصحافيين:

إحنا ضحية، ضحية ماتش انتقام بين عيلتين كبار في البلد.

فتذكرتُ لحظتها نملة النبي سليمان. وبين عرق الرجال المزدحمين في القفص بثيابهم البيضاء ووجوههم المغطاة بمناديل أو بفانلاتٍ بيضاءَ أيضًا ومثقوبةٍ أمام العينين، حاولتُ أن أتذكر

الآيـــة كاملة. زحفتُ بين الأقدام حتــــى وصلتُ إلى كريم الذي كان عاكفًا على القراءة همسًــا من مصحفٍ صغيرٍ بين يديه، وســألتُه بصوتٍ قد صارَ متهدجًا:

فاكر سورة النمل، فاكر آية النملة وسيدنا سليمان لمّا ضحك من كلامها؟

أومأ رأسُه من وراء المنديل المسدل على وجهه، ورتّل هامسًا في أذني بصوته الحُلو:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

(19)

حديقة السطح فوق فندق آندريا، وسهرات يوم الخميس وعمرٌ آخر من اللهو والانبساط والطيران مثل فراشةٍ داعرةٍ بلا هدفٍ، تهيمُ في كسلٍ، متخمةً بالرحيق الحلو المسموم، وكان يمكن لهذا أن يستمر إلى ما لا نهاية، لولا أنني قابلتُ مينا جميل في الوقت المناسب.

منذ أن اشترى البرنس هذا الفندق، حتى أصبح ملجأنا الدائم. الطوابق الثلاثة العُليا من عمارةٍ قديمةٍ في ممر بهلر، على بعد خطواتٍ من ميدان طلعت حرب، على السطح مطعم وبار ومربّع صغير في الركن، مرتفع عن الأرض قليلًا، لمن يحب أن يرقص،

وخصوصًا كل خميس، وهي الليلة الوحيدة التي يُرخي فيها البرنس لنفسه الزمام قليلًا، وينسى دوره كمدير ومالك المكان، ويصير زبونًا مثل جميع مَن حوله، كثيرًا ما كان يُرسل في طلب إحدى الزجاجات المستوردة من جناحه الصغير في الفندق نفسه، فينسجم محاطًا على الدوام بشبابٍ كالورد، ثم يحتضن العود، ويبدأ الدندنة، وقد تمتد وصلة الطرب حتى مطلع فجر الجمعة.

كانت ليلة خميس أيضًا عندما التقيتُ بمينا جميل أوّل مرة، وقد أخبرني البرنس بأنه يبحث عن شريكٍ مناسب لتأسيس مكتب تصميماتٍ هندسيةٍ. كان موعدنا معه في أوّل المساء، قبل أن يبدأ الصخب المعتاد. تعلّقت به عيناي للحظاتٍ عندما وصل قبل الموعد ببضع دقائق. جذبني حولٌ خفيفٌ في عينه اليسرى، عيبٌ لا يكاد يُرى، لكنه أضاء وجهه بطريقةٍ ما. شعره الفحمي مفروقٌ من الجانب مثل تلميذٍ مهذّبٍ. كان البرنس قد حدثني على الهاتف عنه، وأشار إلى أنه واحد من "حبايبنا"، وهي كلمة السر الخاصة به، والتي ليس لها إلّا معنى واحد فقط.

قام البرنس بالتعريف الواجب باختصارٍ، وفتح الموضوع مباشرةً. حينما تحدّث مينا استغربتُ جديته ووقاره، وقلتُ لعلّه لا يريد أن يخلط العمل باللعب من البداية. كان تحت يده مبلغٌ معقولٌ، ولكنه غير كافٍ لبدايةٍ محترمةٍ، ويبحث عن شابٍّ يريدُ أن يُنشئ

عمله الخاص، مع درجةٍ من الإلمام بطبيعة العمل، وهو ما سمعه عني بكل تأكيد. تذكّرتُ تجارب عملي السابقة والتي أخفقتْ لأسبابٍ متنوّعةٍ، وتقبّلتُ مجاملته صامتًا. رفعتُ كأس بيرةٍ له تحيةً وأنا أنظر في عينيه الغريبتين فرفع كوب مائه، وابتسم ابتسامةً هشةً. تبادلنا الأرقام، وحدّدنا موعدًا قريبًا لمناقشة التفاصيل، وسرعان ما أبدى تأهبه للانصراف. دعاه البرنس للبقاء، فالسهرة ما زالت في أوّلها، غير أنه اعتذر، وتحجج بانشغالاتٍ، فاستشعرتْ ضيقه بجو المكان. أكّد مرةً أخرى على موعدنا قبل أن يذهب، وعند المصافحة ضغطتُ يده برفقٍ، فلم يبدر عنه شيءٌ، وتوجّه إلى المصعد بخطواتٍ نشطةٍ.

قلتُ للبرنس:

إيه العقل ده كلّه؟

فأجاب متحفزًا:

هو ده اللي إحنا محتاج له بالظبط.

قال إنّ جدّية مينا سوف تشجعني على التركيز والالتزام، وإن الشركة ستكون شركتنا، وبالتالي لن أواجه المشكلات التي واجهتها في أعمالي السابقة. ما عليّ إلّا أن أدبّر حصتي في رأس مال الشركة، ثم أساير مينا خطوةً بخطوةٍ حتى ننجح ويصبح لحياتي معنى، بدلًا من أقضيها هائمًا بلا هدفٍ. واسترسل في وصلة وعظٍ

قصيرةٍ مؤكدًا أنّ الحياة التي تبدو في الظاهر فارغةً هي في حقيقتها ممتلئةٌ، ولكن بالفخاخ والمصائد التي قد تؤدي إلى التهلكة في غمضة عينٍ.

بعد يومين أو ثلاثة التقيتُ بمينا في الأمريكين، حاولتُ وأنا أتهيأ للموعد أن أوازنَ بقدر استطاعتي ما بين المظهر العملي وإحساس الخفة واللعب، لكن نظرته السريعة لقميصي البرتقالي نبّتهني إلى أن إحدى الكفتين قد مالت قليلًا. لم ندخل في مسائل الشراكة مباشرةً، فتحدثنا قليلًا عن البرنس، وعن كثيرين ممن يرعاهم، مِمّن ستكون حياتهم أشد صعوبة لولاه. وقال مينا عَرَضًا إنه يتمنى للبرنس أن يجد شخصًا مُخلصًا، وأن يستقر معه بدلًا من التنقل السريع بين شركاء عابرين. أغاظتني أمنيته هذه، ربما لأنني شممتُ فيها رائحة إدانةٍ لأسلوب حياة البرنس وتقلّبه بين العشّاق، وبالتالي فالإدانة تشملني، حتّى إن لم يكن مينا يعرف الكثير عني. فدافعتُ عن حياة البرنس، وأوضحتُ له رأيي بصراحةٍ في تفضيل الحرية والانطلاق. فقال بهدوئه الذي كثيرًا ما استفزني في بداية صداقتنا إنّ هذا قد يصلح لبعض الوقت، أو ربما في مطلع حياتنا، لكن بعد فترة تفترسنا الوحدة، ونحتاج لشيءٍ آخر أعمق من الجنس السهل السريع، ليس بالضرورة أن يكون هذا الشيء حبًّا، سمّه ما تشاء، شيء أقرب إلى التفاهم، أن تجد شخصًا تستطيع التحدّث معه دون أن تخجل أو تخاف.

أحسستُ كلامه رومانسيًّا وسخيفًا. وكنتُ قد طويتُ هذه الصفحة منذ زمنٍ، كنتُ أؤمن باللحم والدم والأعصاب والعضلات، ولا شيء وراء ذلك، لا مشاعر ولا عواطف ولا يحزنون، واعتبرتها كلها أوهامًا صُنعت ليخدعوا بها المراهقين والسُّذَّج في الروايات والأفلام والأغاني. لكنني تكاسلتُ عن الدخول معه في جدالٍ، وخصوصًا حين وجدتُه يحاول جرّ الحديث إلى مربط الفرس وهو مشروعنا.

أعجبتْني فكرته، وهي ببساطةٍ أن نختصّ بتصميم ديكورات المتاجر والمحلات والمقاهي الحديثة في المناطق الراقية والمولات. عندما أدركنا قيمة المبلغ المتواضع الذي يمكننا تدبيره كبدايةٍ، وطبعًا بعد أن تشاورت سرًّا مع أمّي، ووافقتْ على إقراضي مبلغًا معقولًا، سألتُه لمَ لا يقتصر عملنا بالمتاجر والأماكن الصغيرة للغاية، فأصحابها غالبًا لا يملكون المال الكافي للاستعانة بشركةٍ معروفةٍ، كما أنهم أحوج الناس إلى استغلال كل شبرٍ من مساحتهم المحدودة. من ناحيةٍ لن نجد منافسين كبارًا يزعجوننا، ومع دعايةٍ جيدةٍ وأسعارٍ هيّنةٍ يمكننا أن نكسب أرضًا في هذا السوق تحديدًا. عندما طرحتُ فكرتي هذه، لاحظتُ لأوّل مرة منذ تعارفنا نظرته إليّ تتبدّل، وكأنه اكتشف أنه اهتدى إلى الشريك المناسب فعلًا. ثم أخذنا الشقّة، وسرعان ما أثثناها، وبدأنا العمل، وأسمينا الشركة "فري سبيس"، باقتراحٍ من البرنس في جلسةٍ نهاريةٍ على حديقة السطح.

وجدتُني أمام اختبارٍ حقيقيٍّ لأوّل مرةٍ، أمام نفسي قبل الآخرين جميعًا. منذ تخرجي وحتى لقائي بمينا كنتُ اشتغلتُ في أماكنَ عديدةٍ، أغلبها وظائف تأتيني إمّا من خلال ماما، وإمّا البرنس. وجميعها تتصل من قريبٍ أو بعيدٍ بتخصصي في الرسم وتصميم الديكور الداخلي. مرّةً مُصمّم مناظر في برامج تليفزيونية، ومرّةً رسّام في شركة إنتاج أفلام كارتون. وهكذا لسنواتٍ، أدخل كل عملٍ جديدٍ مُتحمّسًا، أريد أن أثبت ذاتي، وأصحو مبكرًا، وأهتم بمظهري متجنبًا الثياب البرّاقة والملفتة. وما هي إلا أسابيع معدودة أو شهور في أفضل الأحيان حتى يهمد الحماس ويخيب الظن. كانوا يصرفونني بلباقةٍ بعد أن يستشعروا عدم جدوى وجودي معهم، أو أنقطع أنا عن العمل ذات يومٍ، ضجرًا وقرفًا من سخافاتهم.

كانت هذه المرة مختلفةً تمامًا، توقفتُ عن السهر، وصرتُ أبدأ يومي مبكرًا، أحيانًا لأثبت لمينا على الأقل أنني لستُ الكسول المدلل ابن أمه. اعتمدنا في البداية على علاقاتنا الشخصية، طبعنا ورق دعايةٍ صغيرًا مُلوّنًا، ورُحنا نوزعه في كل موضع ممكن. وطرق أول العملاء بابنا عن طريق ماما، حين قررت إحدى صديقاتها أن تفتح لابنتها كوافير. وكان العميل الثاني من ناحية البرنس، فنّانٌ مغامرٌ من الحبايب قرّر أن يفتح ورشةً لطباعة الأقمشة والثياب برسومٍ وتصميماتٍ يطلبها الزبائن. بالتدريج توافد عملاء آخرون، ووجدنا الأيام تمر بسرعةٍ في خضم الشغل، حتى صرنا ننسى تناول الطعام.

كانت التجربة تحديًّا لمينا بقدر ما كانت لي، فطالما أراد الاستقلال بعيدًا عن شركة عمه، خصوصًا بعد ما أثيرَ حول ميوله الجنسية، نتيجة لقصة حُبّ أخفقتْ، ثم طارده طرفها الآخر بعدها محاولًا ابتزازه وتهديده. عرفتُ مينا عن قُربٍ، واكتشفتُ تحت جديته ورزانته نبعًا رائقًا وناعمًا. ألاحظ بعض قمصانه وجواربه تنبض بألوان قوس قزح، من تحت البدل الداكنة والأحذية الغليظة، فأتذكّر فجأةً أنه واحدٌ من الحبايب، تمامًا كما كنتُ أضبطه أحيانًا يترنم بصوتٍ خفيضٍ مع أغنيةٍ قديمةٍ تنبعث من جهاز الكمبيوتر أمامه:

لَو كان الأمر أمري، لو كان في شيء بيدّي، كنت أقدر أشتري لك، جزيرة ويخت فضي... لَو، لَو، لَو.

فأصيح بمكر:

والنبي صوتك أحلى من صوت محرم فؤاد.

فيُشرق وجهه بابتسامةٍ خجولة.

بعد أن تسرّب موضوع ميول مينا المثلية ابتعدَ عنه أشقائه في صمت، عدا شقيق واحد اسمه عاطف، كان يعيش في نابولي مع زوجة إيطالية، ظلّ يسانده طوال الوقت. كلّما كنتُ أسمع مينا يتحدث عن (أخويا عاطف) يقرصني شيءٌ كالجوع المفاجئ. كان

يقول إن عاطف يؤمن بحرية الإنسان، وبحق كل واحد أن يمارس الجنس كما يشاء ومع مَن شاء ما دام لا يؤذي أحدًا، فيتسلل إلى نفسي شيءٌ يُشبه الحَسَد. ذات مرةٍ كنا عائدين من سهرة الخميس في حديقة السطح، شجّعني الشراب، وأمسكتُ يد مينا في المصعد، قبّلْتُها، ولعقتُ باطنَها وأنا أنظر في عينيه. مسحَ بخفةٍ على خدي، ثم اقترب، وقبّلني عليه قبلةً سريعةً وخفيفةً مثل نقرة طائرٍ.

طلبَ أن نجلس في سيارته لنتكلم قليلًا، وفي دفئها المعتم قال وهو ينقّل بصره ما بيني وبين الشارع الهادئ إنه يحبني كثيرًا كأخٍ جميلٍ عوّضه به الله عن أشقائه الذين قاطعوه، حتى ولو كانوا يسكنون على بُعْد أمتارٍ معدودةٍ منه. ولكنه لا يميل إليّ، وأنه أخذ عهدًا على نفسه من زمانٍ ألّا يمارس الجنس مع أي رجل دون عاطفةٍ؛ لأنه يخشى أن ينسى حلاوة تلك المشاعر إذا ما نام مع كل مَن يجده متاحًا في سبيله، ومع هذا فهو لا يلوم أيَّ شخصٍ يفعل ذلك ما دام يجد في ذلك إشباعه وراحته.

أنصتُّ إليه في ارتباكٍ، بينما أتأمل ملامحه الوسيمة الطيّبة، ثم قبّلْتُهُ على خده وذهبتُ، ناويًا ألّا أكرر المحاولة بعد ذلك أبدًا. عدتُ إلى البيت مباشرةً، بشوكة الشهوة في جنبي دون جولاتٍ للصيد، وقد خبت الرغبة في تلك الأيام أمام تشكّل وجهٍ جديدٍ في مرآتي، نسخةٌ جديدةٌ وغريبةٌ عليّ من هاني، صورةٌ أكثر اطمئنانًا وثقةً

بنفسها وبالعالم كله. ولولا إلحاح أمي المتواصل عليّ بالزواج لقلتُ إن تلك الفترة كانت أسعد سنوات حياتي.

ثمّ جاءت الضربة من حيث لم أتوقع، بعد أن عاد مينا من إجازة أسبوعين قضاها في ضيافة أسرةِ شقيقه عاطف، ليخبرني على استحياء برغبته في فضّ الشركة بأسرع وقتٍ ممكن، فقد التقى هناك برجلٍ فاتنٍ في منتصف العمر، نصف مغربيّ نصف إيطاليّ، يعيش هناك منذ طفولته تقريبًا، فأطار عقله الراجح، حتّى قرر شريكي دون تردد أن يسافر إلى إيطاليا ويعيش معه.

قال لي مينا إنه صام طويلا عن الجنس بعفّة الرهبان، وكلّما كان يلجأ إلى العادة السرية أمام مواقع الإنترنت الإباحية، وحده في آخر الليل، كان يشعر بالمهانة والخواء، وربمّا بكى خجلًا وشفقةً على نفسه، وإنه ظنّ في بعض الأوقات أنه بحاجةٍ إلى علاجٍ نفسيّ لعجزه عن فعل ما يفعله الآخرون، وإن أمله في العثور على شريك حياةٍ مناسبٍ، بعد محنة حبه الأول الوحيد، قد يكون أفسد عليه توازنه النفسي إلى الأبد، فلن يستطيع بعد ذلك أن يسمح لأحدٍ بالاقتراب منه. قال لي إن كل تلك الأوهام تبددت بمجرد أن تبادل بضع كلماتٍ مع صاحب البازار الأسمر الذي يتحدّث عربيةً مشوّهةً، ويضحك بين كل عبارتين. من اللقاء الأول سرى ذلك التيار الكهربائي النادر بينهما، ودعاه على العشاء في اليوم التالي،

فاستجاب مينا، كأنه منوَّمٌ مغناطيسيًّا رغم أنه لم يكن يعرف عنه أيَّ شيءٍ. في اللقاء الثالث، وحينما ذهب معه إلى الفراش، اكتشف مينا أنه ما زال قادرًا على أن يمنح نفسه، وأن يتركها تذهب مع التيار، قال إنه سمعَ كثيرًا من يقولون إنهم وُلدوا من جديدٍ، لكنه لم يصدقهم ولم يفهمهم قبل الآن.

كانت عيناه تلمعان بالشَبَع والحماسة، وأحسستُ كأنه يحكي لي حكايةً خرافيةً من تلك التي تنتهي دائمًا بقُبلةٍ سحريةٍ، وعاشوا في ثباتٍ ونباتٍ، وخلفوا الصبيان والبنات. حكايةٌ لا أملكُ إلّا أن أشاهدها أو أسمع عنها، دائمًا بعيدةً ودائمًا تحدث للآخرين. احتضنتُ صاحبي وباركتُ له، ثم طلبتُ منه أن يحكي لي المزيد عن فارسه ذلك، ربما لأهرب من أزمتي، وأتعامى عن شبح وحدتي الذي يقف في الركن منتظرًا، وعلى وجهه ابتسامةٌ تشفٍّ مريضةٌ.

(20)

مش فاضل غير بنت الحلال.

العبارة التي لم تتوقف ماما عن تكرارها، بتنويعاتٍ مختلفةٍ، سنواتٍ وسنواتٍ، الطوق الذي راح يضيقُ حول عنقي كل يوم، وقد تفرّغتْ لي بعد انفصالها عن زوجها، ثم اعتزالها العمل تمامًا. كانت هي من أبلغتني بنفسها بخبر طلاقها، لم يبدُ عليها أي أسف، بل بالعكس، كانت تبدو خفيفةً وحرةً، وتبتسم كأنها تقول لي ها أنا عدتُ إليك أنت وحدك بكاملي. ولم أسعد بهذا، بل ربما خفتُ وتضايقتُ، وقلتُ إنها لم يعد لديها ما يشغلها عني وعن إلحاحها

عليّ أن أتزوج. بعد فترة لم تكتفِ بالقول، بل بدأتْ تقترح عليّ بعض الأسماء، وتدعوني لاصطحابها إلى لقاءاتٍ عائليةٍ، كنتُ أحرص على التهرّب منها بكل وسيلةٍ ممكنةٍ. كان حُلم حياتها الأخير هو نفسه عفريتي المفزع الذي تجاهلتُ وجوده طويلًا، ولم تعد تجدي معها أساليب المماطلة والحجج القديمة.

لم أكن غافلًا عن شكوكها في ميولي منذ تلك الليلة الباردة التي طالبتني فيها بالابتعاد عن البرنس. وكان عليّ طوال الوقت أن أمثّل أمامها دور عاشق النساء، دون أن أتأكّد بالمرة من أنني نجحتُ في خداع قرون استشعارها المرهفة. كنتُ أدسّ عبوات الواقي الذكري في كل مكانٍ يمكنها أن تصل إليه، الواقي الذي كنتُ أستخدمه فعلًا، ولكن في ممارساتٍ مختلفةٍ تمامًا. كأنني كنتُ أعيش في روايةٍ بوليسيةٍ، تاركًا ورائي كل الأدلة الممكنة التي تثبتُ إدانتي، ربما تصدق أن ابنها رجل طبيعي مثل بقية الرجال، وأن نفوره من الزواج ليس إلاَّ تهرّبًا من المسئولية، وتعلقًا بحياة الحرية والاستهتار.

استدعتني إلى غرفتها ذات صباحٍ، قبل أن أنجح في الإفلات والخروج. لم تفتح موضوع الزواج، بل قالت إنها تفكّر في السفر إلى السعودية، لتعيش بقية عمرها هناك، خاصةً وأن فنانة من زميلاتها تعيش بعد اعتزالها منذ سنوات في المدينة المنوّرة مع

زوجها الداعية المصري، وكانت قد أقامت معها لفترةٍ بعد أن أدّت حجتها الأولى بعد الاعتزال. اعتبرتُ كلامها تهديدًا مواربًا لي، لم أستطع تخيل حياتي دونها. كانت دليلي المتبقِّي على أنني لستُ وحدي تمامًا، لستُ فرعًا مقطوعًا من شجرةٍ لم يعد لها وجود، ولم أسقط من السماء كالمطر على الأرض عاريًا صارخًا بلا راعٍ، الشيء نفسه الذي تمنيته ذات شتاءٍ منذ سنواتٍ معدودةٍ. ثم بدأتُ أسمع بعض اتصالاتها الهاتفية الطويلة بزميلتها القديمة تلك، وحديثهما عن تفاصيل إقامتها في المدينة، فسرقتُ جواز سفرها، وأخفيتُه في درج مكتبي بالشركة، على أمل أن تنسى تلك الحكاية كلها بعد فترةٍ، غير أنها لم تنسَ، وظلّت تلحّ وتهدّد باستخراج بدل فاقد والسفر في أقرب وقتٍ، حتى صار شجارنا وجبةً يوميةً لا نعرف لها موعدًا ثابتًا.

وحينما طلبَ مني مينا تصفية الشركة وشراء نصيبه منها أو العثور على شريكٍ آخر، أدركتُ أن المنغصّات حينما تبدأ في التسرب إلى حياتك من ثغرةٍ ما، فإنها لا تتوقّف بسهولةٍ، إلّا وقد اجتاحك تيّارها العنيف، وألقى بك نحو الاختناق والبؤس. بعد أن تأكّدتُ من صعوبة أن أجدَ شريكًا مناسبًا، ابتلعتُ كرامتي، ولجأتُ إلى أمي من جديد. حكيتُ لها كل شيءٍ بصراحةٍ، عدا السبب الحقيقي وراء قرار مينا بالسفر. أبدتْ ببساطةٍ استعدادها لمساعدتي على الفور، ولكن بشرطٍ واحدٍ، هو أن أخطب على الأقل قبل أن

نُوقّع لي الشيك المطلوب. توقّعتُ منها أيّ شيءٍ، إلّا هذه المساومة على حياتي، كرهتُها، وارتعبتُ من تلك الكراهية لدرجة أنني كنتُ مستعدًا لنفيها تمامًا بكل طريقةٍ ممكنةٍ، حتى بالانصياع المذل لمطالبها.

في حديقة السطح، ألقيتُ كل همومي على مائدة البرنس، فنصحني بأن أجاريها في اللعبة لبعض الوقت، لأن أي خطوبةٍ ممكن فسخها لألف سببٍ، وحتى لو تزوجّتُ، فباب الطلاق يظل مفتوحًا. لجأتُ أيضًا إلى عُمر نور، وحكيتُ له كل شيءٍ، فقال إنه ربما يكون قد حان أوان الخروج من الخزانة، ويقصد إعلان مثليتي، قال إن أمك ست فنانة، وفاهمة الدنيا، ولن تلفظ ابنها الوحيد لأنه لا يحب النسوان، وإن كان هذا مستحيلًا، فعليّ إذْن أن أتركها تذهب مطرح ما تحب، أو أن أذهب أنا، أهرب بعيدًا عنها وعن عالمها، وأحاول أن أصنع حياةً مستقلةً، أن أتخذ مسكنا أستطيع أن أعيش فيه مع شخصٍ أحبه، بدلًا من الممارسات العابرة في الشركة بعد مواعيد العمل أو في أماكن أخرى مشبوهةٍ، فإن لم أهرب الآن، ربما أضيّع فرصة الفرار بجلدي إلى الأبد.

على عكس عُمر وبعض الحبايب، لم يكن الميل إلى العصيان والثورة من بين الخصال التي قد أتباهى بها، ومع ذلك، فقد كان داخلي على الدوام نوعٌ من تمرُّدٍ سريّ ومكتومٍ، له وجهٌ مشوّهٌ

وملتوٍ، يدفعني لأن أوجّه أسلحتي إلى نفسي، متأرجحًا بين إحساس زائف بالتفوق على الآخرين لا يستند على شيءٍ، وبين متعة إذلال ذاتي وإجبارها على التسليم أمام أي هبّة ريح تعبر بي، فماذا كان يمكنني أن أصنع أمام عاصفة أمي التي تحاصرني ليل نهار؟

أخذتُ بنصيحة البرنس في نهاية الأمر، وبدأتُ أبحث حولي كالرادار عن ضحيةٍ أو ربما عن شريكةٍ في المسرحية الهزلية التي أنوي لعب دور البطولة فيها، هنا انتبهتُ إلى شيرين. كان قد مضى عامٌ تقريبًا على عملها معنا، وسرعان ما صارت مثل أختٍ ثالثةٍ لنا أنا ومينا، وبما أنه لم يكن يميل للثرثرة والتهريج، فقد استبعدناه تلقائيًا من دائرتنا الصغيرة، حيث جلسات منتظمة كل صباح للنميمة والمزاح قبل الانغماس في زحمة الشغل. أخوتنا هذه هي ما شجعني على التفكير في شيرين كخطيبةٍ، مجرد خطيبةٍ، على أمل أن أستطيع إقناعها بلعب هذا الدور لبعض الوقت، ثم ننفصل مع الاحتفاظ بصداقتنا كما هي. ثم ألغيتُ هذه الفكرة تمامًا لما فيها من مهانةٍ لها.

كانت قد حكت لي قليلًا عن ظروفها المرتبكة، عن نشأتها في بيت عمّها بعد موت أبيها، ثم زواج أمها وسفرها إلى ليبيا. وكيف عادت أمها بعد سنين، عجوزًا وثريةً ووحيدةً بعد موت زوجها الليبي، تطالب باسترداد ابنتها الوحيدة شيرين. أرادت انتزاعها

من الحياة الوحيدة التي تعرفها، من بين عمها وزوجته وأولاد عمها الذين صاروا إخوةً لها، وخصوصًا أسماء الأصغر منها التي شاركت شيرين نفسها في تربيتها، وصارت مثل ابنتها وأختها. رفضتْ هي العودة إلى أمها رغم ما أغرتها به من أموالٍ ومعيشةٍ ميسورةٍ. رأت فيها امرأةً غريبةً، حتى لهجتها كانت تُضحكها. كنتُ مُطلعًا على تلك المشكلات التي احتدمت في الفترة الأخيرة، وقلتُ لنفسي ربما تكون خطوبتنا خطة هربٍ لها هي أيضًا، أو هدنةً مؤقتةً لكلٍّ منا. وبعد أن صرفتُ نظري عن الفكرة، وجدتُ نفسي أطلب يدها بعد أسابيع قليلةٍ من العرض المشين الذي قدمته لي ماما.

أذكر أنّا كنا في أحد المولات بمدينة نصر، نشرف على تنفيذ ديكور محل زهورٍ. كانت شيرين تتحدث إليّ عن أمورٍ تخص العمل، ولم أكن منتبهًا لما تقول، كنتُ أحملق فيها، ولا أسمع كلمةً واحدةً. لا بُدّ أنها شعرتْ بشيءٍ من الحرج، تحسستْ أنفها ووجهها، ثم سألتني:

هوووووه، رحت فين يا باشمهندس؟

ففوجئتُ بنفسي أقول لها:

باقولك إيه يا شيرين، ما تيجي نتجوّز؟

توقّف أقرب العمّال إلينا عمّا كان يقوم به، وانتبه ناظرًا إلينا فاشخًا ضبّه. كانت شيرين مُلتفةً في كميةٍ هائلةٍ من الصوف الملّون بألوانٍ دافئةٍ ومبهجةٍ، وأنفها أشد حُمرةً من ثمرة بنجرٍ. قلتها هكذا ببساطة، "ما تيجي نتجوّز"، كأنني أدعوها إلى فنجان قهوةٍ. اعتبرتني أمزح كعادتي، فلم تمتد دهشتها لأكثر من ثوانٍ معدودةٍ، كيلا أنتبه أنها ظنتني جادًّا ولو للحظات. فأجابتني بنبرةٍ جديةٍ مفتعلةٍ:

وليه لأ؟ فاضي بُكره؟

هنا ضحك العامل الأسمر ببلاهةٍ، كأنه يتابع فيلمًا كوميديًّا، فنظرنا نحوه معًا عابسيْن، فابتعد كاتمًا فمه بيده. كانتْ لحظةً ساذجةً ومرتبكةً، غير أنها قادتنا معًا دون أن نشعر نحو مصيرنا المشترك. قلتُ لها وعيناي فوق أنفها الأحمر الذي تزيّن أرنبته حسنة صغيرة للغاية كأنني اكتشفتُ وجودها توًّا:

خلاص، يبقى بُكره.

اختلط المزاح بالجد، لكننّا اتفقنا في نهاية اليوم على إعادة التفكير في المسألة خلال مُهلةٍ قصيرةٍ، حتّى تتأكّد من سلامة قواي العقلية. لم تكن بي حاجةٌ للتريث والتفكير، كنتُ أعلم أنني لو ترددتُ للحظةٍ، فسوف أتراجع وأهرب إلى الأبد، بحيث لن يستطيع أحدٌ العثور عليّ مرة أخرى، حتى أنا نفسي، وليتني فعلتُ.

(21)

أديتُ الدور الجديد بقدر ما استطعتُ من إتقانٍ، راسمًا ابتسامةً طيّبةً أُواري بها بقعة خوفٍ تتسع داخلي. كنتُ أستمدُ من حماسة أمّي وشيرين مزيدًا من الجرأة على مزيدٍ من التورّط. وكلما أرى مقدار سعادة ماما خصوصًا، يهون عليّ كل شيءٍ، وأقول لنفسي ما المشكلة لو أنني فعلت ذلك ولو من أجلها؟ حتى ولو تغيّرت حياتي كلها. أقول ربما، أقول لعلّ وعسى، وأتمادى في الاستسلام للرمال الناعمة تبتلع روحي ببطءٍ مع مرور كل يوم.

حتّى البرنس وجدتُه يشجّعني قائلًا إنني لن أكون أوّل ولا آخر

واحد من الحبايب يتزوج، سـواء تحت ضغـوط الأهل أو لإبعاد الشـبهات عنه، أو حتى بدافع رغبته البسيطة في الإنجاب وتكوين أسـرة مثل كل إنسـان آخر. أكّدتُ له من جديدٍ ما يعرفه من قبل عن عدم اشـتهائي النسـاء بأي درجةٍ، على عكس بعض الحبايب أو آخرين ممن يميلون للجنسـين. وحين وجدني أمسـح عن عينيّ ماءً سـاخنًا غلبني، نهضَ مقتربًا مني ووضع رأسي على صدره، وأخذ يربّت عليَّ. بقدر ما كان قريبًا ومتفهمًا، كانت الفنانة الكبيرة بدرية أمين بعيدةً وقاسـيةً، ورغم ذلك كنت أسـامحها كلما رأيتُ كيف اسـتعادت ابتسامتها سحرها القديم، واسترد صوتها عنفوانه، وجلجلت ضحكتها كالزغاريد.

بعد أن انتهت إجراءات فض الشركة مع مينا وسافر إلى إيطاليا، لم أجد شجاعةً كافيةً لفسخ الخطبة، ربما خوفًا من أثر الخبر على ماما، وربما خوفًا على شيرين نفسها، فقد كانت مثل طفلةٍ تذهب للمرة الأولى إلى مدينة الملاهي. أخيرًا سوف تترك بيت عمها، وتتخلّص من مطاردة أمها لها، وتلبس عروسة، ويكون لها رجلٌ وبيتٌ وأسرةٌ. لن أخدع نفسي إلى حد الاعتقاد بأنها قد رأت فيّ فارس أحلامها، بل لعلّها داست على شكوكٍ راودتها نحوي منذ يومها الأوّل في الشركة. نصحتها ابنة عمها أسماء الصغيرة العاقلة بأن تستفتي قلبها، فصلّتْ امرأتي الاستخارة، وقررت أن تجرّب حظها. كان الزواج بالنسبة لها ضرورةً، طريقةً للاكتمال وعيش

حياة طبيعية، بعد أن تجاوزت الثلاثين، وبدأت بدانتها تجاوز الحد المقبول، وقبل هذا كله كان مستواي الاجتماعي فُرصةً لن تعوّض بالنسبة لها. أعترف بهذا كلّه الآن، أمّا في مدينة الملاهي، فكانت النشوة البلهاء تسكرنا جميعًا، فطمست الخوف والريبة إلى حين.

حين تعرّفتُ على شيرين، بعيدًا عن زمالة العمل والمزاح البريء، اكتشفتُ إنسانةً نادرةً، اهتمامها بمن حولها يغلب كل شيءٍ آخر داخلها، لا تطيق رؤية شخصٍ مهمومٍ أو متعكّر المزاج، فتعطي نفسها عن طيبِ خاطرٍ، حتى ترد له ابتسامته. أحيانًا كنت أشعرُ أنها تشبهني كأنها أختي، وتوهمتُ في أحيانٍ أخرى أنني أحبها، بطريقةٍ ما، غير حب الرجال للنساء. ربما أحببتُ دعابتها الحاضرة، وضحكتها السهلة، وشخصيتها المقتحمة للحياة ببساطةٍ وثقةٍ، لكنّ جسدي لم يكن يحترق عند الاقتراب منها، ولا ترتعش أصابعي لو أمسكت يديها. نما بيننا شيءٌ آخر، أبعد ما يكون عن أوهام الحب، رفقة سفر، مسؤولية محبوبة، شيء يبدو في ظاهره جادًا لكن حقيقته أقرب إلى اللعب البريء. وراقت لي اللعبة، خصوصًا بعد أن تبدّلت نظرة الآخرين لي بمجرد إعلان الخطوبة كأنني تحوّلتُ مخلوقًا أرقى، غير أن المزحة كانت تقترب من الجد بسرعة، حتّى نظرتُ إلى دبلة الخطوبة في إصبعي ذات صباحٍ، فعاودتني أوّل نوبة هلعٍ، بعد زوالها تمامًا منذ سنواتٍ.

ومع نوبات الذعر، عادت لزيارتي أحلام الامتحانات بتنويعاتها المختلفة. أرى نفسي مذعورًا، وقد تأخرتُ على موعد الامتحان، أو جالسًا في اللجنة أحدّق في ورقة الأسئلة دون أن أستطيع قراءتها أو فهم كلمة واحدة منها، وإذا فهمتها لا أستطيع العثور على الأجوبة الصحيحة، وإذا عرفتُ الأجوبة الصحيحة، أجد قلمي قد فرغ من الحبر، ولا يمكنني أن أكتب كلمةً واحدةً. أظهر في بعضها كبيرًا في السن برأس تقاسمه الصلع والبياض، بينما أرى كل الممتحنين أولادًا صغارًا، مستغرقين في تسويد كراسات الأجوبة. ثم عادت كوابيس العناكب مثل مسافرٍ طال غيابه، فتمزّق نومي ليلًا، وتذبذبت أعصابي نهارًا، كأنني أسير على حافةٍ عاليةٍ طوال الوقت.

وضعَ البرنس لي خطةَ طوارئٍ عاجلةً، بدأناها باللجوء إلى طبيبٍ نفسيٍّ اسمه سميح، ليس من الحبايب وإن كان قريبًا من عالمنا، ومتفتحًا فلا يرى مثل أغلب أهل مهنته في المثلية مرضًا يستوجب العلاج، وإن لم ينكر ما نتعرض له من ضغوط تمنعنا من قبول حقيقتنا والتعايش معها. نصحني بأن أفكّر مرةً واثنتين وثلاثًا، قبل أن أخضع لهذا الامتحان الصعب. وحينما أدرك أنه لا سبيل للتراجع، علّمني بعض تمارين الاسترخاء والتنفس، وأوصاني بممارستها يوميًّا لثلث ساعة على الأقل. ثم انتقلنا إلى تمارين تخيّل، أتصوّر فيها نفسي مع شيرين، ونحن نضحك ونلعب ونتلامس، ثم نتبادل مداعباتٍ وقبلاتٍ، وندخل في أوضاعٍ جنسيةٍ لطيفةٍ،

حتى تثيرني خيالاتي تلك، لم أكن مقتنعًا، وربما هو نفسه لم يكن مؤمنًا بتجاربنا تلك، لكننا مضينا فيها للنهاية. ثم كان عليّ أن أبدأ الاقتراب من شيرين جسديًا لأغذّي خيالاتي تلك. وعندما خطفتُ منها قبلةً لأول مرةٍ، رأيتُ ابتسامةً غريبةً على وجهها، ونظرةً بين الدهشة والطمأنينة، كأنها تقول أخيرًا يا مغفل! ثم تبادلنا قبلةً أخرى طويلةً، فأحسستُ بدرجةٍ طفيفةٍ للغاية من الإثارة، فهتفتُ في سري إن ربنا قادر على كل شيءٍ.

ثم كان علينا الانتقال إلى المرحلة التالية والحاسمة من الخطة، وهي الممارسة الفعلية الكاملة مع امرأةٍ ما، فابتعدَ د.سميح عن الصورة وحانت مهمة البرنس، فأخذني إلى امرأةٍ من معارفه تُدعى طانط كيما. كان اسمها الحقيقي كاميليا، ولكن من فرط غرامها برشدي أباظة، أطلقت على نفسها هذا الاسم الذي كان يردده كثيرًا في فيلم الرجل الثاني، حالفًا به: (وحياة طانط كيما اللي عمري ما أحلف بحياتها باطل). كانت سيدةً طيبةً وأنيقةً على طريقة مذيعات التليفزيون المصري. وكان عليّ أن أختار صاحبة النصيب من ألبوم صور على كمبيوتر. رُحنا أنا وهي والبرنس نستعرض الصور، ونحن نضحك، ونعلّق بكلام سخيفٍ على البنات. اخترتُ فتاةً غليظة الملامح رغم شقرتها وزُرقة عينيها، لها جسد أقرب إلى الرجال. وأتت آمال في اليوم التالي بعد الموعد المحدد، وعليها آثار النعاس رغم أن الوقت ليل. لم تدم تلك المرة الأولى أكثر من دقائق

معدودةً، فعلتْ آمال كل ما يلزم حتى أثارتني، وربما أسرّت لها طانط كيما بطبيعة مشكلتي. ما إن قذفتُ حتى تجنبتُ النظر إليها، وهربتُ إلى ثيابي خجلًا من نفسي، ومنها، ومن صور المناظر الطبيعية المعلقة على الجدران.

خلال الشهر السابق على زفافي، نمتُ مع آمال مرتين تقريبًا كل أسبوع. خنتُ شيرين من قبل أن أتزوجها حتى، خنتُها فقط؛ لأتمكن من النوم معها دون عقبات. كانت آمال الطويلة والعريضة تحتويني بين أطرافها الأربعة وكأنني طفلها البدين، وقلتُ لنفسي إنه لولا زرقة عينيها وشقرة شعرها الطبيعية على ما يبدو، لما كانت قد وجدت رزقًا في هذا المكان بهذا الجسد العملاق.

ظللتُ أسبح في شلّالٍ من الأطعمة البحرية والحَمَام وأصناف اللحوم وغيرها من المأكولات الجهنمية، إلى جانب بعض الفيتامينات والمقويات، لمجرد أن أفرّغ نتاج هذا كله بين ساقيّ آمال. وفي كل مرةٍ، قبل أن ألقي بالعازل الطبي في السلة الصغيرة بجوار الفراش، كنتُ أنظر نحوه نظرةً سريعةً، متأملًا المنيَّ بسرعة، لونه، كثافته، كميته، وأنا أتساءل هل يستطيع هذا الماء المهين أن يجتاز الامتحان، وأن يصل إلى الأجوبة الصحيحة، أم ستلعقه أنثى العنكبوت دون اهتمام قبل أن تلتهمني؟ لم تفارقني الهواجس المخيفة بالرغم من ذلك كله، فشيرين عذراء، وليست

محترفــةً مُدرَبةً مثل آمال التي تفعــل اللازم لأفلح معها. كما أنني لا بُــدّ أن أظهر أمامها بمظهر الرجل الكامل الواثق من كل حركةٍ ولمسةٍ، حتى لا يساورها أيُّ شكٍّ.

كانت شقة جاردن سيتي تتلوّن وتتجدّد وتشرق بأضواء الفرحة والثياب الجديدة والهدايا والعطور. وفي كل مكانٍ كنتُّ أنا وشيرين نتلّقى التهاني والدعوات والأحضان والقبلات. كنتُ مثل عِجْلٍ يتم تسمينه ليُنحر أضحيةً على مذبح أمه والمجتمع والمظاهر، وأكّدت بدانتي المتزايدة هذا الإحساس لي، كلّما تطلعتُ في مرآةٍ، وعلى عكس صورة جسدي كنتُ أتخيّل روحي تتحوّل إلى شبحٍ هزيلٍ ملفوفٍ في ملاءاتٍ بيضاء، ترتسم عليها بقعٌ لزجةٌ راحت تتسع، وتمتد مثل بيوت العناكب.

(22)

بعد خروجي من السجن بنحو عشرة أيام، أخبرتُ البرنس برغبتي في رؤية ابنتي بدرية الصغيرة. كان ذلك قبل أن أبدأ رحلة العلاج والكتابة، وأتجرأ على الخروج من غرفة الفندق كل مساءٍ في جولات بلا هدفٍ.

بعد أن اتصل البرنس بشيرين وحدد موعدًا، ركبني الخوف والتردّد، وظللتُ مترددًا بينما كانت سيارة البرنس تمضي بنا بطيئةً في زحام وسط المدينة. لم أستطع أن أعرف كيف سأواجه شيرين بعد كل ما حدث، لم أرها في أثناء المحاكمة إلّا مرةً واحدةً في أولى الجلسات، قبل أن يقع الطلاق بأسابيع.

دخلنا من طريق الكورنيش إلى جاردن سيتي، ورغم أنني لم أغب أكثر من بضعة شهورٍ، فقد أوشك البكاء أن يغلبني وأنا أرى الأبنية المألوفة للحي الأنيق وأشجار الشوارع. بعد أن توقفنا أمام العمارة تجمّدتُ في مقعدي إلى جوار البرنس، فسألني:

تحب أطلع معاك؟

فأومأتُ له برأسي في حركةٍ سريعةٍ، مُمتنًا لاقتراحه. وبينما أطمئن على وجود القلم والدفتر الصغير في جيب سترتي، سمعتُ الصوت الحبيب يصيح:

بابا بابا.

التفتُّ، وقد انزاح عني كل تردد فجأةً. كانت بدرية الصغيرة، بسنواتها الخمس وشَعرها المهوّش يحيطُ برأسها المدوّر مثل هالةٍ سوداءَ لامعةٍ، تنتظرني أمام العمارة، وتحاول الإفلات من يد مُربّيتها. دون أن أفكّر ولو للحظةٍ فتحتُ باب السيارة، وهُرِعتُ إليها، التقطتها بين ذراعيّ، ورفعتُها وقبلّتُ كلّ موضعٍ طالته شفتاي من وجهها ورأسها، ورغم تماسكي أفلتتْ دموعي ونحن في مدخل العمارة. رفعتْ بدرية النظّارة الشمسية عن عينيّ ببساطةٍ، ومسحت دموعي:

ما تعيّطش يا بابا، هتخف وهترجع تتكلم تاني، أنا بادعي لك

ربنا كل يوم. مش أنا لوحدي أنا وسُميّة، مش كده يا سُميّة؟

فقالت الدادة، وهي تضغط زر استدعاء المصعد:

كده يا روح سُمية.

همست بدرية في أذني وأنا مازلت أحملها في المصعد وهي تختلس النظر نحو البرنس:

مين ده يابابا؟ صاحبك؟ جدو سلاَّم عندنا هو كمان.

صحيح، لم أعد زوجًا لشيرين، ولذلك لا بُدّ من حضور أحد أقاربها لقائي بها، أو ربما لدى العم الطيّب كلامٌ يريد توجيهه لي، تصفية حساباتٍ من نوع ما، أو اعتذارٌ غيرُ مباشرٍ عن الطريقة التي اتبعوها في طلب الطلاق. تحرّك المصعد، وبدرية لا تتوقف عن الهمس في أذني بما جرى لها خلال غيبتي عن البيت، وعن الفترة التي قضتها مع أمها في بيت جدّها سلاَّم، واللعب في الشارع تحت البيت مع العيال هناك. ضحكتْ بعد أن قالت شيئًا عن صديقةٍ لها تعرّفت عليها هناك، فسمعتُ في ضحكتها صدى بعيدًا من ضحكة العزيزة الراحلة، أمي بدرية الكبيرة، صدى كأنه الانطباع الغامض الذي يتبقى من الحُلم.

فجأةً، وجدتني في بيتي، البيت الذي عشــتُ فيه سنواتٍ، أكلتُ، وشــربتُ، ونمتُ، ضاجعــتُ امرأتي على قدر همّتي وشــهيتي،

وسهرتُ على راحة أمي وودّعتُ جثمانها، وحملتُ جثة خالتي من الحمّام إلى السرير، وقرأتُ، ورسمتُ، وخططتُ لحياتي، وسمعتَ آلاف الأغنيات، وشاهدتُ مئات الأفلام والبرامج، وضحكتُ، نعم أذكر جيدًا أنني كنتُ أضحكُ كثيرًا لأتفه الأسباب. فأين ذهبَ المُهرِّجُ البدينُ؟

صافحني الحاج سلاّم، عم شيرين، واحتضنني بمودةٍ غريبةٍ على الموقف، مُربتًا على ظهري بحنو الأب العجوز، فبدا وكأنه يعزيني، فتساءلتُ تُرى من الذي توفّي؟ قدّم البرنس نفسه مُستبقًا خَرَسي، فاستقرت عينا الحاج سلاّم على وجه البرنس أكثر قليلًا مما يلزم بعد المصافحة، كأنه يحاول أن يكتشف شيئًا مخفيًّا وراء الوجه الأحمر بارز الوجنتين والعينين الرماديتين تحت الحاجبين الأبيضين، يحاول أن يتلمّس أمارةً ما، دليل إدانةٍ، وربما أحبّ أن يتأمل ذلك (البرنس) الذي سمع عنه كثيرًا في الفترة السابقة.

قادنا إلى الصالون، كأننا في بيته. بالداخل كانت تنتظرني صور ماما وغيرها من الراحلين، موزعةً كما كانت في نسقٍ جميلٍ على ثلاثة جدران من حولنا. لم يتغيّر شيءٌ، وتغيّر كل شيءٌ مع ذلك. استأذن البرنس في النهوض، مؤكدًا لي أنه سوف ينتظرني في مقهى قريبٍ من البيت كما اتفقنا ونحن في الطريق. حين ذهب، أحسستُ أنني عاري الظهر، فتشبثتُ ببدرية وكأنها طوق نجاتي

الوحيد. عرفتُ الآن مَن المتوفى، إنه أنا، فكأنّ روحي عادت بعد أن متُّ ودُفنتُ؛ لتلقي نظرةً أخرى على الأحباء ومساكن حياتها المفقودة. تمنيتُ لو كان بوسعي أن أغمض عينيّ، وأفتحهما، فأجدُ كل شيءٍ وقد عاد كما كان قبل نحو عامين اثنين فقط، أنا وأمي وشيرين وبدرية والحياة مثل أغنية أطفال، ما إن تنتهي حتى تنبعث من جديد.

نظرتُ إلى صورةٍ كبيرةٍ من صور زفافي أنا وشيرين، واستعدتُ في ثوانٍ معدودةٍ رعبي يومها، الذي استعنتُ عليه بجرعاتٍ مُختلسةٍ من بطحة كونياك في جيب سترتي، وعندما أحسّتْ بها شيرين بينما نلتقط لنا صورًا في شرفة جناح الفندق المطلّ على النيل، تساءلتْ وأخرجتُها ببساطةٍ، وتجرّعت منها أمام صاحباتها وقريباتها، فأطلقتْ إحداهنَّ زغرودةً. كنا أقرب إلى بهلوانين في ذلك اليوم، نمرحُ ونهرّجُ مع الجميع، رقصنا مع فيفي عبده على أغنيات حكيم، والتقطنا عشرات الصور مع عشرات النجوم والمدعوين، وصعدنا إلى جناحنا منهكين.

قبل طلوع الفجر، اشتبكنا أخيرًا، وبعد محاولتين أو أكثر استطعتُ أن أفض بكارتها، مستدعيًا خبرتي قصيرة العمر مع آمال، وصورًا من ممارساتٍ مُتخيَّلةٍ مع بعض الفنانين الذي زينّوا ليلة العرس الزائف. كانت نعومة شيرين كامرأةٍ أشد مما أحتمل.

استرحتُ حين رأيتُ قطرات الدم فاتحة الحمرة، وارتعشتُ كذلك خوفًا، كأنني جرحتُها دون قصدٍ، لكنها راضيةٌ، تعفو وتصفح. كنتُ مثل قاتلٍ يرقد إلى جانب ضحيةٍ تحدّق في السقف بعينين مُسبلتين على جوعهما. الآن أتى المُجرم ليكتمل عقابه.

تهربّتُ مما ينتظرني، وتعلقتْ عيناي بصورةٍ كبيرةٍ وقديمةٍ لأمي في صدر الصالون. ألم تشارك هي أيضًا في الجريمة، ولو بحسن نيةٍ ومحبةٍ؟ هل يعفينا الجهل من الذنب؟ كانت تبتسم على الجدار، وهي واقفةٌ وقفةَ غوايةٍ أنيقةً، بين يديها باقة زهورٍ كلها بيضاء، الزهور التي لم تذبل منذ أكثر من خمسين عامًا. لاحظتْ بدرية نظرتي، فأسرعت تقول لي وهي تدير ذقني نحوها:

على فكره، أنا خلاص قررت. هاكون ممثلة مشهورة زي تيتا، يعني هابقى بدريه نمبر تو... وهيَّ بدريه نمبر وَن، إيه رأيك بقى؟

أخرجتُ دفتري الصغير بسرعةٍ، وكتبتُ لها:

بدريه نمبر تو هتبقى أحلى وأعظم ممثلة في العالم كله.

قرأ لها جدّها سلاّم المكتوب في الورقة بأداءٍ مسرحيّ مفتعلٍ، ثم نزعتْ هي الورقة من الدفتر، وذهبت تجري، وهي تنادي على سُمية.

ثم دخلت شيرين، فتطلعتُ نحوها ساهمًا كأني لا أعرفها.

ثيابٌ شتويةٌ محتشــمةٌ داكنة الألوان، وطرحةٌ كحليةٌ بسيطةٌ، وبلا أي مســاحيق. كنتُ أعرفُ أنه الحداد. تركنا الحاج ســلّام، بعد أن أتت سُــمية بالقهوة، وأخذت بدرية، إلى غرفتها بعد بعض التذمّر والعناد.

كتبتُ بسرعة لشيرين:

عُمري ما هاسامح نفسي على أي حاجة حصلت لكم بسببي.

تأملتُ الورقة للحظةٍ قبل أن أناولها لها، بدا خط يدي مهزوزًا كأنه لطفلٍ تعلم الكتابة منذ أيامٍ معدودةٍ. ارتعدتُ وأنا أشهدُ شيرين تكافح مع الكلام، هي التي كانت على الدوام حاضرة الجواب، تتلعثم الآن لتبدأ حديثها. نهضتْ، وسحبتْ باب الصالون الجرّار، فكأنها تعزلنا عن العالم بكل ما فيه، واقتربتْ مني دون تردد، ووقفت بجانبي وصفعتني بحدّةٍ، ثم قالت وهي تشهق بالدموع:

كنت بتتجوز ليه؟! كنت بتخلّف ليه؟! حرام عليك يا أخي، حرام عليك!

آلمتنــي صفعتُهــا أكثر من كل ما لاقيته فــي الحبس من مهانةٍ وأذًى، مجرد لمســة يدها على خدّي بهذا الغيظ، جعلني أدرك في ثوانٍ كل ما تحمّلته بســببي، بعد الفضيحة أو قبلها. كان كلانا يبكي فــي صمت، بعيدًا عــن الآخر. ثم اقتربتْ مني وتناولتْ رأســي،

وأراحته على كتفها بكل بســاطة، وأخذت تمسّــد كتفي كأنها الآن أمي، حتى هدأنا قليلًا. حين أخرجتُ علبة سجائري تناولتْ واحدةً، وأشعلتها لنفسها، وهي تقول:

بدأت من ساعة اللي حصل، سيجارة كل فين وفين.

ثم انطلق لسانُها، وأخذتْ تتصيّد من هواء الغرفة الدافئة الكلام الذي ادّخرته داخلها طيلة الشهور الماضية. تكلمتْ عن اضطرارها لطلب الطلاق، بعد نشر اسمي وعملي في الصحف، وعن لجوئها إلى الإقامة في بيت عمّها فترةً طويلةً، حتى أحسّت أن الناس هنا نسوا الفضيحة تقريبًا. قالت إنها كانت تسأل نفسها ليلَ نهار، هل فيها أيُّ عيبٍ كامرأةٍ؟ ولو لم يكن يعيبها شيءٌ، فما الذي دفع هاني لطلب الزواج منها وهو لا يرغبها؟ ثم قالت إنها لا تعفي نفسها من المسئولية أيضًا، فقد أخطأتْ حين تجاوزت شكوكها. مهندس ديكور دمه خفيف، وأمه ممثلةٌ كبيرةٌ، ومستورون، وأنا... أنا في النهاية لا شيء، كل رأسمالي لساني ونباهتي، نباهتي التي لم تسعفني، لأكتشف من البداية أن هناك شيئًا غير صحيح. طول سنين حياتنا معًا وقفتْ لشكوكها بالمرصاد، تنكر، وتتغافل، وتتجاهل كل أحاسيس الأنثى بداخلها، وغريزتها التي لم تخب يومًا.

قالت أيضًا إنها أحسّتْ بشعوري نحو عبد العزيز منذ ذلك اليوم الأول تقريبًا، يومَ خطوبته على بنت عمها أسماء. أحست أن

حالي تبدّل، كأن نور وجهي كان يضيءُ بكهرباء مُستمدةٍ من عبد العزيز، وينطفئ بانقطاعها عني. كانت تشعر، وتكذّب شعورها، من قبل القبض والقضية بشهور، ومن قبل أن يُفضي عصام، ابن عمها، بما رآه بيني وبين عبد العزيز في الإسكندرية.

بعد القبض عليّ، انهارت الكذبة أخيرًا، لم يعد أمامها فرصةٌ للتمادي في الإنكار، ثم نطق عصام بما لديه، واكتملت الصورةُ. ومع ذلك، قالت إنها عاندتهم ورفضت الطلاق في البداية، لكنها عادت، وتراجعت خوفًا على بدرية التي لا ذنب لها في هذا كله، ولأنها عرفت أن استمرار زواجنا صار مستحيلًا، حتى لو حكموا ببراءتي. وفوق ذلك كله، أرادت مني أن أكرهها كما كرهتني هي، لذلك طاوعتهم في طلب الطلاق. أرادت أن تصفعني كما فعلت منذ قليلٍ. لكنها الآن فقط تستطيع أن تسامحني، فمهما كان ذنبي لا أستحق كل ما حدث لي، ولأنني والد بدرية، وسوف أبقى كذلك. طوينا الصفحة بهدوءٍ، وتمنيتُ لها كل خيرٍ، وأنا صادقٌ، وقلنا لبدرية إنني أتعالج في مستشفى؛ حتى أستعيد قدرتي على الكلام.

نزلتُ من عمارة ماما نحو التاسعة مساءً، وبين يديّ كرتونةٌ فيها بعض أشيائي، سلّمتُ بسرعةٍ وارتباكٍ على عم سعد البوّاب، أسرعتُ أسير كالمطارَد نحو المكان الذي اتفقتُ مع البرنس على اللقاء فيه، غير أنني لم أجده هناك. تلفتُ يمينًا ويسارًا، وأنا أمسح بعينيّ

وجوه الزبائن، وضعتُ الكرتونة بجانبي أمام المقهى، وأحسستُ بالضياع والاختناق. لم أدرِ هل عليَّ أن أجلس في انتظاره أم أستقل عربة أجرةٍ للفندق؟ هاجمني اللهاث من جديدٍ، وشككتُ في قدرتي على أن أرفع قدميَّ عن الأرض، استندتُ إلى جدار، وحاولتُ أن أتماسك. ماذا سيكون رد فعل سائق التاكسي حين أكتب له عنوان الفندق في ورقةٍ صغيرةٍ؟

للحظةٍ فكّرتُ أن أعود إلى بيتي، إلى شيرين التي لم تتركني أذهب حتى طيّبتْ خاطري، بعد أن أفرغتْ حمولةَ شهور النقمةُ والسخط والكرب، أعود لأرجوها أن تتصل بالبرنس. بدلًا من ذلك، أخرجتُ موبايلي القديم الذي لم أكد أستعمله منذ خروجي، وقبل أن أجد رقم البرنس؛ لأكتب له رسالةً والدموع تتجمّع في مقلتيّ، أحسستُ بيده تستقر على كتفي، فجفلتُ، وارتجّ جسمي كله، وحين التفتُ، ورأيتُه، أردتُ أن أنهره وأشتمه وألكمه في صدره، لكنني بدلًا من ذلك ارتميتُ في حضنه، وكأنه لم يتركني منذ ساعتين أو ثلاث. قال معتذرًا إنه اضطر لتغيير مكان إيقاف سيارته؛ ليسمح لسيارةٍ أخرى بالتحرّك. لم أهتم بما قاله، أشرتُ له فقط أن نذهب من هنا بسرعةٍ، بسرعةٍ.

لولا البرنس لضعتُ، الآن أو في السجن أو منذ سنين، طوال الوقت كان موجودًا، مُتاحًا، يكفي أن أناديه، أو أتصّل به حتى

يحضر. ورغم ذلك، فقد كنتُ أنساه بالشهور عندما لا أكون بحاجةٍ إليه، وحين أتذكّره فجأةً وأمرّ به في أماكنه، كان يكتفي بلومي مبتسمًا في عتابٍ، كأنه عمٌّ كهلٌ لا يدوم زعله طويلًا، وقد زاره ابن الأخ أخيرًا. لا ليس عمًّا، لعلّه الأب الوحيد الذي عرفتُه في حياتي، وربما يكون هو نفسه ذلك الشيخ الذي كنتُ أبحث عنه وأنتظر ظهوره وأنا مراهق عند خروجي من الجامع بعد صلاة الفجر، الفارق أنه لا يستطيع أن يُعيد خلقي من لا شيء، ماحيًا بجرّة قلم سماوي كل ما يلوثني. لا يستطيع، ولا يريد. ما زال يعاند الزمن، ويتجاهل وطأة السن في اختيال طاووسٍ عجوزٍ، محاربًا بعطوره الثمينة تلك الرائحة الكريهة التي حُكم به عليها منذ سنواتٍ. ويرعى الحبايب بكل ما أُوتي من نفوذٍ وعلاقاتٍ وخبرةٍ، ولو اضطر إلى خوض حروب هو في غنًى عنها. لو أنني أستطيع فقط أن أكون مثله، ولو لبدرية الصغيرة فقط. أن أكون أنا هذا الشيخ الطيّب الذي يمحو العبوس ويمنح السكينة والأمان. لكنني أبعد ما يكون عن ذلك، كل ما أقدر عليه الآن هو أن أراقب الناس والدنيا من وراء نظارةٍ سوداء، فتبدو بعيدةً وغريبةً عني، تمامًا مثل مشاهد حياتي التي تجرّ بعضها بعضًا الآن على هذه الصفحات.

في الكرتونة التي حملتها من بيتي، وجدتُ صورًا فوتوغرافية كثيرةً، منها صورة لي مع عبد العزيز وحدنا على شرفة شاليه العجمي، لا أذكر الآن من التقطها لنا. هل هي مصادفة أم وضعتها

شيرين بين هذه الصور عن قصدٍ؟ كان يحيط كتفي بذراعه القوي، ويبتسم في غطرسةٍ مطمئنةٍ، بينما تبدو على ملامحي فَرحةٌ هشّةٌ مثل كذبة أبريل.

(23)

منذ أن وقعت عليه عيناي، لم أعد أنا، أذكر أن شيرين لاحظتْ تغيّري منذ اللحظة الأولى، فسألتني أكثر من مرةٍ ليلة حفل خطوبة عبد العزيز وابنة عمها أسماء:

مالك يا هاني؟

اعتادتْ أن أكون صانع البهجة في مثل تلك المناسبات، فأرقصُ، وأشجّعُ الآخرين على الرقص، لكنني ما إن رأيتُ العريس ليلتها، يدخل قاعة الفرح مُحاطًا بأبهة الزفّة وضجيجها، وهو يتأبط ذراع أسماء، حتى انغرستُ في مكاني، ووجدتني أميل برأسي متأملًا

ذلك الرجل كأنه كائنٌ غريبٌ. كنتُ قد قلتُ لنفسي إنني كبرتُ وعقلتُ، ظننتُ أنني خلاص جرّبتُ كل شيءٍ، وكم كنتُ ساذجًا.

لم يكن جوع الجسد، فقد خمدَ البركان منذ زمنٍ، وتحوّل مع دخولي الأربعين إلى نبع يسري بطيئًا، ربما يفور في مواسم غير منتظمةٍ، وسرعان ما يهدأ ويهمد. قنعتُ باللقاءات المتباعدة أخطفها سرًّا من حينٍ لآخر، ممارساتٌ سريعةٌ مع آخرين يشبهونني في الظروف، غير طامعين إلا في قُرص مسكّنٍ لوجعهم، دون أي التزام أو تورّطٍ، ثم نعود بعده للنوم، مطمئنين إلى مسار حياتنا المعلنة المحترمة. ظننتُ أني بلغتُ بر الأمان، وكم كنتُ ساذجًا، وارتعبتُ أمام الوحش الغريب الذي سمعتُ به طول عمري دون أن ألتقي به، حتى اعتبرتُهُ خرافةً، وسخرتُ ممن يتحدثون عنه. وكان الوحش ليلتها فاتنًا بقدر ما كان مخيفًا.

عدنا يومها أنا وشيرين في وقتٍ متأخرٍ، صامتينَ ومتعبينَ قليلًا، وأحسستُ بينما أقود السيارة تائهًا أن جسدي مُكسّرٌ ومضعضعٌ، كأنني مضروبٌ علقةَ موتٍ. في البيت، اطمأنّتْ شيرين على بدرية الصغيرة، ثم عادت، ووقفتْ تخلع حجابها وفستان السهرة الأسود اللامع الذي ضاق عليها قليلًا. أخذتُ حمّامًا سريعًا، ثم عدتُ للفراش بثياب النوم، وأنا أحمل ألبومات صور قديمة. أحدها يمتلئُ بصورٍ عديدةٍ لأبي في صباه وشبابه، وقعدتُ أتصفحه. أحسستُ

بنظرة شيرين المستفهمة، ناديتُها متظاهرًا بأنني أريد إشراكها في لغزٍ صغير:

تعالي بُصي يا شيري، مش فيه شبه بين عريس أسماء وبابا اللـه يرحمه؟

لم ترَ الشبه واضحًا كما أحسستُه، فأخذتُ أسوق لها الأدلة والصلات، أشرتُ إلى الوجه المربّع والصدغ العريض، الأنف المجنح مثل أنف جمال عبد الناصر، وبالطبع الشارب الكث الذي يكاد يخفي الشفة العُليا. تجاوبتْ هي مع اللعبة، وعلّقتْ مازحةً عن شقاوة أبي في شبابه، وغرامياته التي ربما تكون قد وصلت حتى المنيا، وتسلقت أسوار بيت عائلة العريس الكبيرة هناك، ثم همستْ مبتسمةً وهي تحل أعلى أزرار بيجامتي:

الحمد للـه إن ابنه الوحيد طلع عاقل. ولاّ إيه؟

حاولتُ أن أنتهي بسرعةٍ، لكّني ارتجفتُ طويلًا فوقها لا أدري لماذا. لم أستطع إبعاد ذلك الشيء الغريب الذي حلّ بجسدي، كان يدقّ بابًا في داخلي بإلحاح طفلٍ حبيسٍ في مكان ضيّق ومُظلم. جفاني النوم بعد أن انخرطتْ شيرين في غطيطها الخافت المتقطّع الذي اعتدتُ إيقاعه. عندما تناهتْ إليّ أدعية الفجر، مسموعةً بالكاد، من غرفة ماما، فكرتُ أن أقوم فآكل شيئًا؛ لعلّي أستطيع النوم. حين خرجتُ من المطبخ، رأيتُ ماما في طريقها إلى غرفة نومها، تتوكّأ

على عصاها، وقد تأهبتْ لصلاة الفجر، وأخذت تهمهم ببعض الأدعية التي صارت تحفظها بنفس مهارة حفظ سطور أدوارها فيما سبق:

بسم اللـه الذي لا يضرٌّ مع اسمه أذى، بسم اللـه الكافي، بسم اللـه المعافي، بسم اللـه الذي لا يضرٌّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

خَفَتَ صوتها مبتعدًا. لسببٍ ما لم أبادرها بالكلام أو أنبهها إلى وجودي. وقفتُ هناك أراقب خطواتها الصغيرة الصبورة، وأردّد وراءها ما يصل إلى سمعي من كلمات دعائها الهامس. إلى أين تذهب القوة حينما تغادرنا؟ وكيف يتبدد الجمال كأن لم يكن؟ أهذه هي النمرة التي طالما بثّت فيّ الروعة والإجلال؟ لم أتحرّك إلا بعد أن بلغتْ هي باب غرفتها، وأغلقته من ورائها، وانقطع خيط دعائها. ثُم نمتُ على الفور نومًا عميقًا، وبلا أحلام.

بعد أيام، حاولتُ أن أنسى خلالها ذلك العريس دون جدوى، دُعينا لتناوُل العشاء مع الخطيبين لنتعارف كما يجب. التقينا في مطعمٍ أنيقٍ على كورنيش الزمالك، كان من الواضح أن عبد العزيز يرتاده بانتظام. بذلتُ كل جهدي لكي أبدو طبيعيًّا، لكن لساني انعقد وانحشر الكلامُ في حلقي، حتى خشيتُ أن يعتبروا هذا علامة ضجرٍ وتأفُّفٍ منهم. رفعتْ شيرين عن كاهلي العبء حين وجدتني صامتًا

على غير العادة، وأغرقتهما بالأسئلة والنصائح حول المستقبل. تابعتُ الحديث شاردًا، بالحد الأدنى من التعليق أو التدخّل، مستمتعًا بمجرد إنصاتي إلى صوته ذي الرنين، فانتبهتُ لأول مرةٍ إلى لثغته الخفيفة في نطق حرف الراء، كأنها ياءٌ، ما أضفي عليه لمسةً صبيانيةً تناقض طلعته ذات الفحولة الصعيدية الناضحة.

تابعتُ حديثهم عن كتابات أسماء التي كانت سببًا في التعارف بينها وبين عبد العزيز، في سياق عمله مُحرّرًا في الصحيفة التي فتحتْ إحدى صفحاتها لآراء الشباب، إلى جانب مهامه ومسئولياته الأخرى الكثيرة. كان يبدو نجمًا صاعدًا في عالم الصحافة والإعلام، وكان يمرر ما يوحي بذلك في إشارات مدروسة بذكاءٍ، ناشرًا ابتسامة تواضع لا تفلح في إخفاء إعجابه بنفسه. خمّنْتُ أنه تجاوز الثلاثين، دون أن أستطيع تحديد سنّه بدقةٍ، لكنه كان يكبر أسماء ببضع سنين ولا شك. عائلته من الضباع ذات التاريخ الوحشي، كما سأعرف من البرنس فيما بعد. عائلة هي أقرب إلى شبكةٍ واسعةٍ، مركزها المنيا، وأطرافها في كل مصر، أغلب رجالها من ذوي المناصب والرُّتب ما بين الجيش والشرطة والقضاء، وبينهم أيضًا رجال أعمال من أعمدة الحزب الوطني. لكنه لم يذكر ذلك لا على العشاء ولا فيما بعد، إلا في اقتضابٍ وضيقٍ، كأنه يُخجله الانتماء إليهم، ويودّ لو يُغفَر له ذلك.

ربما يكون قد لاحظَّ ما ينمّ عن توتري، أو التقط إحدى نظراتي المختلسة نحوه، فتصدّق عليّ بابتسامةٍ رسميةٍ، وأخذ يفتح الحديث معي عن أمورٍ مختلفةٍ لا رابط بينها، طبيعة عمل شركتي والأوضاع الاقتصادية عمومًا، حتى إنه انتهى إلى كرة القدم. وفي كل مرةٍ، لا أُبدي الاهتمام الكافي لمواصلة الحوار، يصمتُ، أو يوجّه حديثَهُ إلى خطيبته وزوجتي. كنتُ حريصًا في شرب النبيذ الثمين، كي لا تُفلت مني إشاراتٌ لستُ مستعدًا بعد لعواقبها. وحين كنتُ أصافحه أمام سيارتي، نظرتُ في عينيه بكل جدِّيَّةٍ كأنني أستأمنه على سرٍّ، دون أن أنطق بشيءٍ، ضاقت ابتسامته، وقطّب حاجبيه، كأنه يواجه أحجيةً.

لأيام، ظللتُ أستعيدُ ما جرى خلال العشاء، ما قاله وما فعله، وهل حقًّا بدرتْ منه ابتسامةٌ موحيةٌ لشابٍّ ناعم من خَدم المطعم، أم تخيلتُ ذلك؟ ملعونةٌ أرجوحة الشك. متى وكيف يمكنني أن أقابله مرةً ثانيةً؛ لأحاول على الأقل تغيير انطباعه عني. وأعود فأقول إن عليّ أن أتماسك، إذا كنتُ قد بدأتُ طريق خيانتي لنفسي منذ زواجي فلا بُدّ أن أسير فيه حتى النهاية. لم أعد ملكًا لنفْسي، هناك شيرين الآن، والأهم منها ومني بدرية.

لم أتخيّل يومًا أنني قد أستمتع بإحساس الأبوّة. حين حملتُ بدرية الصغيرة لأول مرةٍ بعد ولادتها بساعةٍ أو أقل، سيطر عليّ نفورٌ مثل الغثيان، بينما أتأمل هذه المخلوقة الغريبة التي يُقال إنها جزءٌ

مني، وتحاشيتها تمامًا لأيّام. اكتفيتُ بمراقبتها من بعيدٍ، بينما تَرضع أو تستغرق في رحلات نومها التي كانت تنمو خلالها بمقادير مفاجئةٍ، فتظهر لها مُقدّمات ملامح أو تفاجئني من وسط لفّات ثيابها الصغيرة كفٌّ إنسانيةٌ في حجم طابع بريدٍ. وبدافع الواجب فقط، ثم الفضول تدريجيًّا، كنتُ أقتربُ منها، وأتابع صورها المتغيّرة، وتشنجها الغريب في نوبات بكائها التي انفطر لها قلبي. أصابني الدوار من مقدار الرعاية التي يحتاج إليها هذا الحيوان الأليف ليصير إنسانًا مثلنا جميعًا. وبأثرٍ رجعيّ، تخيلتُ ماما ترعاني وليدًا صغيرًا قبل نحو أربعين سنةً، وحاولتُ قياس مقدار الحب الذي أودعه فيّ كل المحيطين بي، حتى ضبطتُ نفسي متلبسًا بشعور الامتنان نحو ماما في بعض اللحظات؛ لأنها أجبرتني على الزواج؛ لأجرّب معنى الامتداد في جسدٍ آخر جديدٍ، وهشّ. إلى أن تشجعتُ، وبدأتُ أحملُها مرةً بعد مرةٍ، أهدهدها حتى تنام، إلى أن وجدتني أغنّي لها ذات ليلةٍ بينما تأخذ شيرين حمّامها:

حبيبة أمها، يا خواتي باحبها.

وحين قبضتْ على إصبعي الصغير، حتى نامت، أوشكتُ أن أبكي أمام معجزة الوجود المجسدة بين ذراعيّ. هذا فخٌّ آخر لم أحسب حسابه، قبضةٌ هشّةٌ مثل لقمة القاضي، لكنّ لها قوة سلاسل الصُلب.

من جديدٍ عدتُ رجلًا وحيدًا بين النساء، ومن جديدٍ عدتُ إلى

الرغبة في الهرب بعيدًا قبل أن أختنق بروائحهن الأليفة المخدّرة، كنت أتحرّق لشم رائحة عرق ذكرٍ ما. كانت هذه هي نجدتي الوحيدة، كي لا أتحوّل إلى أنثى حقيقيةٍ وأنضم إلى سربهنّ، فأفاجأ بصدري ذات صباحٍ ينز حليبًا دافئًا مثل ثدي شيرين، التي خمد نشاطها في الفراش، وكأنها بالولادة أخذتْ ما أرادته مني، وانتهى الأمر. أرضاني هذا قليلًا، لكني ظللتُ أخشى أن تكون قد يئستْ تمامًا مني، من أن أهبها متعةً ما زالت تنتظرها. أحيانًا كنا نعود إلى هاني وشيرين القديمين، زميلي العمل، فأحكي لها، وتحكي لي، لنُعيد عيش حياة كلٍّ منا من أولها حتى لحظة ارتباطنا.

حكيتُ لها الكثير، عدا الشيء الوحيد الذي لو حكاه رجلٌ لامرأته لما ظلّ رجلًا ولما بقيتْ امرأته. لعلّ شيرين نفسها قد ارتابت طويلًا فيه دون أن تملك شجاعةَ أن تُسمّيَهُ. كم مرة شعرتْ بذلك، وأنكرتهّ! كم مرة أحسّت أن الرجل الذي تعيش معه يدخّر شغفه وحرارته لشيء آخر أو لشخصٍ آخر غيرها! لعلّها ظلّت طوال سنوات زواجنا تفرك الريبة وتطحنها، وأتجاهل أنا نظراتها المختلسة بينما أقف أمام المرآة لأتجّهز للخروج، متأملًا بشرتي أو مدققًا النظر في الشّعر القليل المتناثر بين حاجبي. تلتقي أعيننا لثوانٍ في المرآة، أربع علامات استفهام صغيرة، ترتطم وتتبدد في الثانية ذاتها. وواصلنا أغنية السعادة الزائفة، إلى أن ظهر عبد العزيز في عز الليل مثل قاطع طريق.

(24)

في الباحة الواسعة لحمّام البخار، أغلقتُ هاتفي، ووضعته مع المحفظة، وكل ما تحتويه جيوبي في الدُّرج الصغير، ثم أغلقته بمفتاح يمر به أستك يبقى قابضًا على رسغي طوال وجودي هنا. أتيتُ هاربًا من صورة عبد العزيز، بعد أن خذلني البرنس حين لم يفهم ما أمرّ به، ونصحني بالتراجع فورًا. حاول البرنس أن يهوّن من الأمر كله، قال إنها آليةُ إسقاطٍ واضحةٌ، فأنا ببساطةٍ أشتهي ذلك الرجل، وأتمنى من داخلي لو أنه يشاركني نفس ميولي.

كان يشرح ويفسّر بصوته متراوح الطبقات، متحدثًا في هدوءٍ

واستهانةٍ. لا يدري شيئًا عن اضطرابي، عن حاجتي لقشّةٍ أتعلق بها، عن رغبتي المُلحّة في البكاء والصراخ، فركبتني نزوةٌ طارئةٌ في أن ألكمه في وجهه مشدود الجلد بارز الوجنتين؛ ربما لأن كلامه بدا منطقيًّا أكثر من اللازم. لم أعرف كيف أشرح له أن هذه المرة مختلفةٌ، حتى ولو كنتُ مارست لعبة الإسقاط هذه من قبل، وتوهمتُ في بعض الآخرين ميولًا ليست فيهم.

لا داعيَ لأن أرهق نفسي بشرح شيءٍ لا أستطيع أن أضعه في كلامٍ موزونٍ، حتى بيني وبين نفسي. جاريتُ البرنس في كلامه متظاهرًا بدرجةٍ من الاقتناع، وقبل أن يأتي أحد ضيوفه للانضمام إلينا وضع كأسه فجأةً ونظر نحوي، وقال دون تمهيد إنه ربما تكون هذه المرة فعلًا غير كل المرات السابقة:

علشان المره دي فيها لعب بالنار. ده نسيب عيلة مراتك، لو الموضوع اتكشف هتبقى عامل زي اللي حرق بيته كله عشان يولّع سيجارة.

أطفأ سيجاره البني الرفيع، وأضاف، وهو يلوّح بيديه وذراعيه على جانبيه بطريقةٍ مسرحيةٍ للغاية:

ومافيش سيجارة تستاهل ده كله، صدقني، أنا دخّنت كل الأنواع.

خلعت ثيابي كلها، وعلقّتها على مسامير مدقوقةٍ بانتظام على جدارٍ فوق مصطبةٍ عاليةٍ، مكتفيًا بملاءة الحمّام ألّفها حول وسطي بإحكام. أنتبهُ الآن إلى هذا الطقس الخاص بالولوج إلى عالم حمّام البخار، فكأننا نتخلى على عتبته عن كل ما يربطنا بالعالم الخارجي، ولو لبعض الوقت. كأنني أنزع الآن عن جلدي الصورة الزائفة المثقلة بالإكسسوارات والزينة، أتقشّر وأتضح وأشفّ؛ لكي أدخل حياةً أخرى عابرةً، أخف وطأةً. أدخلها عاريًا كأنها ولادةٌ جديدةٌ، لستُ عاريًا تمامًا مع هذا، تستر عورتي الملاءة المهلهلة، والأستك الملفوف حول رسغي يحمل مفتاح رجوعي إلى حياتي العلنية. وفي الدُرج المغلق كل ما يلزمني للرجوع إلى دوري المكتوب، إلى الخطوط المرسومة لحِيلِ النهار وأكاذيب الناس، إلى هويةٍ واضحةٍ واسمٍ ومفاتيحَ أخرى أيضًا، أكثر أهمية، وبطاقاتِ ائتمانٍ ونقودٍ وصورٍ صغيرةٍ لأبي وأمي وشيرين وابنتي. كيف يتسع درجٌ صغيرٌ إلى هذا الحد لاستيعاب حياة أربعة عقودٍ تقريبًا؟

رغم أنني لم أعد أتردد كثيرًا على المكان كما في الماضي، فإن أكثر من نظرةٍ تعرّفتْ عليّ. جميعهم مثلي هاربون، نزعوا عنهم الأسماء وتواريخ الميلاد والجوارب والثياب التحتية الرخيصة أو الثمينة، أتوا من أحياء راقيةٍ أو من عشش العشوائيات، من مكاتبَ مُكيّفةٍ أو ورشٍ ملطخّةٍ بالزيوت والشحوم. وحتى بعد هذا العُري تبقى علاماتٌ تشي بعالم الخارج على جسد كلٍّ منهم، علاماتٌ

لا يمكن خلعها مع الثياب أو وضعها في دُرج صغيرٍ، يبقى وشمٌ على الكتف من أيام المولد أو من أيام السجن، وشم أسد يُشهر سيفًا أو عبارة من قبيل "أمي يا أغلى الناس"، تبقى سلسلةٌ ذهبيةٌ يعتز بها صاحبها، فلا ينزعها ويتركها تتدلى على نعومة الجلد وطراوة الصدر. تبقى ندبةٌ طويلةٌ على جانب الجذع أو فوق الخد أو حتى آثار محاولة انتحارٍ قديمةٍ فوق رسغه. يبقى مايوهٌ ضيّق أحمر أحدث موضةٍ أتى به صاحبه معه ترفعًا عن أن يضع على جسده الملاءات المقرفة. تبقى الأسنان المصفرّة والمسوسة وروائح الفم الكريهة في مقابل الوجوه الناعمة والشَّعر اللامع. نجرجر وراءنا الدنيا المتروكة خلفنا، نشدها إلى هنا بخيوطٍ تظلّ مرئيةً وسط البخار السابح حولنا، تمامًا كما أتيتُ أنا معي بطيف رجلٍ اسمه عبد العزيز، طلع لي من الفراغ ليقلب ميزان أيامي، وأشعر به الآن يتجوّل من حولي مُتلصّصًا.

اضطجعتُ على جانبي فوق رخام النافورة التي تتوسط الصحن الجوّاني، وأسندتُ وجهي بكفي تاركًا نفسي للأوهام، متريّثًا قبل طلوع غرفة المغطس الساخن. ثم انشقّ السقف المقبّب عن هلالٍ نحيلٍ للغاية، وكأنه قد ينكسر لو أطلتُ النظر إليه. رأيتُني في صالون الأزياء القديم، لصاحبته بيبا وعشيقها جدي الخواجة ميدا، بهيئته القديمة، البلاط المزخرف والستائر والمانيكانات، ممسكًا بريشةٍ رماديةٍ طويلةٍ أدغدغ بها سيقان السيدات الجميلات، وأنا

أنسحب من بينها كالقط، فتفزع هذه، وتضحك أخرى. وحين تتحني إحداهن من سمائها البعيدة إليّ وتُقبّلني، أكتشف أنها قد صارت رأفت بوجهه الوسيم الباسم، وبدلًا من أن يُقبّلني، فوجئتُ به يعضّني في خدي، لا أتوجّع لكني أتمدّدُ، وأكبرُ، ثم أجري بلا هدفٍ، إلى أن أصل إلى حمّام البُخار عاريًا، ومن حولي رجالٌ عرايا يطفون بين الأرض والسقف كأن الجاذبية انعدمت، أفتّشُ في وجوههم عن شخصٍ ما، حتى أجده أخيرًا، عبد العزيز، نتبادل قُبْلةً، كأنها حلمٌ آخر داخل هذا الحلم، حتى ينتزع نَفْسَهُ مني فجأةً مثل مَن أفاق بعد سكرةٍ لدقيقةٍ واحدةٍ، ينظر لائمًا، كأنني ارتكبتُ خطأً لا أعرفه، وقبل أن يستدير، ويختفي وسط بخار الماء المحيط بنا من كل جهةٍ، قال عبارةً جارحةً وباترةً، شيئًا مثل: يا ساتر! صاحَ بها كأنني مُشوّهٌ أثير الاشمئزاز.

أفقتُ فجأةً على صيحة العجوز الذي يقوم بالتكييس والتدليك، وهو آتٍ من الخارج وكعادته ينادي بأعلى صوته: "يا ساتر! يا قوي! يا معين!" كأنه يعلن حضوره بطريقةٍ مُواربةٍ، حتى يأخذ كلٌّ حذره ويستتر قليلًا. أفقتُ على زعقته مُقتربًا وإزاحته الباب الخشبي الثقيل الذي يفصلنا عن بقية المكان بالخارج. انتعشتُ بالغفوة وبالمنام، وكأنني لم آتِ إلى هنا سكرانَ يائسًا. اقترب أحدهم وجلس جواري، وثبّت نظره عليّ بابتسامة المعرفة القديمة. دنا مني بوجهه الأشقر ذي النمش، وهمس:

صح النوم، مش فاكرني؟

كم مرّة سمعتُ هذا السؤال؟ كم مرّة سوف أسمعه فيما بعد؟ ألا يجوز أن أطرح أنا هذا السؤال ذات يوم قريبٍ على عبد العزيز؟ لا بُدّ أن هذا هو حل اللغز الذي عذبني طَيلة الأيام الماضية، أردتُ أن أمسك المنام قبل أن يتبدد وسط البخار، لو تلفظتُ بكلمةٍ واحدةٍ ردًّا على هذا الغريب لاختفى الأثر المتبقي من الحلم. أنا الآن واثقٌ، لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها عبد العزيز، عريشًا متباهيًا بطوله وعرضه وحضوره، لا بُدّ أنها كانت المرّة الثانية، وفي الأولى كانت القُبلة الطويلة الثملة، التي سوف نستعيدها معًا ذات يوم. تذكرتُ الآن، فهل يتذكر هو؟ أجبتُ الأشقر بعد ثوانٍ دون تركيز:

معلش، مش واخد بالي.

ثم تركتُهُ، وابتعدتُ.

في غفوتي السـريعة رأيتُك يا عبد العزيز، كأننا التقينا هنا في هذا المكان ذاته أو في مكانٍ آخر، أرقى وأنظف، ربما ساونا النيل هيلتون. رأيتُك مُغلّفًا بالبخار وجسـدك الأسمر المفروش بالعشب الأسمر ناضحًا بالعرق، كنتَ دائخًا قليلًا، سكرانَ ربما أو مسطولًا. في غفوتي تذكرتُ كل شيءٍ رغم السنوات، ذكرى ناصعةً لها هيئة صورةٍ فوتوغرافيةٍ قديمةٍ. تبادلنا قُبْلةً طويلةً، وسرعان ما اختفيتَ

من أمامي، ذبتَ في البخار وســط الأجســاد المتشابهة للآخرين. أتذكر الآن أنني ظللتُ أفتّش عنك شــهورًا في الأماكن التي أتوقع وجودك فيها، ربما لأنني عرفتُ أنك لي وأنني لك، وحين يئســتُ أنكرتُ حدسي، ونسيتُكَ تدريجيًّا وسط أمواج الأجساد المتجددة كل ليلةٍ. أهذا هو الرجل القديم نفسه؟ عبد العزيز؟ أم أنني أخلط بينهما الآن فــي صحوي كما خلطتُ بينهما في منامي؟ لا ســبيل لليقين، غير ما تهمس به نفسي. أسرعتُ بالعودة إلى ثيابي وأشيائي، حتى دون أن أتمدد أمام العجوز المقوّس الســاقين ليمسدني ويدلكني كما أحب. لم أعد أحتاج إلى شــيءٍ من هذا المكان. خرجتُ إلى الليل، وأنا أهدأ نفسًــا، ولأوّل مرّةٍ منذ سنواتٍ أتمشى حتى طلوع النهار، مبتســمًا كالعبيط، كنتُ أعرفُ أنني سوف أطارد هذا الرجل حتى آخر الدنيا.

(25)

التقيتُ به مرةً واثنتينِ وثلاثًا، وكانت حجّة تواصلي معه واضحةً منذ ذلك العشاء، أن أساعده هو وأسماء في إعداد وتأثيث شقة الزوجية. عندما اتصلتُ به أوّلَ مرّةٍ، مستجمعًا شجاعتي، أتاني صوته ناضحًا بالبراءة والامتنان، صوت مَن يجهل الفخ الذي ينتظرنا، يجهله أو ربما يتجاهله.

كان مجرد توقّع مواعيدي معه، يجعل كل شيءٍ مختلفًا، أهتم أكثر من اللازم بتناسق ألوان ثيابي، أتردد قبل أن أضع هذا العطر أو ذاك، ويسرني كل هذا الارتباك اللذيذ، وأتحرك خفيفًا كأنني

فقدتُ نصف وزني على الأقل. أحببتُ الحياة فجأةً، وعدتُ للمزاح مع الجميع وأوّلهم شيرين. وألعب مع بدرية الصغيرة كأنني أصغر سنًّا منها، كنّا نتقلّب أنا وهي على سجّادة غرفتها، وأنا أدغدغها، وأنفخ أسفل رقبتها بأصواتٍ مُضحكة، وأعضّ بطنها حتى تكاد تموت من الضحك. وبين الوقت والآخر، تطل شيرين عليّ، أو ترمي نظرةً سريعةً وأنا أقف أمام المرآة، قبل موعدي مع عبد العزيز. ترصد في صمتٍ ورضا، تريد أن تسأل عن سر السعادة المفاجئة الغامضة، ولكنها تتراجع. لا أدري لو سألتني ماذا يمكنني أن أقول، قد أكذب زاعمًا لها أنني أسعد إنسان في الدنيا، لأن لديّ كل شيءٍ يحلم به أي رجل عاقل. وهذا صحيحٌ، لكنه ليس كافيًا، ليس الحقيقة. لن أقول لها صائحًا ووجهي قد احمّر من الخجل والسعادة: أنا بحب، بحب يا شيرين، بحب عبد العزيز، خطيب أسماء بنت عمك. وأرتعد من اللذة الخبيثة إذ أتخيّل رد فعلها.

سعادةٌ لا مبرر لها، ما دامَ لم يحدث أي شيءٍ واضح، ما دمتُ لم أتأكد. مجرد لقاءاتٍ سريعةٍ في أماكن عامةٍ أو في شقته عارية الجدران والأرضية في حيّ دجلة بالمعادي. لم يحدثْ شيءٌ، ولكني كنتُ أستبقُ الأحداثَ داخلي، ويلهثُ خيالي متحركًا وهو يبني ويهدمُ، ويرسم الاحتمالات، ويضع الخطط والسيناريوهات. ومع هذا، فقد كان مجرد انتظار مواعيدي معه يمنح كلّ شيءٍ طعمًا مختلفًا، ويجعلني أترنم بالأغنيات محاكيًا هذه المطربة أو تلك، أمام

جمهوري النسائي الصغير، ماما وبدرية الصغيرة وشيرين والدادة سُمية، أُمسك بكبشةٍ صغيرةٍ كأنها ميكروفون أمام مدخل المطبخ، وأغني لهم في محاكاةٍ سخيفةٍ لغنج سميرة سعيد: "قال جاني بعد يومين، يبكي لي بدمع العين، يشكي من حب جديد، يحكى وأنا ناري تقيد، وسمعته وفكري شريد، وسكت وقلبي شهيد... شايفين الظلم يا ناس؟! ده حلال ده ولّا حرام؟! آه من جرح الإحساس، دي آلامه أشد آلام، أوصيك بالصبر يا قلبي، ده غرامه طلع أوهاااام". ثم أبالغ في الانحناء أمام تصفيقهن وهتافهن، وألتقط الجاكيت والمفاتيح وأخرج. أبتسم لسائقي السيارات الناقمين من حولي في إشارات مرورٍ أبديةٍ فيظنوني معتوهًا، أو أن دماغي عالية. أشتري كل عناقيد الفل من بائعة طفلةٍ وأعطيها نقودًا كثيرةً، وأتحرك خفيفًا في الحياة كأني فقدتُ نصف وزني دون ذُل الريجيم أو الرياضة.

وبمجرد لقائه أتحوّل، أصير شخصًا آخر، أمتلك قدراتٍ خاصةً مثل المخلوقات الغريبة في أفلام الخيال العلمي. تنتفض حواسي كلها وتعمل بما يفوق طاقتها. يصبح بصري حادًّا، فلا يفوتني منه شيءٌ، ولو زغبة تتراقص مع الهواء على شحمة أذنه، فأرغب في تقبيل يد الحلّاق الساهي الذي نسيها هناك دون أن يحفها بالفتلة. ومع ذلك لم أكن أغيب عن الوجود تمامًا، فأعرف متى أتكلم أو أسكت، كيف ألقي النكتة والتلميح الظريف، كيف أحكي له حكايةً صغيرةً تبدو في ظاهرها بلا معنى وخارج سياق حديثنا تمامًا،

ولكنها مع ذلك تحمل في داخلها حبّة الغواية، وليس عليه سوى أن ينزل من غصنه البعيد لالتقاطها، ساعيًا بنفسه نحو الفخ الصغير الخفي.

لم أكن مُستعدًا أن أسمع أي شيءٍ قد يصدني عن متابعة طريقي، تجاهلتُ كل صوتٍ حاول أن يعيدني إلى الواقع، سواء صدر عن البرنس، أو من داخلي. وفي عزّ اندماجي سمعتُ بحادثة قتل واحدٍ من الحبايب، فهزّت حكايته التعيسة ثقتي بالحلم الطري الذي أغوص فيه.

قرأتُ الخبر ذات صباحٍ مثل جميع الناس، ثم عرفتُ كل شيءٍ فيما بعد من خلال البرنس في سهرات حديقة السطح. كان راقص باليه من أسرةٍ كبيرةٍ، عثروا عليه في بيته، ممددًا على أريكةٍ مُريحةٍ أمام التليفزيون وقد انفجرت الدماء من رأسه في الخلف، وعلى الجدار المجاور بقعة حمراء مسودّة. تخيلتُ القاتل ممسكًا بوجهه في رقةٍ ليُقبّله، وفجأةً، يسيطر عليه الجنون ويضرب رأسه بالجدار مرة بعد أخرى. تذكرتُ الشاب حين عرفت اسمه، رأيته أكثر من مرةٍ على فتراتٍ متباعدةٍ، مرةً كان يرقص بجنونٍ في ديسكو على النيل، ومرّةً أخرى يوم رأس السنة في الإسكندرية حين وقفتُ مذهولًا أمام البالطو الأبيض ذي الفراء الذي كان يرتديه، سحرتني فكرة وجود بالطو أبيض ليس فيه خيط واحد من لونٍ آخر. ليلتها

ابتسمتُ له، وأومأتُ برأسي، فردّ تحيتي، وهو يتشبث بذراع شابٍّ مفتول العضلات.

كالعادة - في مثل هذا النوع من القضايا - لم تخفَ طبيعة ميوله طويلًا عن التحريات، وقبضوا على كل من يعرفونهم من المثليين، سواء في دائرة القتيل أو خارجها، واحتجزوهم لأيام بلا مُبرّرٍ أو اتهام، وعرّضوهم لجميع أشكال المهانة والضغط حتى يعترف أحدهم بأي شيءٍ. تسرّب الخبر للصحافة التي صنعت من القضية تمثيليةً درامية مشوّقة عن الشذوذ المحرّم في كل الأديان، والظواهر الوافدة والغريبة على مجتمعنا، وعن النهاية الطبيعية لهذا الإثم. ووجدتها شرطة الآداب فرصةً مواتيةً، فأخذت تنفذ حملاتٍ للقبض العشوائي على المثليين أو من يُشتبه في كونهم كذلك من كل أماكنهم المعروفة. سمعتُ أيامها للمرة الأولى عن رئيس شرطة آداب القاهرة الذي يجد متعةً خاصةً في إيذاء المثليين وإذلالهم.

كانوا يحتجزونهم يومين أو ثلاثة، ثم يطلقون سراحهم بمجرد العرض على النيابة، نادرًا ما كان يتطوّر الأمر إلى قضايا آدابٍ حقيقيةٍ. ومع ذلك فمن مرّوا بتلك التجارب، كانوا يحكون أمورًا فظيعةً عمّا يلاقونه في القسم. عن السب والضرب والتهديدات، والضغوط من أجل العمل كمرشدين لشرطة الآداب. كنتُ أسمع،

وأتجاهل، ربما كنتُ أعتبر كل تلك الأمور تحدث فقط لآخرين غيري. كنتُ أشعر بنفسي محميًّا، ولا أدري لماذا، ربما تحميني ماما، بمجرد وجودها في الحياة أو لعلاقاتها وأموالها، أو تحميني سيارتي التي أتحرك داخلها طيلة الوقت، أو عمارتي الشاهقة. وعندما عرفتُ بهذه الحكاية الدامية، حاولتُ أن أمحوها بسرعةٍ كذلك؛ فقط لأتشبث بالفرحة الوليدة التي تنبض الآن بين كفيَّ، وأُبعد عنها ما يصل إليّ من أخبارٍ مخيفةٍ، كأنني أنفخ عن ريش كتكوتٍ نظيفٍ غبار العالم القذر الذي خرجَ إليه. بعد أيام قليلةٍ، عاد العشيق الهارب من مرسى مطروح، ربما بعد أن أخفق في نسيان منظر الدم والعينين المذهولتين من المفاجأة واستسلام الرأس الجميل بين يديه. سلّم نفسه، واعترف بجريمته، وانتهى الأمر، ولم يركّز الإعلام على الواقعة طويلًا؛ ربما لمركز عائلتي القاتل والمقتول.

قال لي البرنس بجديةٍ شديدةٍ وهو يلمّح من بعيد لحكايتي مع عبد العزيز التي ما زالت تكتب أول مشاهدها: "إن الجريمة الأسوأ من القتل، هي أن نحاول تغيير طبيعة الآخرين حتى تُوافق هوانا". فهمتُ منه أن القتيل قد استطاع منذ نحو سنتين أن يحوّل حبيبه الشاب هذا من حُبّ النساء إلى العلاقات المثلية، وأنه تعرّف عليه أول مرَّةٍ خطيبًا لابنة شقيقته الكبيرة، لكنه استطاع أن يخطفه منها في غضون أسابيع، ربما كان الآخر فضوليًّا قليلًا، لكنه لم يكن

يميل للرجال في نهاية الأمر. استطعتُ أن أرسم الخطوط العامة للحكاية من أولها لآخرها، ولم تكن حكايةً جميلةً. ظللتُ أتخيل البالطو الأبيض البديع مُلطَّخًا بالدم، ولم يكن منظرًا جميلًا. ومع هذا أصررتُ على استكمال الطريق لآخره مع عبد العزيز، قاتلًا أو مقتولًا لا يهم.

(26)

كنتُ في انتظاره، أدورُ هنا وهناك فاركًا يديّ لا أعلم ماذا سأفعل لأتيقن وأستريح. أجهلُ إن كنتُ أنا القط أم الفأر في هذه اللعبة، لكني أريدُ أن أضعُ لها حدًّا اليوم بأي وسيلة. رحتُ أفتشُ خزائن أسلحتي السرية لعلّي أعثر على الأداة المناسبة. كنتُ مستعدًّا لأي شيء إلّا الغرق، أي شيء إلّا الانسحاب من الشط مهزومًا دون أن أتذوق هذا الماء. وكانت الخزانةُ كأنها خاوية تمامًا، في عز حاجتي إليها، تبخّرت وتركتني أعزل في مواجهة موتٍ جديدٍ ونضرٍ، وعلى جدار المكتب أمامي، ارتسمتْ جثةُ مراهقٍ بدينٍ، لفظها البحر تحت شمس الضحى، بالكاد نبتَ له شَعرٌ تحت إبطيه، ونعمت حافة شفته

العليا. موتٌ نضر وجميل مثل رجلٍ أسمر من المنيا في الثلاثين تقريبًا، في قميصٍ رسميّ أبيض ورابطة عنقٍ ثمينةٍ، متناسق البنية كأنه تمثالٌ لرجلٍ آخر غير حقيقيّ، دخل مكتبي الآن بابتسامةٍ عريضةٍ تحت شاربه الكثّ المهذب.

رحتُ أثرثر في أمورٍ فارغةٍ؛ لكي أتجنب الشيء الوحيد الذي أتمنى أن أنطق به. لم أكن أعرف حتى عمّا أتحدث، وكأنني أحاول أن أُلهي انتباهه؛ لكيلا يلحظ أنني لستُ على طبيعتي، وأن نظراتي إليه كأنها تودّع هذا الوجه الذي ربما لا أراه بهذا القُرب مني مرةَ أخرى، بعد أن يعرف، بعد أن أعترف. تواصل حديثي المفكك من مكتبي إلى المصعد إلى سيارته. وطوال الوقت كنتُ أرغم نفسي على أن أبعد عينيّ عنه، عن شاربه وعن مثلث الشّعر الصغير تحت شفته السفلى، متسائلًا عمّا قد يكون عليه طعمه تحت اللسان، ثمّ طابع الحسن المنحوت كأنه أقرب إلى خطٍّ قصيرٍ غير مرئيّ، يقسم ذقنه بالتساوي. أشيحُ بعينيّ عنه، ثم أستسلم، فأعود لنهب ملامحه، إلى أن فاجأتُ نفسي، وفاجأته بقولي:

من يوم الخطوبه وأنا حاسس إني شفتك قبل كده، بس لا قادر أفتكر امتى ولا فين.

أتذكّر الآن عبارتي تلك في خجلٍ. مجرد كليشيه رخيص، حيلةٌ قديمةٌ ومبتذلةٌ للاصطياد، وربما سبق لي أنا نفسي أن استعنتُ بها

كثيرًا بغرض الصيد، كانت هذه هي المرة الأولى تقريبًا التي أقول ذلك صادقًا. ظلّ يومئ وهو مبتسمٌ غير منتبهٍ إلى نبرة التساؤل في كلامي، وحين سكتُّ قليلًا، قال إننا ربما نكون قد التقينا ذات يوم في أي مكانٍ عامٍّ آخر؛ فالدنيا صغيرّة. أردتُ أن أقول له إنه كانَ مكانًا عامًّا وخاصًّا في الوقت نفسه، وكنتَ شبه عارٍ ونصف سكران أو مسطول، وأخذتَ شفتيّ بشفتيك لدى مرورك بي، دون أن أطلب منك شيئًا أو أغويك، ملتَ عليّ ببساطة، وقبّلتني. مازلتُ أذكر حتى طعم ريقك.

خلعتُ عني الـ تي شيرت متظاهرًا بالانزعاج من الحرارة الشديدة، وأنا معه في الشقة الفسيحة التي يغمرها الضوء الآن بعد إزالة بعض الكراكيب وقبل تركيب النوافذ الجديدة. كنا نسبح في حمّام ضوء نهار أُغسطس، فاحتفظتُ بنظارتي الشمسية على عينيّ. تحت الـ تي شيرت لم أكن أرتدي شيئًا، ولم أجد حرجًا من شكل ثدييّ الشبيهين بأثداء النساء، بحلمتين مُستديرتين لونهما قرنفلي مثل عنبتين ناضجتين، ورغم شعيراتٍ خفيفةٍ تتناثر بينهما، كان أعلى جسدي أبيض شمعيًا. رحتُ أقترب منه بما يسمح لكلٍّ منا بشمّ رائحة صاحبه، أو بمسّ جسمه مسًّا خفيفًا، ثم أبتعد فورًا قبل أن يبدأ هذا الاقتراب في مضايقته، وأيضًا لكي يراني وأراه، وألاحظُ كلَّ تعبيرٍ مهما صغر يشي بتغيّر حالته. وتابعتُ ارتباكه منتشيًا فرحًا وهو يتحرك في مكانه، لا يدري أين يضع عينيه، أو

ماذا يفعل بيديه أو أين يقف، عندما أتظاهرُ بالانهماك في تأمل المكان. ثم أقترب منه، وأدفعه للتراجع حتى جدار أو ركن، كأننا في مطاردةٍ مسرحيةٍ مُضحكةٍ. ركبني الجنون في هذا النهار، الغرق أو لا شيء. نزعتُ نظارتي السوداء وتركتُ عينيّ فريسةً للنور. كلُّ شيءٍ كان واضحًا ومبهرًا، لكنني حدّقت بوسع عيني دون خوفٍ.

وقفنا متجاورين، ندخن سيجارةً أمام فتحة نافذةٍ كبيرةٍ في جدارٍ على الشارع، فمددتُ يدي نحو كتفه، وفركتها قليلًا في صمتٍ، حمّلت أصابعي بكل ما أريد قوله. اختلستُ نظرةً إلى ما بين فخذيه، فلاحظتُ بروزًا يشي بانتصاب عضوه، ليس انتصابًا كاملًا ومشدودًا كالسهم، لكنه هناك، نيّةٌ، فكرةٌ، بُرعمٌ واهٍ. انتعشتْ روحي، يمكن لنا الآن أن نشرب النور كما يشربنا.

دون أن أدري ماذا أفعل، وجدتني أبتعد عنه، وأنا أدور حول نفسي بحركةٍ راقصةٍ، ثم أتوقف فجأةً وسط الاستقبال الواسع الخالي، وأطلق زغرودةً طويلةً مجلجلةً بصوتٍ حيّانيٍّ. تبددتْ أصداء زغرودتي، فحلّ صمتٌ حرجٌ، ونظرتُ إلى وجهه الطافح بالدهشة والذعر. سألني بكل هدوء:

فيه إيه يا هاني؟

ضحكتُ، لا أدري كيف أجيبه، وهمهمتُ بين ضحكاتي المتوترة

بكلام سخيفٍ عن شقة الزوجية، وكيف كان لا بُدّ أن تتردد فيها زغرودةٌ واحدةٌ على الأقل. كان وجهه الأسمر الكبير محمّرًا، ربما من شدة الحر، وربما من الدهشة والغضب، وربما من الإثارة. انتفخ جناحا أنفه العريضين كأنهما على وشك الانفجار، منعتُ نفسي بالقوة من الارتماء عليه. النور أيضًا يُسْكِر، وهذا اكتشافٌ جديدٌ.

راح يراوغ راسمًا قناعًا من الغضب على وجهه، ومُدخّنًا السيجارة تلو الأخرى، بينما أعاود أنا الاقتراب منه بحذر، كأنما عن غير قصدٍ بالمرة، أو لامسًا زنده بخفّةٍ وأنا أحدثه، حتى لسعتني زهرة سيجارته للحظةٍ قصيرةٍ، فشهقتُ ملتاعًا، وأجفل هو مُبتعدًا للخلف، فتعثر في بعضِ صناديق على الأرض، ووقع، فارتطم رأسه بزاوية عمودٍ، وجُرِحَ، ونزّ قطراتٍ حمراء ساخنةً. معركةٌ صغيرةٌ بلا خسائر في الأرواح، ولا نوايا سيئة من الطرفين، مع ذلك أسفرتْ عن الكثير. جلس صامتًا واضعًا يده على جرحه، انحنيتُ عليه مُستطلعًا جرحه، وأتيتُ ببعض ماء، وغسلته له، لكنه كان ما زال ينزف دمًا قليلًا. اتصل بأمن العمارة؛ ليشتروا له ما يمكن أن نضمد به جرحًا بسيطًا.

جلستُ على الأرض بجانبه، بجزعٍ عارٍ ما زلت، أشمّ رائحة عرقه وعطره ودمه ودخان سيجارته. كان هو أيضًا يمكنه شم

روائح جسدي بوضوحٍ، غير أنه كان يبدو غير مهتمّ، مُحرجًا قليلًا لهذا الاقتراب الشديد، ومركزًا همّه كله على السجائر التي عاود إشعالها. وبعد دقائق من الصمت الحرج، قال كلٌّ منا للآخر في اللحظة ذاتها:

أنا آسف!

خرجت العبارة نفسها منا نحن الاثنين في تزامنٍ مدهشٍ. لعلّه أرادَ الاعتذار عن لسعي بالسيجارة، وأردتُ الاعتذار عن سقوطه وجرحه، وربما كنا نعتذرُ عن شيءٍ آخر تمامًا، شيء لم يعد من الممكن تفاديه أو تجاهله طويلًا. ضحكنا مرتبكين من هذه المصادفة الصغيرة، وقال هو مستجمعًا نفسه:

لخبطتني ووقعتني يا أخي.

فقلتُ في مكرٍ:

أنا وقعت قبلك.

تجاهل إشارتي، وبقينا صامتيْن، حتى دقّ جرس الباب، فتحتُ لشابٍّ أسمرَ نحيلٍ وطويلٍ، استدعاه أمن العمارة من صيدليةٍ قريبةٍ، كان يحمل الضمادات والمطهرات ومستعدٌّ للعمل. نقّل الشاب عينيه اللوزيتين الضاحكتين بيننا، ناظرًا إلى صدري العاري والدم القليل الذي يلوّن رأس عبد العزيز، ثم قال متسائلًا:

خير، خير.

بعد أن طهّر الجرح، وضمّده بعنايةٍ في هدوءٍ، وأوصى عبد العزيز بما عليه أن يفعله، مُبتسمًا طوال الوقت كأنه يُضمر لنا مفاجأةً سارةً، وقبل أن يذهب وقف بيننا مترددًا قليلًا، حتى تشجّع، وقال من غير مناسبةٍ:

على فكرة، أنا شاعر! تسمعوا قصيدة؟

لم ينتظر جوابًا، فقد دسّ يمناه في جيب بنطلونه الجينز الرث المهلهل، وأخرج ورقةً مطويةً، بسطها بسرعةٍ، وأخذ يتلو علينا قصيدته المطوّلة حتى سطرها الأخير. لا أذكر الآن منها غير جملةٍ واحدةٍ: سنعرف يومًا، أنّا هربنا، منّا إلينا.

في عودتنا، ظللنا نضحك طوال الطريق.

(27)

لم أتعجّل شيئًا رغم لهفتي، أي حركةٍ طائشةٍ قد تهدم النسيج كله قبل أن يشتد. تركتُه حُرًّا تمامًا في تحديد المواعيد واللقاءات. واندمجتُ جادًّا معهم في مشاوير الفرجة على الأثاث، واختيار ورق الحائط، الستائر، السيراميك، إلى آخره. كنتُ أعمل بمزاجٍ رائق، وأثبتُّ له هو وأسماء أنني كنزٌ بلا مبالغةٍ، ولولاي لدفعا أضعاف الأسعار على خاماتٍ ليست بالجودة المطلوبة. أخذتُهما إلى متاجر لم يعرفا بوجودها أصلًا، وعرّفتهما بحرفيين بسطاء قادرين على إنتاج تحفٍ نادرةٍ بخاماتٍ من الطبيعة. كأنني كنتُ أؤثِّثُ عش غرامنا نحن، أنا وعبد العزيز، لا شقة زواجه هو وأسماء، متغافلًا عمّا قد

يحدث بعد زواجهما في نهاية هذا الفيلم العربي الخفيف. انتبهتْ شيرين إلى حماستي الغريبة، فهمستْ لي:

ماظنش إنك عملت ده كله واحنا بنتجوّز.

وانتهزت الفرصةَ، وطلبتْ إجراء بعض التجديدات في شقتنا نحن أيضًا، فوافقتُ بلا تردُّدٍ، ولو كانت قد طلبتْ مني أيّ شيءٍ آخر لما رفضتُ، فأدركتُ أن العاشق السعيد مثل السكران السعيد، مُستعدٌّ لأن يقطع أحد أصابعه، بينما يُغني، ويهديه لمن يطلب.

بدا تسامحه مع حركاتي بلا مبررٍ الآن، إن لم يكن مستعدًّا للتجاوب، فلماذا يستقبل بحفاوةٍ أو دون اكتراثٍ كل الرسائل المشفرة واللمسات الخفيفة التي كنتُ أجتهد لأجعلها عاديةً ومعهودةً بين أي زميلين أو صديقين بدرجةٍ ما، ومع ذلك تبقى محمّلة بالرغبة الموجعة؟ لماذا يسكت عليها؟ وإذا كان تجاوبه حقيقيًّا فلماذا يزوغ بعينيه؟ النظرات هي الشيء الوحيد الذي لم يكن مستعدًّا لأن يواجهه، وكأنّ استقبالها وقراءة مضامينها سيكون اعترافه النهائي الدامغ. كنتُ أقول بفمي كلامًا، وبعينيّ أقول له: إنت انكشفت، العب غيرها، أو كأني أسأله: لماذا تخاف؟ دعنا نجرّب! كان مكتفيًا بلعبة التواطؤ، وربما سرّه بأن يكون موضع إعجاب هذا الرجل الأربعيني الشبيه بالنساء. لا، ليس إعجابًا أخويًّا يا عبد العزيز. أنت تعرف الرغبة، لا بُدّ أن هذه الكلمة مرّت بك في مشوارك ككاتبٍ وإعلاميٍّ، أكثر من مرّةٍ.

كم كنتُ أفرح كلما نجحتُ في إضحاكه لأسمع قهقهته العصبية حين يرمي برأسه للوراء ويغمض عينيه قليلًا ضاغطًا حاجبيه، وكأن الضحك يخجله أو يؤلمه. ويتدفق نهر الكلام بيننا من مشوارٍ إلى آخر، في سيارته غالبًا، أو في معرض موبيليا، أو في مطعم للبيتزا التي اكتشفنا أننا مغرمان بها إلى جانب بقية أصناف العجائن والمخبوزات. ومع كل خطوةٍ تمتدّ قائمة الأمور المشتركة على طريقنا، أتلقفها أنا من الهواء مثل كلبٍ مُدرَّبٍ. كنتُ أعلم أن هذا هو الجسر الذي سيصل بيننا، سواء ما يجمعنا الآن أو تلك الذكريات الصغيرة التي كان من الممكن أن نتقاسمها لو أننا تعارفنا قبل خمسة أعوام، أو عشرة، أو لو نشأنا وكبرنا معًا، فنما الحُبُّ بيننا تمامًا كما ينمو جسدانا كل يوم. أين كنا ساعة زلزال 1992؟ أول فيلم شاهدناه في السينما؟ سنة الثانوية العامة، ألبومات عمرو دياب، وسميرة سعيد، وأنغام. أوّل مرة نسكر ونهرب من البيت وحكايات رفاق السوء. وأخيرًا يأتي الشغف بالأبراج الفلكية، مثل كذبةٍ أخيرةٍ باسمةٍ، تُتوّج صداقةً وهميةً، صداقة راحتْ تنتفخ بهواء الشهوة، هواء كان لهيبًا أحرّ من شوارع أغسطس التي تغلي من حولنا.

وذات مرّةٍ، غنينا معًا في سيارته أغنية قديمة لعمرو دياب: "حاولت أبعد بعيد عنك وماعرفتش، حاولت أنسى اللي كان بينّا وماقدرتش... حاولت كتير لكن قلبي، بكى مني وجَنّني، وتوّهني فـ ليل اللوم، وزاد اللوووووم....". وحين تنتهي الأغنية، وننتهي

من الترديد معها، نستغرق في الضحك بعلو الصوت كائنين من المجانين، فأمسّ كتفه خفيفًا بلا مناسبةٍ، فيتجاهل لمستي، ويتنفسُ عميقًا. كانت هذه لحظةً عزيزةً، اكتنزت داخلها كل شيءٍ، كل شيءٍ تقريبًا. ثم انقطعت الموسيقى في عز تصاعد اللحن، حين اختفى عبد العزيز. في البداية، ظننتُ أنها مشاغل طارئة سوف تعود بعدها المياه إلى مجراها، ونعود إلى مشاويرنا ومواعيدنا، لكنّ القطيعة أخذتْ تطولُ يومًا بعد آخر، دون أسبابٍ مُعلنةٍ. ثم لمْ تعد هناك أي مواعيد ليعتذر عنها، وتوقفت اتصالاته تمامًا، كل هذا في ظرف أيام معدودة.

أحسستُ بالغدر، فكأنه قد قرّر بمفرده أن اللعبة قد انتهت. وصلتني من خلال شيرين، عن طريق أسماء، حججٌ وعباراتٌ سخيفةٌ: "أصله مشغول قوي يا هاني اليومين دول"، "مسافر ورشة عمل في ألمانيا قريّب وبيجهز نفسه"، ثم أتت الصفعة الأخيرة: "هو حس إنه تعبك معاه الفترة اللي فاتت، فقرّر يكلف مهندس ديكور بتشطيب الشقة". أتعبني معه؟ كأنّ بصقةً كبيرةً التصقت بوجهي وأنا مقيد اليدين. فهل شعر فجأة بأنه قد تجاوز الحدود المفترضة، وأنه قد تجاوب أكثر من اللازم مع هذا المهرج؟ تورّط في فخٍّ هو في غنى عنه؟ أردتُ أن أفهم، ومنعتُ نفسي عن الاتصال به، ليس بدافع الكبرياء، بقدر ما خفتُ من أن أختم المهزلة القصيرة بمشهدٍ

رخيصٍ، وربما كنتُ لا أزال طامعًا في فرصةٍ أخرى، في تفسيرٍ، في بابٍ أو نافذةٍ تُفْتَحُ فجأةً في هذا الجدار الأسود.

كان الأمل طفلًا مُشوَّهًا، وُلِدَ عجوزًا وشريرًا، يجلس ليقاسمني الشراب كل ليلةٍ، في باراتٍ معتمةٍ وصاخبةٍ، لا أتردد عليها، إلا وقد بدأ سُكري بالفعل في أماكن أخرى نظيفةٍ ومحترمةٍ. في تلك الأماكن الرخيصة، كنتُ أشم في ثياب الزبائن رائحة أبي، ولا يهمّ من يجر الآخر للحديث، ولا يهم أي حكايات أفبركها لهم كل ليلةٍ؛ لأبرر آهاتي ولوعتي مع أغنيات أم كلثوم. وسواء كان معي على المائدة زبونٌ غريبٌ، أو أنضمّ أنا لمائدة بعضهم، كان الطفل المشوّه يتبعني مثل حيواني الأليف، ولا يتوقف أبدا عن الكلام، ناثرًا الاحتمالات والافتراضات بين يديّ، موسوسًا بصوتٍ مبحوحٍ: لعلّه مكتئبٌ، لعلّه بحاجةٍ إلى وقتٍ ليخرج من الخزانة، ويعترف بميوله. لا تستهن بقرارٍ مثل هذا يا هاني. لا يملك كل الناس شجاعة التعايش مع ميولهم المختلفة. الدنيا ملآنة بالمساجين؛ الحقيقة إنها سجن كبير.

ومهما أمرتُ ذلك الطفل المشوّه بأن يخرس، لا يطيع، فأغني مع أم كلثوم، وأعزم الغرباء على دورةٍ أخرى من البيرة، وأنا أقاوم طوال الوقت دافعًا مُلحًا بأن أتصل به، وأشتمه أو أتوسل إليه مطالبًا بمقابلةٍ أخيرةٍ. استسلمتُ مرةً واحدةً فقطْ، حين أرسلتُ له رسالة

بعبارةٍ من أغنيةٍ كانت تدور في سماء البار: "أروح لمين ينصفني منَّك؟!". هكذا سألتُه ببساطةٍ، وفي الصباح التالي ندمتُ بشدَّةٍ، حتى أردتُ أن أضرب نفسي بالجزمة. وكان الطفل العجوز المشوّه معي على الفراش لا يتوقف عن الكلام: "لعلّه سافر الآن إلى ألمانيا كما قالوا، وحين يعود ويرى الرسالة، ويتخيّل ما وراءها من عذابٍ ووجع يلين ويعترف ويتصل بك. لعلّه، ربما، قد يكون..." ومهما وضعتُ الوسائد الصغيرة على وجه ذلك الكائن القبيح، وكتمتُ بها أنفاسه، لا تنقطع وسوسته بالمرة.

صرتُ تائهًا. أقود السيارة دون أن أشعر إلى أماكن غريبةٍ وبعيدةٍ عن مساري المعتاد، أو أبقى في المصعد دقائق دون أن أضغط أيَّ رقمٍ، ولا أنتبه حتى يسحبني الآخرون للأعلى أو للأسفل. أطفو في الفراغ بلا بوصلةٍ، ولا أكاد أفيق من الشراب. ورغم الشكوك، لم يتزعزع يقيني ولو للحظةٍ، اليقين الذي وُلِدَ في ذلك النهار المغمور بالضوء.

لم أستطع أن أكتم وجعي لأكثر من هذا، فحكيت للبرنس مقاومًا البكاء. أخذني إلى مكتبه الصغير الفوّاح على الدوّام بروائح مدهشةٍ وغريبةٍ، لا أدري من أي بلادٍ خرافيةٍ يأتي بها. دمعتْ عيناي حين سمعتُ صوتي وهو يذكر اسمه، وأنا أحاول أن أضع ما حدث خلال الأيام الماضية في كلماتٍ منتظمةٍ. بدا الأمر كله أتفه من أن

يضيّعني هكذا. اغتظتُ من نظرة البرنس التي تشي بنغمةٍ مفادها: "مش قلت لك؟ مش أنا حذرتك؟".

حين تكلّم أخيرًا قال: إن صاحبنا، عبد العزيز هذا، حتى ولو كان ميله حقيقيًّا وأصيلًا بداخله، فقد قرّر أن يواصل الكذبة، وأن محاولاتي أربكته، لم يعرف كيف يتصرّف، هل يخرج من عتمة الخزانة الضيّقة إلى النور الذي كشفته أنت له ويواجه رغباته، أم يبقى كما كان طول عمره، ويا دار ما دخلك شر؟! نصحني البرنس أن أنسى الحكاية كلها. وكلما نسيتها أسرع، كان أفضل للجميع. وأوصاني بجرعاتٍ معقولةٍ من الأفراح والليالي الملاح.

عملتُ بوصيته، غير أن الجرعات لم تكن معقولةً بالمرة، فقد اندفعتُ نحو الجنس والشراب كالمسعور، وكأن شبحًا يطاردني، شبحٌ أليفٌ وجميلٌ إلى درجة يعزّ عليّ معها أن أواصل الفرار منه. إلى أن ذهبتُ ذات مرّةٍ وأنا سكران مع شابٍّ، توهمتُ فيه شبهًا بعيدًا بعبد العزيز. اصطدته أو صادني هو من كباريه درجةٍ ثالثةٍ قرب الفجر، ثم نسيتُ نفسي وغامرتُ بالذهاب معه إلى فندقٍ رخيصٍ يعرفه. في التاكسي الذي أخذنا إلى هناك، أذكرُ أنني خاطبته باسم عبد العزيز، ورحت أسأله أين كان مختفيًا طوال الفترة الماضية؟ واكتفي هو بالضحك.

ما إن أغلق علينا باب الغرفة، حتى بدأ يضربني، ثم أخذ كل

ما معي من نقودٍ، حتى العملات المعدنية، والسجائر، والموبايل. بكيتُ متوسلًا أن يترك لي الولّاعة؛ لأنها ذكرى من أبي، وانحنيتُ على يده أحاول تقبيلها، ولم ينتبه أنها من الفضّة، فألقى بها في مقعد حمّام الغرفة، فأسرعتُ لانتشالها فودّعني بركلةٍ في مؤخرتي وعبارةٍ ختاميةٍ يؤكد فيها أنها سيطهر البلد من الخولات أمثالي.

حاولتُ ألّا ألفت انتباه موظف الاستقبال الشاب، لكن نظرته أوحتْ بأنه يفهم كلَّ شيءٍ، وعاود التركيز على شاشة التليفزيون حيث يشاهد فيلمًا كوميديًّا لروبن ويليامز. نزلتُ خائفًا وضائعًا، عثرتُ على سائق تاكسيّ ابن حلال، وأخبرته بأنني تعرضتُ للتثبيت والسرقة، وأنني سأعطيه أجرته وزيادةً حين أصل. أخذني إلى الشركة حيث عثرتُ على بعض النقود في أحد أدراج مكتبي، وما إن غادر، حتى استسلمتُ للبكاء أخيرًا أمام مرآة الحمّام، وأنا ألطم خديّ بشدَّةٍ، وأكاد أمزق لحم وجهي بأظافري.

(28)

كان حفل عيد ميلاد بدرية. تركتُهم وانسحبتُ إلى الشرفة بحجة التدخين ومعي قهوتي. رميتُ جسمي على مقعد خيزران، كأنني جثة. حطّت عليَّ شيخوخةٌ كئيبةٌ بين يومٍ وليلةٍ، منذ حادثة السرقة التي عرفتْ بها شيرين دون تفاصيلها المشينة. انهدّ حيلي، فلزمتُ البيت، واقتصرتْ إدارتي للشركة على اتصالات الهاتف. احتملتْ شيرين تقلّبات مزاجي في صبرٍ يُخجلني يومًا، ولا أطيقه أيّامًا، حتى تمنيتُ أن ننفجر ونتشاتم. رحتُ أنظر للسائرين في الشارع تحت العمارة، وهم يضحكون ويتحدثون في هواتفهم، وأتمنى لهم جميعًا موتًا بطيئًا.

دخلتْ عليّ بدرية الصغيرة، تمسكُ دميةً قماشيةً، تحركها من الداخل بيمناها، وقالت مُقلِّدةً صوت شخصيةٍ كارتونيةٍ لا أعرفها:

كل الناس عاوزه هاني، يلّا يا هاني، يلّا يا هاني.

لحق بها طفل ثم اثنان، وانضموا إليها في الهتاف. ابتسمتُ لهم في البداية، وأوشكتُ أن ألقي بالسيجارة، وأن أقوم معهم، لكنني تكاسلتُ، وداهمني شيءٌ كالخوف من هذه المخلوقات الصغيرة بوجوهها المرسوم عليها ملامح حيوانية بألوانٍ زاهيةٍ. أخافني صياحهم الحاد وتوقّدهم الجنوني، كأنهم كانوا مبعوثين من الجحيم لتعذيبي. أخبرتهم في هدوءٍ أن يذهبوا الآن، وأنني سألحق بهم حالًا، بعد أن أنهي السيجارة والقهوة، غير أن بدرية راحت تقودهم بمزيدٍ من الحماس:

يلّا يا هاني! يلّا يا هاني.

دون أن أشعر بما أفعله، صرختُ فيهم:

كفايه كده بقى!

حطّ صمتٌ، وهُرِعَ الأطفال الآخرون خارج الشرفة مذعورين، فيما بقيتْ بدرية لثوانٍ تنتظر إليّ في ذهولٍ، انتفضتْ فجأةً، وتقلصت تقاطيع وجهها الصغيرة، كأنها تصارع انفجارًا وشيكًا، ألقيتُ بالسيجارة بعيدًا، وهممتُ بالنهوض لأضمها، لكنها اختفتْ

من أمامي في لمح البصر. لم ترغب في الحديث معي رغم كل محاولاتي، وظلّت تبكي في غرفتها مع أمّها.

فسد الجو تمامًا. أخذتُ مفاتيح السيارة، وهربتُ من مسرح جريمتي. انتهى بي المطاف على بار أحد الفنادق، بعيدًا عن الجميع. وفي مرآةٍ وراء البار رأيتُ شخصًا لا أعرفه، وإن كان يُشبهني. وقلتُ لشبيهي في المرايا خلف الزجاجات المرصوصة إنني لا يجب أن أسمم حياتهم معي. فلأبتعد عنهم؛ لكيلا أسوّد عيشتهم أكثر من هذا. وقلتُ إن الانفجار الصغير الذي أفلتَ مني اليوم، قد تتبعه أمورٌ أخطر على الصغيرة التي لا ذنب لها في هذا كله. قررتُ أن أترك البيت وأعيش بمفردي في أي مكان، حتى لو ادّعيت لهم أن هذه هي نصيحة طبيبٍ نفسيّ.

وبينما أسير نصف مخمور في شوارع ما بعد منتصف الليل في وسط المدينة، تذكرتُ وحدتي القديمة، وحدتي الخالصة. لعلّها النقطة التي بدأتْ منها هذه الحكاية، ولدٌ صغيرٌ بمفرده في شقةٍ واسعةٍ، أمه غائبةٌ على الدوام، وهو يحدث أشقاء مُتخيلين، يبتكر معهم الخلافات والمصالحات. الغريب أن مذاقًا حلوًا لتلك العزلة عاودني للحظة. لكنها هذه المرة لن تكون عزلة مراهقٍ في شقة أهله، بل سأنطلق في الدنيا مثل رصاصةٍ طائشةٍ، وقد أنفصل عن شيرين، فتجد لها رجلًا حقيقيًا، حتى الشركة يمكن تصفيتها

وإغلاقها، فهي ليست في حقيقة الأمر أكثر من تسليةٍ محترمةٍ لابن الفنانة الكبيرة؛ لكيلا يعتبره الناس عاطلًا يعيش على أموال الست الوالدة.

وبينما أضع الخطط، وأتخيل خطوات تنفيذها واحدةً بعد أخرى، سمعتُ صوتًا رائقًا يناديني. كان عُمر نور في منتصف سهرة سُكرٍ وعربدةٍ، احتضنني واحتفى بي، وعرّفني ببعض أصحابه وزملائه. قال إنهم يحتفلون بسفره إلى الكويت بعد يومين للعمل في إحدى الصحف. كان الكل سعيدًا يُغني، فقلتُ أستنجد بهم من نار نفْسي، وسرعان ما وجدتني معهم في شقةٍ واسعةٍ بباب اللوق، تعيش فيها فتاةٌ ألمانيةٌ مع صديقها المصري، وتركتُ نفْسي للصخب والشراب، ورقصت بجنون.

في لحظةٍ ما، أذكر أنني كنتُ أبكي جالسًا على الأرض، وجواري امرأةٌ أجنبيةٌ تتحدّث العربية، وتربت على كتفي، وتمسّد رأسي، وأنا أحكي لها عن عبد العزيز، حتى انقلبتُ غائبًا عن الدنيا في مطرحي. صحوتُ على الضُّحى، فوجدتُ نفْسي ممددًا على سجاد الأرض وسط أجسادٍ أخرى غريبةٍ وعلب بيرةٍ وزجاجات خمرٍ فارغةٍ وأطباقٍ فخاريةٍ تطفح بأعقاب السجائر، غسلتُ وجهي، وتسللتُ للخارج، وبعد قهوةٍ في مقهى قريبٍ واعتصار للذهن، تذكرتُ أين ركنتُ سيارتي ليلة أمس.

وقبل أن أنفذ خطوةً واحدةً من رحلة هروبي وابتعادي، أصيبتْ ماما بأزمةٍ قلبيةٍ خطيرةٍ، فأفقتُ من أوهامي الصبيانية. تبددتْ كل خططي الشجاعة كأن لم تكن، ولم يعد يشغلني إلا هذا التهديد المفاجئ، أن أفقدَ أمّي. لفترةٍ طويلةٍ، لم أضع هذا الاحتمال في الحسبان بالمرّة، كأنها خالدةٌ لا تموت، ربما من يوم وفاة خالتي حسنية. لكننا الآن نحملها على محفة الإسعاف، والأعين المتلصصة من وراء النوافذ تلتذ برؤية المرأة القادرة نائمةً على ظهرها ومثبتةً بالأحزمة. ظللتُ عاجزًا عن تخيّل انتهاء وجودها، قلت ستقومُ، مجرد نكسةٍ صحيةٍ شديدةٍ قليلًا. وتلقائيًّا، ولّيتُ وجهي الباكي شطْرَ السماء، توسلتُ إلى اللـه، لائمًا نفسي على ابتعادي عنه كل تلك السنين، أسترحمه، وأستغفره، ليس من أجلي ولكن من أجلها هي. ثم أرجع، فأعترف لنفسي بأنني المحتاج إلى حياتها، لا هي، فأكلمه ضارعًا كأنه أمامي، أن يترك لي ماما، ولو بضع سنواتٍ أخرى، فقط حتى أشتدّ وأتأهّب لفراقها، لو استطعت ذاتَ يوم.

بعــد أن خرجتْ من غرفـــة العناية، كنتُ أجلــس بجانبها أقرأ القرآن هامسًــــا، أو أختلس ســــويعاتٍ من النوم في غرفة المرافق، وقد احتشدتْ بباقات الزهور التي تحمل أسماء لامعةً، اكتفى معظم معارفها بذلك، ولم يهتم بالزيارة إلا حفنةٌ معدودةٌ، ممثلةٌ من جيلها أو أخرى من جيل الوسط تموت في لعب دور الجدعة بنت البلد. ثم أتى عادل المُر، المخرج التليفزيوني، زوجها السابق في السرِّ، بدا

شيخًا طاعنًا في السن، ترتجف أطرافه بوضوح طوال الوقت، وإلى جانب عصاه، يستند إلى ذراع فتى وسيم من أحفاده. للوهلة الأولى، انزعجتُ من رؤيته ومن زيارته، ولكنّي سرعان ما سخرتُ من نفْسي، بل وأحسستُ بالامتنان لزيارته التي جعلتها تبتسم أخيرًا، وهي تستعيدُ معه الذكريات الطريفة، كان هو الذي يتكلم، وكانت هي تضحك بصعوبةٍ.

طب فاكرة إسماعيل عرعر بتاع الإضاءة اللي كان جسمه بيطلّع كهربا؟ فاكره مرّة سلّطناه على مديحة جودة عشان مش عاوزه تشتغل، وقعد يكهربها ويلمسها من كوعها ومن كتفها وهِيّا تصرّخ، وتقول خلاص هتنيل أصوّر، ابعدوه عني.

لم يستعد مع ماما إلّا أمورًا غير محرجةٍ، مما يخص عملهما المشترك والذكريات الحلوة، حكايات لا يخجلان من نشرها أمامنا أنا وحفيده، وقد بقينا في خلفية المشهد صامتين نتبادل النظرات الودودة من وقتٍ لآخر. طبع قُبلةً على يدها قبل ذهابه، وقد اهتزّ ماء مقلتيه الذائبتين في لون الرماد. شيّعتُه بنظري يبتعد في الممر ببدلته الحريرية البيضاء مثل ما تبقى من شَعر رأسه.

ما إن تعافت ماما قليلًا، واستطاعت النهوض ودخول الحمّام والصلاة على المقعد، حتى أصرّت على العودة إلى البيت، غير مكترثةٍ لنصائح الأطباء بأهمية الرعاية والملاحظة لفترةٍ من

النقاهة. وهزمتنا جميعًا، وارتضت فقط بممرضةٍ تزورها في البيت يوميًّا. شكرتُ الله الذي استجاب لي، ونويتُ أن أتشبث بكل تلك النعم الثمينة التي أعماني عنها وهمي الأحمق بفارس الأحلام.

استمرّ هذا العيد، ونحن ملتفون حول ماما، نستجيب لأهون رغباتها لأيام معدودةٍ، حتى كان عصر تلك الجمعة المشؤومة من سبتمبر، بعد أقل من أسبوعين على خروجها من المستشفى، حيث كانت تجلس على أريكتها الحبيبة وأمامها على المنضدة الفاكهة والريموتات، ممسكة بالعدد الجديد من مجلة الإذاعة والتليفزيون، وتتبع السطور بعدستها المكبرة مقتربة للغاية من الصفحات، ثم همهمت دون أن ترفع عينيها عن المجلة:

مسلسل ساقية الأيام هيتعرض من أوّل الشهر يا ولاد، لازم نسجّله المرة دي بقى.

فجاوبتها شيرين على الفور:

هَسجله كل يوم يا ماما، ده من أحلى أدوارك.

عاد الصمت ليسود غرفة الجلوس دقائق أخرى، قبل أن تُخفض ماما العدسة، وتضعها على حجرها، وترفع أنفها قليلًا، كأنها تشمّ شيئًا في الهواء، ثم سألت:

إيه الريحة الحلوة دي يا شيرين؟ إنتي مولعة بخور ولا إيه؟

نظرتْ شيرين إليّ، ثم أجابتها بأنها لم تشعل أي بخور، لكن لو كانت تحب، فسوف تقوم تبخّر الشقة. فهزت ماما سبابتها نافيةً، وأصرّت أنها تشم رائحةً حلوةً جدًّا في الهواء:

كأن جنينة ورد طايرة في الجوّ يا ولادا!

ابتسمنا دون أن ندري ماذا نقول، وابتسمتْ هي لنا وأعيننا مُثبتة عليها، قبل أن يميل رأسها ساقطًا على صدرها بحركةٍ واحدةٍ سريعةٍ.

(29)

شاركتهم في التمثيلية مشهدًا بعد آخر دون دمعةٍ واحدةٍ. صلّيتُ على أمي متقمصًا شخصيتي تمامًا، في مسجد الكواكبي في العجوزة، ثم خرج نعشها متوجهًا إلى مقابر البساتين. وأنا مندهش من قدرة هذا المخرج المجهول على حشد كل هؤلاء الممثلين والمجاميع في دقائق، ثم تحريكهم بمثل تلك البراعة ودفعهم للاندماج في أدوارهم إلى هذا الحد.

كنــتُ أعــرفُ أنها الآن مختبئــة في هذا الصنــدوق المغطى بالأخضر المزركش بآيات قرآنية مذهبة، تســخرُ منا جميعًا. أسندُ

معهم جسـد ماما في كفنها الكتان الأبيض، وننزل به حوش النساء في مقبرة الأسرة. كنتُ مقتنعًا بأنني أحلم، وأن كل هذا سوف ينتهي بعد دقائق حينما أصحو كسلان، وأخرج من غرفتي لأجد ماما في موضعها المفضّل علـى الأريكة. من هنا أتت جرأتي، كنتُ ألعب مع ماما دورًا، وطوال الوقت أكلمها بيني وبين نفسي، هازئين معًا من كل ما يحدث حولنا. نحن نصوّر فيلمًا، وقد أصرّتْ أن أشاركها فيلمها الأخير؛ قالت لهم إن ابني موهبةٌ واعدةٌ، أعطوه فرصةً. هل يستغني عني المخرج لو ظللتُ هكذا عاجزًا عن البكاء؟

وقفتُ أتلقى عزاءَك يا ست ماما وكأنكِ قد متّ حقًّا. ارتدى الجميع السواد، وأتقن بعضهم الدور، حتى بكوا وسندوا رؤوسهم على صدور بعضهم منتحبين، ثم وقفوا أمام الكاميرات لقول كلمةٍ أو اثنتين عن الفنانة الراحلة. قرب نهاية العزاء جلستُ للحظات أستريح وأدخن سيجارةً، وأسأل نفْسي متى تظهر ماما، وتخرج لهم لسانها وتسخر منهم جميعًا. أغمضتُ منصتًا لصوت المقرئ الشهير يكرر آيات من سورة مريم ملوّنًا في أدائه، مرةً تلو الأخرى. غبتُ للحظاتٍ كأنني غفوتُ، فرأيتُ وجه ماما، كما كانت قبل ثلاثين عامًا، وهي تبتسم لي بينما تجرّب ثوبًا جديدًا أتذكره جيدًا، فستان على الطراز الصيني بصف أزرار مائل على جانب الصدر، وقماشه من ساتان ناعمٍ ومطبوع بوردٍ كبير زاهٍ. سألتني وهي تدور على كعبها العالي:

هاا إيه رأيك يا سي هاني؟

قبل أن يجيبها هاني الصغير، انتبهتُ على يدٍ تمس كتفي، ففتحتُ عيني لأرى عبد العزيز واقفًا بجانبي، ينظر نحوي بأسفٍ صادقٍ. قدّم لي تعازيه، وأخبرني بأنه لم يعد من ألمانيا إلا منذ ساعاتٍ قليلةٍ، ولولا ذلك لكان إلى جانبي من أوّل لحظةٍ. بدا مجرد شخصٍ آخر أتى للعزاء، وقد سلبه فيلم ماما الأخير هذا كل سحره وأُبهته. كانت نشوة حلمي الصغير بأمي لاتزال مسيطرةً عليّ، كأنها كانت تؤكد لي أنها لم تمت. وطوال الوقت كنتُ أسأل نفسي متى سيرحل كل هؤلاء؟ متى أتمكّن من الانفراد بماما من جديدٍ، لأخبرها برأيي في فستانها الصيني الجميل؟

لأيام ظللتُ أنام وحدي في غرفتها، أشم رائحة ثيابها، واقفًا على عتبة الجنون. حتى أحسستُ بأنه قد آن الأوان لأن أبكي، ولو بضع دمعاتٍ، ساعتها فقط سأعترف بأن ماما ماتت وأنني أبكيها، ساعتها فقط سأفرغ كل الغضب والخوف من داخلي. لملمتُ ألبومات الصور القديمة، وشرائط الفيديو العائلية أو أعمالها المسجلة على أسطوانات وخطاباتها وبطاقاتها البريدية، وحزمتُ ذخيرتي تلك وقررتُ أن أعتزل الدنيا في مكتبي، إلى أن أبكي. أعطيتُ الموظفين إجازةً مفتوحةً بأجر، وأمّنتُ نفْسي بمخزونٍ كافٍ من الويسكي، ثم عسكرتُ هناك متنقلًا ما بين جهاز الفيديو العتيق، وشاشة الكمبيوتر.

بدأتُ بأقدم الوثائق، حين كانت الأختان، بدرية وحسنية، زهرتين واعدتين ببشرةٍ عاجيةٍ وأعينٍ عسليةٍ. كنتُ أدخل إلى الصور، وأتكلم معهما، ونضحك، وأسمع ضحكهما يتردد حولي. أسرّتا إليّ بأشياء كثيرةٍ ونحن نشرب معًا كأسًا بعد أخرى، عن الأيام التي غمستا فيها الخبز بالزيت لعدم وجود طعام، وعن انتظار الفستان حتى يجف، وعن قلم الكحل الوحيد وإصبعٍ أحمر الشفاه الوحيد، وعن فرحة أول دورٍ ناطقٍ في فيلم، وعن الأيدي الطويلة للفنيين وعمّال الأستوديو.

لأيّامٍ وأنا أنتقل من صورةٍ إلى فيلمٍ إلى مسلسلٍ، دون أن تبتلّ عيناي بدمعةٍ واحدةٍ رغم الويسكي والوحدة والاختناق. وبين أطياف السُكر كنتُ كثيرًا ما أراها، واضحةً وحيةً وملموسةً أكثر من كل ما حولي، تضحكُ وتقتربُ وتلفُّ رقبتي بفرائها ذي الريش الأخضر الفستقي. ليس في العالم كلّه إلا أنا وهي.

اجعلني أبكي يا رب، وأنا أرجع عن هذياني هذا، وأصدّق وأستريح. أنا يا ما بكيت، لأتفه الأسباب، والآن لا أستطيع. أدور بين غرف الشركة حاملًا كأسي، بنصف ثيابٍ، ودون شعاع نورٍ واحدٍ يتسرب من الخارج، مُحدِّثًا نفْسي، لو لم أبكِ، فلأمت أحسن. كانت موجودةً كل تلك السنين الأخيرة في البيت، وأنا منفلتٌ في الشوارع مسعورًا وراء شهوتي ومزاجي، والآن أين هي؟ ثم

أخاطب ماما؛ اظهري وباني يا ست الكل، يا بدرية، يا بدردر، يا بدارة، كفاية دلال، أين تختبئين؟ هل ذهبتِ عند ربنا أنتِ أيضًا حقًّا؟ ثم أخاطبُ الله؛ خذني مادمتَ أخذتها، كيف تتركني وحدي هكذا، وأنت تعرف أنه لم يكن عندي غيرها، وأنت تعرف أنني أضعف إنسان في الدنيا من غيرها؟ لماذا هي؟ كانت متفرغةً لعبادتك ليلَ نهار، وتحسن إلى الغلابة والمساكين، فلماذا أخذتها مني؟

بعد عددٍ لا أعرفه من الأيام، عجزتْ شيرين عن تحمّل المزيد من القلق، خصوصًا أنني فصلت هاتفي المحمول وهواتف الشركة الأرضية، ولم تجد بُدًّا من الاطمئنان عليّ من خلال البوّاب الذي راح ينقل لها حالتي التي يطلع عليها سريعًا، كلما أتيحت له فرصة اختلاس نظرة عليّ عند شرائه بعض طلباتي. وحين تجرأتْ وأتتْ إليّ، طردتُها تقريبًا. لكنها لاحظتْ سُكري واضطراب عقلي وحالة الفوضى في الشركة، فأصابها الذعر، وبدأت تلجأ لآخرين، كلّمتْ أسماءَ، وأفضت لها برعبها من استمرار حالتي هذه طويلًا، ومن احتمال أن أفعل بنفْسي شيئًا. عرضتْ عليها أسماء أن يأتي عبد العزيز إليّ في الشركة، فيحاول استدراجي خارج عزلة الحداد المتطرفة تلك.

استيقظتُ ذاتَ ظهيرةٍ على جرس باب الشركة يدق بإلحاح، فقمتُ من على الأريكة مُستفَزًا ومستعدًّا للانفجار في البوّاب أو

أيًّا كان. فتحتُ الباب مباشرةً، فوجدته أمامي، بسيماء جادةٍ كمن أتى في مهمةٍ رسميةٍ. ارتبكتُ، وفكرتُ في أكثر من شيءٍ في اللحظة ذاتها، في ذقني النابتة وعينيّ المنتفختين المحمرتين، وفي نقمتي عليه وكأنه كان سببًا خفيًّا وراء موت أمي، وفي أنني أودّ لو أبكي الآن فورًا لو استطعت. لحظاتٌ مرّتْ قبل أن أعرض عليه الدخول. أغلقتُ الباب، والتفتُ نحوه، لم يمهلني طويلًا، حتى أخذني في حضنه مرةً واحدةً، وراح يمسّد ظهري بحنوّ.

ظللتُ سلبيًّا للحظاتٍ، لا أريد أن أبادله الاحتضان، ولكني شممتُ رائحةً قديمةً تنبعث من جسده، فسرى فَوحها الأليفُ في دمي خفيفًا دفّاقًا، كأنها رائحة أبي. هنا فقط حدثت المعجزة، وتجمّعتْ بحيراتٌ صغيرةٌ من الدموع بين جفنيّ، وكدتُ أشهق من الفرح حين استشعرتُ اقتراب البكاء أخيرًا. فاحتضنتُه أنا أيضًا، متشبثًا به وشرعتُ أبكي، بهدوءٍ ودون نشيجٍ أو نحيبٍ، ليس أكثر من خيوط ماءٍ مالحٍ تسيل على وجهي، وما هي إلا ثوانٍ حتى تصاعدت الوتيرة بسرعةٍ، فرحتُ أشهق وأنهنه على صدره، حتى سمعتُه يهمس بصوتٍ متهدجٍ وأنفاسه تدفئ عنقي العاري:

أنا أمي ماتت وأنا عندي تمن سنين.

قاسمني حفلة البكاء الصغيرة هذه، يحتضن كلٌّ منا الآخر. بقينا هكذا ربما عشر دقائق أو أقل، بدت عمرًا من الحداد، فكأنّ كلًّا

منا لم يكن يبكي فقط أمه الراحلة، سواء منذ أيام أو منذ عشرات السنين، بل نبكي أيضًا الوحدة التي عشناها، وتلك التي سنعيشها، ولكن معًا هذه المرة.

(30)

أوّل مرةٍ في حياتي أرى السماء تمطرُ في مايو، كانت بعد ترحيلنا إلى سجن طرة المزرعة، بعد العرض على النيابة وقرارها استمرار الحبس على ذمة التحقيق.

أوقفونا في الساحة طابورين لاستلامنا، عندئذٍ نزلَ المطر فجأةً، لدقائق معدودة، رغم حَرّ مايو، ولا أرى لهذا أيَّ تفسيرٍ حتّى الآن. أذكر أنّ كريم سعدون رفعَ وجهه خفيةً ببطءٍ، ليتلقّى بعض حبات المطر الكبيرة الدافئة، فانزلق بعضها على خطوط وجهه المكدود. ما كادَ طيف ابتسامةٍ موجوعةٍ يتردد على شفتيه، حتى هوت على

مؤخرة عنقه صفعةٌ هائلةٌ مصحوبةٌ بما قُسم من السُباب. كنا آخر النهار، ورغم أنهم لم يبخلوا علينا بالاحترامات الواجبة باللسان والأيدي والأقدام، فلم يبدُ أن لديهم الوقت والطاقة لاستقبالنا كما يليق، فأجّلوا ذلك حتى طلوع النهار. وسرعان ما حشرونا جميعًا، أكثر من خمسين رجلًا، في غرفةٍ لا تكاد تتسع لعشرين، بلا أيِّ نورٍ، ولا غطاءٍ واحدٍ على أرضيتها المنقوشة بالبراز الجاف. ورغم ذلك غفوتُ بسرعةٍ من الإرهاق، وصحوتُ من جديدٍ على شيءٍ يزحف فوق رقبتي. انتبهتُ، وأمسكتُ بالعنكبوت الكبير بين يديّ، وأردتُ أن أتحدّث إليه، أن أسأله لماذا يطاردني هو وعشيرته كلها أنا تحديدًا من بين جميع الناس، منذ أن كنتُ طفلًا. كأنه عنكبوت واحد ينسجُ خيط حياتي منذ مولدي وحتى الآن، ولن يرحل إلا بموتي.

في الصباح، أخرجنا الحرّاس وأمرونا بخلع جميع ثيابنا إلا الداخلية، لكنهم توقفوا أمام واحدٍ منا بدا لهم أنثويًّا للغاية وأمروه أن يخلع جميع ثيابه، كأنما ليتأكدوا أنهم لا يستضيفون أنثى كاملةً بين عنابرهم، وحين دارى بكفيّه حمامته الصغيرة المنكمشة، ضربوه وأمروه أن يكشفها، وعند رؤيتها شبعوا سخريةً وضحكًا. ثم أسلمونا لحلّاق السجن، كان فيه شبهٌ بالممثل عبد السلام محمد، الفرفور الجميل، الذي زارَ أمي قبل وفاته بشهورٍ قليلةٍ يومَ شم النسيم، وأكل معنا الفسيخ والرنجة والبصل، وكان طيبًا أنيسًا لا يتوقف عن

الضحك والمزاح. غير أن حَلّاقنا لم يكن له نصيب من هذا، كان أصفر الوجه مسمومًا وكريهًا، ظلّ طوال الوقت يشتمنا ويضربنا أحيانًا بالمكنة على رؤوسنا، وهو يردد من حينٍ لآخر:

أنا لازم أحرق العدّة دي كلها، أكيد كلكم عندكم الإيدز، وهتعدوا بقية المساجين اللي ملهمش ذنب.

ثم بدأتْ حفلة الضرب على أيدي مساجين آخرين تلقوا الأوامر بذلك، لا أدري كم استمرت، لكنها عندما توقفتْ، وتأكدتُ تمامًا أنني لم أعد مضطرًا لحماية رأسي بذراعيّ والتكوّر حول نفسي على التراب، شبه عارٍ تمامًا، شعرتُ أنني أسعد إنسان في الوجود لمجرد أن العلقة انتهت، شعرتُ أن الألم عاديٌّ ويمكن احتماله، ما دام الضرب قد توقّف.

كان لا بُدّ من فرزنا بطريقةٍ ما، خشيةً منهم أن نواصل فجورنا تحت سقف الحكومة. قسّمونا على عنبرين، واحد للمتزوجين، وآخر لغير المتزوجين، على اعتبار أنه التقسيم الوحيد الذي يمكنهم الاعتماد عليه في فرز السلبيين عن الإيجابيين. ثم احتاروا في أمر شخص غير متزوج، لكنه يملك جسد بطل كمال أجسام، كان اسمه وسامًا أو بسّامًا، لم أعد أذكر. لم يوحِ شكله بأيّ شذوذٍ، فقرّر الضابط ببساطة أن يضعه في غرفةٍ بمفرده، معزولًا عن جميع الآخرين، حتى يحسم أمره فيما بعد. ولثلاثة أيّامٍ تاليةٍ ظلّ ذلك الشاب محبوسًا

بمفرده في غرفةٍ ضيقةٍ للغاية على مدار الأربع وعشرين ساعة، حتى كاد يُجنُّ، وصرخ طالبًا منهم أن يضعوه مع آخرين، سواء مع العزّاب أو المتزوجين، وهنا تحرّكتُ بسرعةٍ، واتفقتُ مع شاويش استأنستُ فيه لمسةَ طيبةٍ أن يضع رجل العضلات مع المتزوجين، وأن يضعني أنا في عنبر العزّاب، فوافقَ بعد جدلٍ قصيرٍ. كان كل ما أردتُه هو أن أكون مع كريم في نفْس العنبر. ما إن رآني أدخل العنبر، حتى نهض، واستقبلني على الباب كمن يستقبل أخًا طال غيابه، بعد قليلٍ، أرحتُ رأسي على كتفه، وبكيتُ، وهو يطبطب عليّ. تجاهلنا التعليقات السخيفة التي تناثرت حولنا عن حكايتنا معًا وفيلم الحب في الزنزانة.

لشهرٍ كاملٍ بقينا محبوسين في ذلك العنبر دون خروج، ولولا النقود التي رشّها البرنس بغير حسابٍ، لهلكتُ جوعًا قبل أن أموت من الخزي وضيق التنفس والأفكار السوداء. لم يكن باب العنبر يُفتح إلا مرةً أو مرتين في اليوم؛ ليعطونا الجراية أو أيّ طعامٍ وصل لأحدنا، بعد أن تكون أصابعهم قد غاصت في أطباق الأرز والطبيخ أو في لباب الخبز وعُلب الجبن، بحثًا عن أية موادٍ مُخدّرةٍ أو آلةٍ حادةٍ أو شريحة موبايل. ورغم ذلك التفتيش كانت أقراص البرشام تتسرب إلى العنبر، بإشرافهم أو من وراء ظهورهم لا أدري، كما كان بعض السجّانين يُسرّبون إليّ خلسةً، حتى فرشتي،

أوراقًا نقديةً محدودةً فئة الخمسة والعشرة، حتى أسيّر بها أموري، والفضل للبرنس بالطبع.

لم تكن تتوفر مياه في الحمّام البشع طوال النهار، إلا مدَّةَ ساعةٍ واحدةٍ ما بين الخامسة والسادسة مساءً، فاشتعلت المشاجرات كل يوم في هذا الموعد حول من يذهب للحمّام في تلك الساعة وغسيل الهدوم وأدوات الطعام، وكان نبطشي العنبر يحسمها حسب تفضيلاته غالبًا. تعلمتُ أنا وكريم ومحمد سكّر أن نذعن ونطيع ونفعل المستحيل كي لا نستفز أحدًا. نملأ زجاجاتنا بأي طريقة خلال تلك الساعة، مهما تعرضنا لأذى أو تحرّش، ومع ذلك لم نسلم بقية اليوم من السطو على تلك الزجاجات، حتى بعد أن أحسّ بقية المساجين بأنني مريضٌ وأن هناك توصيةً بعدم التعرّض لي، فأخذوا يتعاملون معي بمزيدٍ من الحرص، أو ربما بشيءٍ من التدليل والاسترضاء.

وزّعوا علينا بطانيةً لكل واحد، وكانت وسائدنا عند النوم هي أحذيتنا، نلفّ نصف البطانية الآخر حول جسمنا، ونصفها مفروش على الأرض اتقاءً لرطوبة الأسمنت التي تبري العظام في الليل. لا زيارات، ولا خطابات، ولا اتصال بالخارج من أي نوع، ولم يسمحوا لنا بتنفس هواء آخر غير هواء العنبر الفاسد إلا بعد أسابيع عديدةٍ لم أعرف عددها، ولمدة ساعتين فقط كل يومٍ، ساعة في أول

النهار، وساعة في آخره، وليس في الساحة حيث الهواء الطلق، بل فقط في الممرات الداخلية بين العنابر، غير أني أذكر الآن مقدار فرحتي بكل دقيقةٍ من تلك الفسحة، وأنا آخذ أنفاسًا متلاحقةً من الهواء النقي، مستندًا على طول الجدران، ومحركًا جسدي بالكاد.

كان سجن طرة، بعنابره المختلفة، يضم نجومًا ساطعةً في عالم الجريمة والإرهاب ومناهضة الدولة، قتلة السادات يواصلون عقوبة المؤبد، وأعدادًا غفيرةً من جماعة الإخوان المسلمين، بمن في ذلك مرشدها آنذاك، وعددًا آخر من المتطرفين، مصريين وغير مصريين، ينتمون إلى كياناتٍ مختلفةٍ، مثل القاعدة وجماعاتٍ جهاديةٍ أخرى، كنتُ أسمع عنها فقط في التليفزيون. رأيتُ كثيرين من هؤلاء بعد أن سمحوا لنا بالخروج من العنابر كل يوم، رأيتُ ذوي اللِّحى الطويلة يتجمعون ويمارسون الرياضة، ورأيتُ أيضًا كيف تتكوّن حلقات النقاش بين أطيافهم المختلفة، وبينهم جميعًا وغيرهم من الليبراليين واليساريين الأقل عددًا. وغير هؤلاء جميعًا، كان هناك مسيحيون تحوّلوا للإسلام، ومسلمون تحوّلوا للمسيحية، ومعتقلون آخرون لأسبابٍ لا نهاية لها. كنّا طيفَ قوس قزحٍ هائلًا، مزيجًا عجيبًا لا يجمعه سوى شيءٍ واحدٍ، غضب السادة علينا، سواء كان غضبًا مبرَّرًا وله دوافعه الشرعية، أو لمجرد أن شكلنا لم يكن يعجبهم.

كان كريم، وسط هذا كله، هو نافذتي الوحيدة التي رزقني الله بها؛ لأتطلع إلى شيءٍ مختلف، شيء يكسر القبح وينفيه. كريم ووجهه الذي صار تأمله خلسةً عادةً من عادات سجني، وصوته الذي أضحى كأنه إذاعة داخلية تسرّي عني وتطمئنّي، وحكاياته العجيبة، التي لم أعد أهتم بأن أعرف أكانت وقائع جرتْ له فعلًا أم أنها لا تختلف كثيرًا عن رؤيا الغلام الكردي الأشقر الذي سيهزم كل الأديان؛ من أجل أن يُعلي كلمة قوم لوط في آخر الزمان.

لم يبدأ كريم رواية تلك الحكايات إلا بناءً على طلبي منه، في ليلةٍ سوداءَ أذكرها جيدًا، بعد مشاجرةٍ في العنبر كنتُ أنا سببها دون قصدٍ. نشأ الخلاف المبدئي نتيجةَ تنافس اثنين ممن يتاجرون في الأقراص المخدّرة عليّ كزبونٍ جديدٍ، ومَن منهما سوف يبيع لي ما أحتاجه، وقد صارَ واضحًا للجميع اعتمادي عليها؛ لأتمكن من التنفس بهدوء ثم النوم. وبعد أن اتفقتُ مع النبطشي على أن يمدني بها، اقترب آخر من نمرتي ذات مساء ومعه زجاجةُ مياهٍ كبيرةٍ يريد أن يبيعني إياها على سبيل التمويه، وفي الخفاء ناولني قرصيّ أبيتريل هديةً وفتْح كلام. لا أدري كيف وصلت إخبارية بذلك للعِثْر، النبطشي، فشبَّت النار في المكان الضيق، والتحم رجال هذا برجال ذاك لبعض الوقت، قبل أن يهمدوا لتضميد الجروح والتقاط الأنفاس. ليتلها كان سعيد جمجمة قد تناول كميةً هائلةً من البرشام. ووسط ضجّة المشاجرة وفوضاها، قام ببساطةٍ، واتجه

إلى شنطةٍ بلاستيكيةٍ معلقةٍ بمسمار فوق فرشتي، وفيها أرغفة فينو وبعض الجبن والزيتون وعلب تونة وخضار قليل، طعامي الذي يحضره لي أحد الحرّاس من وقت لآخر، فأتقاسمه مع كريم وسكّر اللذين لم يسأل عنهما أحد حتّى الآن.

تناول سعيد الشنطة رغم صياح سكّر فيه ونظراتنا المستنكرة. ثم نهض كريم، واستوقف جمجمة، فإذا بالمبرشم ينزل على وجهه الجميل بصفعة ترددت أصداؤها في العنبر كله، وهو يقول له:

مش قلنا توطو صوت التليفزيون شوية يا ولاد المرة! مش عارف أنام منكم.

لم يكن في العنبر أي تليفزيون بالطبع، كان سعيد في الحقيقة يتخيّل أنه في بيته وبين أشقائه الصغار، أو هذا ما خمّنه البعض من كلامه قبل وبعد المشاجرة. حدّق فيه كريم بعينين دامعتين ذاهلتين، ثم عاد مكسورًا إلى فرشته بجانبي. ووسط ضحك وسخرية العنبر كله، أرسل النبطشي أحدهم، فضرب سعيد جمجمة على رأسه مرةً بعد أخرى بقبضةٍ مضمومةٍ عسى أن ينتبه قليلًا، وأخذ منه شنطة الأكل، وأعادها لنا، فانتبه سعيد للحظات، لكنه سرعان ما عاد يقول:

إنت جَي تضربني في بيتي كمان؟

ضحك الجميع من جديدٍ، وضحكوا أكثر حين نادي جمجمة على أخته هدى بعد قليلٍ؛ لتعدّ لقمةً له هو وضيوفه. حتى كريم ضحك، ومســح دمعتين، واستأذنني أن يعد لسعيد سندويتشًا. نعم، أنا رأيتُ كريم ســعدون، رأيته وهو يفتح رغيف الفينو بأصابعه، رأيته وهو يضــع فيه الجبنة وقطع الطماطم، ثم وهو يقوم ويســير حتى نمرة جمجمة، ويعطيه الرغيف، فيرد عليه ذلك الغائب في دنياه الخاصة متأثرًا برقة وعذوبة أخته الصغيرة:

تسلميلي يا هُدى، أشوفك عروسة يا رب.

لتفرقع الضحكات والتعليقات بين أرضية العنبر وسقفه إلى ما لا نهاية. في تلك الليلة ذاتها كنتُ أكثر تعبًا من أن تؤثر فيّ الأقراص التي رحتُ أتناولها بلا حسابٍ. حينما طال سكوت كريم رجوته أن يتحدّث، أن يحكي لي عن حياته أو أي شيء آخر؛ كي أستطيع أن أهرب من أفكاري السوداء وأروح في النوم، ومنذ تلك الليلة تواصلت حكاياته الهامسة حتى قمنا من جوف هذا القبر، بعد نحو سبعة شهور.

قال كريم ليلتها مضطجعًا، ونظرته ثابتة على سقف العنبر، وكأنه يرى هناك ما لا يراه أحدٌ سواه:

كان ياما كان، ولد اســمه كريم، عايش فــي بلد صغيّرة جنب طنطا اسمها خُرسيت. الاسم فرعوني قديم، يعني خور سِت، يعني

مكان عبادة الإله سِـــت، إله الشـــر، تخيّل ناس تعبد إله الشر يبقوا عاملين إزّاي؟!

وابتسم لتساؤله هذا، فبانت غمازتاه.

(31)

لم يرَ كريم أباه، إلّا في صورةٍ قديمةٍ ظلّت أمه محتفظةً بها بين كنوزها الفقيرة والمدفونة في سحّارة الكنبة. لكنها كانت تحكي له عنه، بلا محبةٍ في صوتها، ولكن باندهاشٍ وإجلالٍ، كأنها تحكي عن وليٍّ صالحٍ، وليس مجرد مجرمٍ صغيرٍ.

لم أعرف إن كانت أمه هي مَن حشا رأس كريم بالخرافات، أم أنه وُلِدَ مستعدًّا لذلك بالفطرة. في طفولته حكت له عن أبيه في الهدنات السريعة التي كانت تلتقط فيها أنفاسها وتستريح فيها من الشقاء، ليلة عيدٍ بعد أن تحممه في الطشت الصغير، وتلبسه ثيابًا

نظيفةً، وتأخذه في حضنها، في غرفتهما الصغيرة ببيت أهلها. فامتلأت رأسه بحكايات أقرب إلى الأساطير عن سعدون الحلبي، الفتوة وتاجر الحشيش، الذي يُقال إن أجداده قد وفدوا من الشام إلى مصر قديمًا، وتزوجوا منها، وأنجبوا البنين والبنات، وإن ظلّ لقب الحلبي أمارةً واضحةً على الجذور البعيدة لهم. لم أعد أذكر الكثير مما حكاه لي على مدى أسابيع وشهور الحبس. لكني أذكر مثلًا أن سعدون ذلك قد حصل على قوته الخارقة عندما شرب من مياه النهر وهو ثابت، أي بينما كان النيل ساكنًا تمامًا لا تهتز له موجةٌ واحدةٌ، وهو ما لا يحدث إلّا مرة كل ألف سنة، ومن يشرب من المياه الساكنة للنهر، يملك قوةً لا يستطيع مخلوق أن يتغلب عليها.

المؤكد أن أم كريم أنجبته وهي تشارف الأربعين تقريبًا، امرأة مهتزة العقل قليلًا بجمالٍ ريفيّ فاضحٍ. زوجها الأول لم ينجب منها، فطلقها، وسرحتْ هي لسنوات بالخضراوات، بصوتها الريّان تنادي في حواري خورست:

ورور يا جرجير، أحلى من الموز يا فجل، بنزهير يا ليمون، يا خس يا مليجي يا أحلى من الشهد.

أو هكذا كان يحلو لكريم أن يهمس لنا في ركننا من العنبر، مُنغِّمًا صوته بالنداء. عاشت في كنف أشقائها الغلابة، مُطلّقةً جميلةً تلعقها ألسنة السوء في الرواح والمجيء، إلى أن رآها المِعلّم سعدون

ذات مرّةٍ وهو يفتتح يومه على المقهى، فبهر بياضُها عينيه وسط هلاهيلها السوداء، فنادى عليها:

معاكي لمونة يا حلوة؟

فابتسمتْ له ببلاهة:

ما حلو إلا لسانك يا معلِّم.

وكانت تخشاه كالجميع. أمسك ليمونةً، وقرقشها كاملة بقشرتها تحت أسنانه الكبيرة، وهو يثبِّتُ عينيه على البائعة الساذجة، وقد كزّت على أسنانها في مقاومةٍ بائسة للغثيانِ، وإن نجحت في الاحتفاظ بابتسامتها.

بعد ذلك اللقاء الأوّل، سأل الفتوة عن أصلها وفصلها، ولأنه كان يخاف الله وحساب الآخرة، فقد أرسل إلى أشقائها رسولًا في الليلة ذاتها، وفي بحر أسبوع انضمت الست شافية، والدة كريم، إلى طابور زوجات المعلِّم سعدون السابقات، وأخذ لها غرفةً فوق سطوحٍ غير بعيدٍ عن بيت أهلها، الغرفة ذاتها التي سيولد فيها هذا الولد الجميل، وسيعيش بين جدرانها إلى أن يهج إلى العاصمة.

لم أستطع حتّى أن أتخيّل كيف يمكن لشابٍ أن يعيش مع أمه في غرفةٍ واحدةٍ، سقفها من الطين وعروق الخشب، وبحاجة لإصلاح دائمًا، حتى أن السماء عندما تمطر، يتسرب الماء في خيوطٍ عليهما،

فترصّ أمه كل الأواني الخالية تحت المواضع التي يسقط منها الماء. يحكي كريم بلا تباكٍ ولا شجنٍ، بل دائمًا بسخريةٍ وابتسامةٍ تظهر وتختفي، وأتخيّل أنا مشهد الأوعية التي تجمع ماء المطر قطرةً بعد أخرى، بينما تظهر أمي فجأةً في ذلك المشهد الفقير، على شاشة التليفزيون الأبيض في أسود في الغرفة ذاتها، وهي تهمس لعشقيها في التليفون بأن الجو خالٍ عندها في البيت، ولا بُدّ أن يأتي إليها حالًا. وكريم يبتسم من تحت اللحاف، مراهقًا يتوحّد بالممثلة الجميلة، لا بالعشيق الوسيم. إلى أن تمتلئ الأوعية، فيقوم نافخًا من ضيقهِ لإفراغها في الحمّام الوحيد بالطابق الأرضي، منقلًا خطواته بحذرٍ؛ كي لا تنزلق قدمه في طين السطح والسلالم.

ظلّت شافية زوجةً للمِعلّم سعدون قرابة العام إلى أن رابَ بطنها بثمرته الوحيدة. لم يُكتبْ للفتوة أن يحمل هذه الثمرة بين يديه، فقد قبضتْ عليه الحكومةُ في كمينٍ محكمٍ، وكما هو متوقعٌ، لم تستطع قوة الشرطة أن تصل إليه، إلاّ بعد خيانة أقرب رجاله إليه، على طريقة أدهم الشرقاوي. لم تكتفِ الحكومة بالقبض عليه هو وصبيانه، بل أهانتهم أمام الأهالي، فألبسوهم طُرحَ حريمٍ، وحملوهم على حميرٍ بالمقلوب، وساقوهم في الشوارع على سبيل الجرسة والعبرة. لم يكن كريم قد فُطم بعد حين سمعوا أن سعدون الحلبي مات في السجن، قيل من الحسرة، وقيل قتلوه، وقيل حفر نفقًا وهرب منه، ولفّقت الحكومة مسألة موته لتحفظ كرامتها، فلعلّه

لا يزال حيًّا في مكانٍ ما، وسيظهر ذات يوم، ويعود من جديدٍ، فيلمّ شمل أولاده المبعثرين ما بين القاهرة والغربية؛ ليعيشوا كالأمراء تحت ظل مملكته المستعادة.

حتى في تلك الساعات الحالكة في السجن، وبينما ألهث وأنهج وأشد برشامًا مطحونًا بأنفي عبر عملات ورقية ملفوفة، كان واضحًا لي أن كريم قد استعان بأفلامٍ كثيرةٍ، مثل الحرافيش، والتوت والنبوت، وسعد اليتيم، وهو ينسج أسطورة أبيه.

وبعدين طردوني من المعهد بقى.

هكذا يقول فجأةً، قافزًا على سنوات من الحكاية.

كان يدرس في أحد المعاهد الأزهرية التحقَ به بعد الإعدادية، ويخرّج مُعلمين أزهريين للمرحلة الابتدائية فقط. ترك المعهد لأسبابٍ كثيرةٍ، منها ما يتعلق بأطواره الغريبة، السَرحان وكلامه الغريب عن الله الذي يتحدّث إليه أحيانًا، الكلام الذي كان يعرضه لسخريات الطلّاب وتهديدات الملتزمين منهم، خصوصًا بعد أن تأكدوا مما أُشيع عن ميوله الجنسية، وضبطوه في الحمام مع أحد الفرّاشين، فأخذوه إلى المدير بعد توقيع جزاءٍ على الفرّاش. قال له مدير المعهد بهدوءٍ:

مش عاوز أشوفك هنا غير أيام الامتحانات. تيجي زيّ الكلب

تمتحن وتمشي، وإلا وشرف أمي أعملك قضية وأحبسك.

لم يزعل كريم، بل على العكس، أحسّ أنه استراح من المشوار الطويل إلى المعهد، ومنه إلى البيت كلَّ يوم. بحثَ عن عملٍ؛ ليساعد أمه التي تخرج من النجمة لتبيع الخضار. على أمل أن يعود ذات يوم لذلك المعهد قبل أن يفصلوه، فيأخذ شهادةً يعرف أنها بلا قيمةٍ أمام طموحاته السامية. كان شاردًا مزمنًا، لا يكاد يفيق من الأحلام. ورغم غرامه بالموالد والفرق الصوفية وأهل اللـه الدراويش، كان مولعًا أيضًا بالثياب، يقعد بالساعات مُتخيِّلًا نفْسه في ثيابٍ جميلةٍ. وكان يرسم مانيكانات بأزياء مدهشةٍ وغريبةٍ، وإن لم يكن بارعًا في الرسم للغاية، ورغم ذلك تمنى لو يلتقي ذات يوم بمصمم أزياء مشهورٍ، قال لي اسمه، وسألني إن كان مثلنا، فقلتُ: اللـه أعلم. ويتخيل الحوار الذي سيدور بينهما، وكيف سوف يتمكن كريم من إقناعه بموهبته وقدرته على الإحساس بالموضة والأناقة ودقة اختيار الألوان وتوليفها.

وجدتُ نفْسي أحكي له أنا أيضًا، عندما عرفت بهوايته تلك، عن أبي وجدي، بِجُمَلٍ تتخبط عشوائيًّا، وبصوتي المتقطّع وأنفاسي الهاربة، عن الأتيليه القديم في شارع عدلي، والهوانم ونجمات السينما، ولعبي بين أقدامهن طفلًا، حتى ذلّ لساني، وأخبرته بأن ماما هي الممثلة بدرية أمين، فأفلتت منه شهقةٌ عاليةٌ، ووضعَ

كفّه على فمه بسرعةٍ، فانتبه له بعض القريبين من فرشتنا، وسأله أحدهم ساخرًا:

إيه يا كوديانا؟ اتفتحتي تاني ولاّ إيه؟

ظلّ يطاردني بالأسئلة عن أمي بعدها أيامًا، وكنتُ أراها أحيانًا جالسةً معنا في العنبر تستمع إلينا بابتسامةٍ حزينة.

(32)

الإسكندرية في مطلع أبريل كأنها كذبةٌ أخرى جميلةٌ. دفعتُ باب الشرفة، فتلقفينا هجمةً حمراء من نور آخر النهار، أنا وعبد العزيز وعصام. وصلنا إلى العجمي قبل ساعتين، وها هو الشاليه العجوز كأنه يتثاءب ويفرك عينيه. فعل الحارس وأولاده ما بوسعهم لتنظيفه قبل أن نأتي، غير أنّ محو التجاعيد الخفية مهمةٌ مستحيلةٌ. جلسنا على مقاعد الشرفة الخيزران، نسترخي بعد أكلة سمكٍ تناولناها مع النساء، حيث يقمن في الشقة الأحدث بعمارةٍ لا تبعد عن هنا كثيرًا. كنتُ أختلي بماما هنا في هذا المكان، كلّما أسعدنا الحظ ولم تكن منشغلةً بأي عملٍ، ولو أسبوع أو عشرة أيّامٍ. أصبحَ شائخًا،

غير أني لا أرى إلّا صورته القديمة، حيث يعكس كل ركن منه مشاهد واضحة لأمي.

بعد موتها، ظللتُ أجرجر جسدي، وأجبره على الحياة، فيستحمّ، ويأكل، ويشرب، ويذهب إلى العمل والمشاوير. أرتجلُ فقط، مُلفِّقًا حياةً بلا مذاقٍ، لأجل خاطر ذكرى أمي، ثم شيرين وبدرية الصغيرة، متلقيًا من المحيطين معاملةً خاصةً كأنني تحفةٌ زجاجيةٌ يمسكونها بأيدٍ مرتعشةٍ؛ خوف انكسارها. ولم تتوقف ماما عن التردد على أحلامي في النوم أو في اليقظة. أراها فجأةً بكل وضوحٍ، كما كانت قبل عشرات السنين، في عز رونقها ومجدها، وهي تضحك أو تغني، فأهيمُ معها غير مكترثٍ لمن حولي وظنّهم بي، فالجنون مُريحٌ كالموت.

ثم صرتُ أتظاهر بأنني عدتُ لطبيعتي، فقط ليتوقف الآخرون عن قلقهم عليَّ وأسئلتهم عن حالي، شيرين بالذات، ما إن تشعر بأنني انسحبتُ إلى داخلي من جديد، حتى تسارع بمحاولة استدراجي لأخرج من الشرنقة. حتى عبد العزيز واصل دعمه في إخلاصٍ مثيرٍ للضيق، بدا وكأنّه هو من يطاردني في تلك الفترة، لا أدري بأي دافعٍ. لم يكن بارعًا في المزاح والتنكيت، ما أثار شفقتي عليه أحيانًا. ومن أجلهم، كنتُ أغصبُ نفسي على الكلام والضحك، وعدتُ للاهتمام بنفسي وأكلي وأدوية المهدئات، وخرجت وذهبت

إلى الشركة، حتى إنني ظهرتُ في برامج تليفزيونية؛ لأتحدث عن الراحلة القديرة. لكنني أخفيتُ عن الجميع أنها تزورني طوال الوقت، وأن أحاديثنا تطول أحيانًا لساعاتٍ على فراشها، إلى أن يأخذني النوم. وحده د. سميح مَن عرف ذلك، ولم يطمئن إلّا عندما أكّدت له أنني أعرف أنها مجرد خيالات تؤنسني وتخفف عني رحيلها.

لا بُدّ أن فكرة رحلة الإسكندرية كان هدفها الوحيد استعادتي لنفسي. لم أعد أذكر من هو صاحب الاقتراح الذي بزغ فجأةً، ونحن نتناول العشاء في بيت عم شيرين. تحمس الجميع للفكرة بسرعةٍ، كأنهم قد اتفقوا مسبقًا من وراء ظهري، حتى عبد العزيز المشغول على الدوام أبدى استعداده. ومع هذا لم يسمح الحاج سلاّم لأسماء بالسفر معنا، إلّا إذا رافقنا شقيقها الصغير عصام، طالب حقوق خفيفٌ ورشيقٌ كالقرود، دائمًا ما نقل إليّ إحساسًا غريبًا بأنني صرتُ مُسنًا، بطريقته في اللبس والكلام والموسيقى التي يسمعها، وطبعًا ضجره السريع من كل شيءٍ.

بينما يأخذ عصام حمّامًا، جلستُ مع عبد العزيز نستقبل أوّل المساء صامتين في الشرفة، وكأنّ كلاً منا ينتظر أن يبدأ الآخر بالحديث، ربما تكون هذه هي اللحظة الأولى التي ننفردُ فيها بأحدنا الآخر منذ أن احتضنني وسط فوضى عزلتي في الشركة

بعد أيام من موت أمي. كلاَّ، لم يكن عناقنا الباكي ذلك له أثر قبلة الأمير السحرية على الأميرة النائمة، فلم أبرأْ من حزني على أمي في الحال، ولم يكن مجرد تمهيدٍ لتقلّبنا معًا على الأرض ونحن نتعرّى في جنونٍ. كان عناقنا حينذاك شيئًا صغيرًا عابرًا، لكنه أبلغ من كل ما حلمتُ ذات مرةٍ أن يحدث بيننا، شيء يتذبذب بين الأخوّة والتعاطف، بين الإنكار والاعتراف. وها نحن معًا، وحدنا من جديدٍ. نهضتُ، وأحضرت اللاب توب، وأدرتُ أغنيةً لأم كلثوم، وقد صرتُ لا أسمع غيرها تقريبًا لمجرد غرام أمي بها.
حين خرج عصام من الحمّام، قمتُ لأستحم وأغيّر ثيابي. اخترتُ الانفراد بغرفةٍ صغيرةٍ بسرير كبيرٍ منفردٍ، ليتقاسم عبد العزيز الغرفة الأخرى ذات السريرين مع نسيبه الشاب. لم أكن مستعدًّا لأن أبيت في غرفةٍ واحدةٍ مع أحدٍ، وخصوصًا عبد العزيز. لم تكن الغرفة هي الشيء الوحيد الذي تقاسمه عبد العزيز وعصام، جمعهما الحشيش أيضًا. وكانا قد بدآ طقسَ المزاج حين خرجتُ من الحمّام بعد دقائق، بينما كانت أم كلثوم تلوّن سؤالها مع كل تكرارٍ له بألف لونٍ جديدٍ: هو صحيح الهوى غلّاب؟ سرحتُ مع صوتها، وأعادتني رائحة ذلك الدخان الحُلو إلى طفلٍ يتناوم على مقعد فوتيه نبيذيّ اللون في صالون أبيه الترزيّ، وبين الحين والآخر يختلسُ النظر إلى أعضاء المتبولين من شبّاكٍ صغيرٍ. ثم انتبهتُ على جرس محمولٍ بنغمةٍ راقصةٍ، كان هاتف عصام الذي هبّ من

جلسته قائلًا:

دول أكيد العيال وصلوا إسكندرية.

وصلنا صوته من الداخل يسبّ أصحابه مازحًا، ويتفق معهم على أن يلحق بهم فورًا إلى وسط البلد. سألني عبد العزيز ساهمًا:

يا ترى يا هاني تقدر تفتكر أول أغنيه سمعتها وإنتَ صغيّر وعلّقت معاك؟

فوجئتُ بسؤاله الغريب، لم أعصر ذهني كثيرًا، وقلت له على الفور إنها أغنية لعايدة الشاعر، كنت أسمعها كثيرًا في الراديو أول ما تفتحه جدتي سكينة من السابعة صباحًا، ورحتُ أغنيها له مُدعيًا المرح:

افتحلي الشبّاك يا حبيبي، ده أنا أحب الهوا، يا حبيبي.

رجعَ عصام متأهبًا للخروج، وأخذ يتوسّل إلينا؛ ليستعير إحدى السيارتين، كانت رخصته مسحوبةً، وكان أبوه قد حرّم عليه القيادة بسبب طيشه وحوادثه المتكررة. رفضتُ أنا في إصرار، فأخذ يلحّ على عبد العزيز، حتى لانَ له أمام دهشتي، وأعطاه ببساطةٍ مفاتيح سيارته، قائلًا:

لو عملت مصيبة، هاقول إنك سرقت المفاتيح.

ثم اختفى عصام كأن لم يكن، بعد أن أخبرنا ألا ننتظره، فسوف

يبيت مع العيال أصحابه في شقة أحدهم بمحطة الرمل. نزلَ علينا سهمُ اللـه، وساد صمتٌ حرجٌ، تظاهرنا خلاله بالإنصات إلى أم كلثوم. أحضرتُ علبتيّ بيرةٍ من الثلّاجة، ثم تذكرتُ سؤال عبد العزيز قبل قليل، فسألته بدوري:

- وإنتَ؟

- أنا إيه؟

- أول أغنيه تفتكرها من وإنت صغيّر قوي.

ابتسم كأنه تذكر شيئًا تحدثنا عنه قبل سنواتٍ، وليس قبل دقائق معدودةٍ، وأخذ يحكي باسترسالٍ، كأنه عاد بكيانه كله إلى تلك اللحظة البعيدة من طفولته في المنيا. كان صغيرًا للغاية، ربما قبل أن يدخل المدرسة، أو ربما في الصف الأول الابتدائي، وربما كانت المرة الأولى التي يخرج فيها وحده ليلًا لشراء آيس كريم من دكّانٍ بعيدٍ عن البيت. لم يره البائع أول الأمر، وراء البنك المرتفع، لكنه ظلّ يدق بالعملة المعدنية على زجاج فتارين البسكويت واللبان حتى انتبه إليه. المهم أن الراديو كان شغّالًا، وتنبعث منه أغنيةٌ لوردةٍ، راحت تعيد وتزيد في كوبليه محدد: "مال العذّال ومالنا؟! ما كفايه اللي جرالنا! ده احنا تعبنا... وقاسينا لحد ما اتقابلنا".

قال بصوته المليء ضاحكًا:

وجمهور الحفلة هايص معاها، أخدت الآيس كريم، وروّحت، وطول السكه أغني نفس الكلمتين دول: "مال العذَّال ومالنا، ما كفايه اللي جرالنا...."، ولحد انهارده مش عارف الأغنية دي اسمها إيه، كل كام سنة أسمعها صُدفة في قهوة أو على إذاعة الأغاني، نفس المقطع ده بالذات، كإنه بيطاردني يا أخي، وكل ما أسمعها أقول لنفسي لازم أدوّر عليها وألاقيها، لازم أسمعها مرة واحدة على الأقل من الأول للآخر، وبعدين أنساها خالص لحد ما أسمعها تاني. تخيّل، حوالي تلاتين سنة تقريبًا.

وانطلق يضحك، بشيءٍ من المرارة. فقلتُ له باسمًا في حماس:

أنا فاكر إني سمعت الأغنيه دي، بس برضُه مش عارف اسمها إيه.

ثم عاد الصمت، ولم يفلحْ أيٌّ منا في خدشه هذه المرة، حتى أغنية الست انتهت، فلم أهتم بتشغيل أخرى. كانت الشرفة مشحونة بالتوتر، وأخف هبّة هواءٍ قد تفجّر عاصفةً. أمسكَ هو بيمناه كتفه اليسرى، وراح يدلكّها بوهنٍ وهو يئنّ. ثم سألني صراحةً وهو يطفئ سيجارته الملفوفة:

مش قلتلي قبل كده إنك بتعرف تعمل مساج؟

أومأتُ برأسي وقلبي يخفق بشدةٍ، متهيبًا اللحظة التي طالما انتظرتها وتخيّلتها.

أصل كتفي شادد من الصبح، ممكن...؟

قاطعته مُدركًا أنني لا يجب أن أظلّ متأخرًا عن خطواته أكثر من هذا:

مش هينفع هنا. الجو هوا. تعالى في الأوضه.

في غرفتي، وبحركتين سريعتين خلع عبد العزيز ثياب السفر، ثم فانلته الداخلية، ولم يبق عليه إلا لباسه التحتي الأبيض مشدودًا حول عورته البارزة. توهجت الغرفة الصغيرة بسُمرة جلده الرائق. رقد على بطنه وأدار وجهه نحو الحائط مسترخيًا. استغرقتُ في العمل مثل مُدلِّكٍ محترفٍ. كان ظهره العريض يمتد أمامي مثل صحراء ندية. رحتُ أركز ضغط أصابعي على كتفه المشدودة، حسب قوله، فأخذ يئنّ، ويطلق تأوهاتٍ مكتومةً، كانت أعذب في أذنيّ من كل أغنيات الست. إلى أن تحرّك وانقلب نائمًا على ظهره، وقد ارتسمَ قضيبه المنتشر بوضوحٍ من تحت لباسه، وعلى وجهه ابتسامةٌ رائقةٌ أوجعتني، همس:

تمام كده، تسلم إيدك.

بقيتُ للحظاتٍ حائرًا، لا أدري ماذا عليّ أن أفعل. بقيتُ ناظرًا نحوه، وظل هو أيضًا صامتًا ومبتسمًا، كأنه يتمتّع بإطالة لحظات ترقّب انهيار جبلٍ جليديّ. شدّني إليه أخيرًا، وهو يهمس:

تعالى نام جنبي.

لم أكن أريد شيئًا أكثر من هذا. تذوقتُ شفتيه بتمهلٍ وكلٌّ منا يمسك يد صاحبه. ثم تمرّغ وجهي طويلًا على عشب صدره وبطنه، ولعقتُ سرّته. فجأة صرنا عُريانين، وقد انعقدت أطرافنا الأربعة في التحام اللحم باللحم. ودخلني صاحبي، فكانت كأنها المرة الأولى في عمري كله، لم أكن أرغب أن تنتهي تلك اللحظة أبدًا، أردتُ أن نموت الآن أنا وهو، أو تتوقف الكواكب عن الدوران ويثبت الزمن. حين احتضنني بعد الانتهاء أحس ببكائي، فمس عينيّ بشفتيه، ولعق دموعي بلسانه. لم تكن فرحةً خالصةً، كان الحزن ثالثنا.

لم تكن المرة الأولى كما تخيلتها في أحلامي مُصفاةً من كلّ عرقٍ أو لهاثٍ أو ارتباك الإيلاج. في خيالي كانت ألعابًا ناريةً بألوانٍ فسفوريةٍ تفرقع وتسطع في سماء الكون. لكنّ الواقع، على فجاجته، كان له ملمسٌ وطعمٌ وصوتٌ ورائحةٌ، كان شيئًا حقيقيًّا ومبتذلًا، مثل كل حقيقة. كان ميله للرجال حقيقةً واضحةً، وليس مجرد نزوةٍ أو فضولٍ، وكان مُستعدًّا بعبوات الواقي، فعرفتُ أنه كان قد عقد العزم من قبل أن نأتي إلى هنا.

كان فرحي يرتجف، ويتلفتُ حوله كأنه يفتش عن العقاب الوشيك. لم يعرفْ أنني ما زلت أخشى ما يختبئ لي في هذا الجسد الأسمر مرسوم العضلات ووراء رأسه المنحوت كتماثيل الفراعنة.

وددتُ لو أنبش الجلد واللحم عمّا وراءهما، وددتُ لو أدخل إلى دماغه، أن أفتح كل غرفها المظلمة حتى ينتشر فيها النور والهواء، حتى أطمئن، فتتبدد مخاوفي وتصفو فرحتي.

بعد جولةٍ ثانيةٍ أطول وأهدأ، اختطفه النوم مني، فبقيتُ أتأمله، وأنصت إلى شخيره الذي يشبه قرقرة النارجيلة، وأشمّ روائح بدنه الحيوانية الفجّة المختلطة بعطره. كنتُ أبتسم في رضا؛ فقط لأنني لم أكن طوال الفترة الماضية أنسج أوهامًا في خيالي. تذوقتُ مع طعم عَرقه إحساسَ مُنتصرٍ لا يعرف ماذا قد يفعل بانتصاره.

(33)

ظهيرة اليوم التالي، كنا جميعًا على البحر. جلستُ وحدي أراقبهم من وراء نظارتي الشمسية، أراقبُ جسده المنتفض، كأنه جزءٌ مكمّل للبحر والشمس والرمل والهواء. كان نهار أبريل دافئًا وهواؤه لطيفًا، ودرجة النور صافية إلى حد عجيبٍ، رغم نفحة غبارٍ خفيفةٍ من وقتٍ إلى آخر تتضح وتضايق أسماء المصابة بحساسية الأنف وكثيرة الشكوى لأتفه الأسباب. في الأعلى كانت قطع السحاب الهش مش غزل البنات تتبدد ما إن تظهر. رحتُ أقلّب بين كفيّ سعادتي المرتعشة، وأتفحصها بفضول خبيرٍ مُثمنٍ. لم تكن تلك السعادة القديمة التافهة، ابنة لحظتها، التي تدفعني للقفز

والصراخ والغناء، بل كانت شقيقتها الكبرى، العاقلة الرزينة، تلك التي تبتسم لكوب شاي وسيجارةٍ بعد قيلولة العصر، أو تنبض بالمحبة إذ تسمع ضحكةً بدرية الصغيرة وهي ترش شيرين وأسماء بالمياه. ثم عبد العزيز، بمجرد وجوده هنا أمام عينيّ تحت ضوء الشمس، لا يستر جسمه المكين إلا أقل القليل، مجرد وجوده ورؤيته سعادةٌ أخرى، خفيةٌ ودفينةٌ مثل بذرة لبلاب، تحتضنها التربة، بذرةٌ نائمةٌ تحلم برحلتها المنتظرة، رحلتها الطويلة التي ستعيشها ذات يومٍ فوق سطح الأرض.

استأذنتُ منهم بعد الغداء بحجّة أن أتمشى وحدي قليلًا. سرتُ حتى عثرت على إنترنت كافيه، حيث رحتُ أغربل الشبكة كلها بحثًا عن أغنية وردة الغامضة تلك، إلى أن وجدتها في النهاية، وحمّلتها على أسطوانة، ثم فاجأته بها ليلًا في سهرة الشرفة. لم يصدّق واحتضنني، في غفلةٍ من القرد الشاب، بدا راضيًا وهو يستمع لمطلع أغنية طفولته كاملة لأوّل مرة.

ياما ليالي ودموع عينيا سهرت تغني، على حبايب مالهُمش غيّه غير التجنّي.

حين أحسّ عصام أنه لا مزيد من الحشيش مع خطيب شقيقته، نهض لينام. بقينا جالسين مع وردة وزجاجة نبيذٍ وأصناف من الجبن والمكسرات. فتحنا باب الكلام على البحري، فحكيتُ له

قصة علاقة المراهقة الساذجة الأولى مع رأفت، وكيف خذلني وعرضني على زميلٍ له في النهاية، لم أخجل منه ولم أخفِ عنه شيئًا. أردتُ أن أشجّعه ليصارحني بما لديه، دون أن أدفعه إلى ذلك صراحةً. ثم استعدنا ضاحكين الأيام الأولى لتعارفنا، كلمتُه عن الجنون الذي ركبني منذ رأيته في حفل خطبته، وذلك الحُلم الغريب به أو ذكرى القُبلة غير المؤكدة. حتى في جلسة المصارحة تلك وهواء أبريل يقسو حينًا، ويحنو حينًا، لم يشفِ غليلي حول حقيقة تلك القبلة القديمة، تجاهل إشارتي إليها كأنها شيءٌ لا يستحق الاهتمام، فلم ألحّ عليه.

قال وهو يُخرج قطعة حشيشٍ صغيرةً من جيبه، ويشرع في فركها:

يا رب عصام ما يصحاش ع الريحة!

بعد أن أشعلها ناولها لي، فأخذتُ نَفَسًا واحدًا قصيرًا، وسعلتُ بحُرقةٍ حتى دمعت عيناي، فمدّ يده، ومسح دمعتي، وهو يختلس النظر نحو الصالة. بعد لحظات، اعترف في عذوبةٍ أنه قد وجد في صُحبتي شيئًا لم يعتده من قبل، شيئًا ربما يكون ساذجًا، ولكنه بدا ضروريًّا. قال إنه لم يسبق له أن جرّب فرحة اللعب، وشجاعة التحرر من حسابات القواعد والأصول والصح والغلط، فكأنه اكتشف فجأةً معنى أن يكون طفلًا من جديدٍ. طفلٌ آخر غير ذلك

القديم المرتعد خوفًا من أخيه الكبير، وطبعًا من أبيه رجل الجيش الغائب معظم الوقت. كانوا قبيلةً من الذكور يراقبون بعضهم بعضًا بلا انقطاع، في منزلٍ كبيرٍ باردٍ، لم ترفرف فيه روح امرأةٍ منذ توفيت أمهم. الأكل والشرب والتليفزيون وكل شيءٍ بمواعيد ثابتةٍ ونظام صارم، وغير مسموح بالاعتراض أو التمرّد ولو في الخيال، وما أسهل أن ينتهي كل جدالٍ بمعركةٍ حاميةٍ، ثم يأتي القايش الميري؛ ليحسم كل شيءٍ بعلاماته على الظهور الصغيرة. مقارنةً بطفولتي أنا، عاش عبد العزيز في كابوسٍ طويلٍ، وقد ظننتُ في السابق أن التدليل الزائد هو ما امتص ماء الرجولة مني، غير أنني توقفتُ من زمان عن الانشغال بالأسباب، من كثرة ما قابلتُ من حالاتٍ متنوعةٍ، وتكاد تكون متناقضةً في ظروف نشأتها، بين الحبايب. وعدنا إلى صوت وردة، في هدأة الليل.

فرحة هوانا كانت أماني، وساعات لقانا بتفوت ثواني... طول عُمرنا، من فرحنا، الدنيا بتغني لنا، كل الزهور، حتى الطيور، فرحت وصبحت زينا... غنت لنا، لنا، واحنا سوا، واتعلّمت معنى الهوى...

كان في العاشرة تقريبًا حين ضبطه أحد أشقائه مع صبيٍّ آخر من البلد في حمّام مركز الشباب، فعلّقه الأخ الأكبر على الفلكة، وضربه على قدميه عشرين مرّةً بعصا غليظةٍ. لم يكتفِ أخوه بهذا

بل أضاف عقابًا آخر، هو تعصيب عينيه بخرقةٍ خشنةٍ سوداء، مدة يومين، لا يخرج خلالهما من البيت، ويكون تحت المراقبة كل لحظة، فإذا حاول أن يرفع العصابة ولو ثانية واحدة، ستبدأ مدة العقاب من جديد. كان عبد العزيز مُستعدًّا لتحمّل أي عقاب، شرط ألّا يعلم أبوهم شيئًا عمّا فعل. وظلّ يومين أعمى يتخبّط بين الجدران ويرتطم بقطع الأثاث ويقع كل بضع خطوات، بينما يضحك أشقاؤه ويشتمونه بأقبح الألفاظ. ومع ذلك أخبر الأخ الكبير أباهم بكل شيءٍ بمجرد وصوله. لم يستطع عبد العزيز أن يحكي كيف عاقبه والده، سكت تمامًا، واغرورقت عيناه، وحين حاول أن يتحدث من جديدٍ تهدّج صوته. أردتُ أن أنتزعه بعيدًا عن تلك الذكرى، فسألتُه مازحًا:

وكنت بتعمل إيه مع الواد في الحمّام بس يا عُبد؟

ابتسم، ولطمني على كتفي بضربةٍ خفيفةٍ، وأجاب:

ولا حاجة! بنشوف اللي عنده واللي عندي. حتى من غير لا بوس ولا لعب.

قربَ نهاية الليلة لطيفة البرودة، وجدتني أسأل نفسي هل أنا الآن شخصٌ سعيدٌ؟ ولم أجد إجابةً، وقلتُ ربما تكون السعادة هي الجزرة التي يضعونها أمامنا؛ لنبقى سائرين إلى الأمام مهما جرى، وربما لا تكون حتى جزرة حقيقية، بل صورةً لها، لا أكثر.

مال العذَّال ومالنا، ما كفايه اللي جرالنا، ده احنا تعبنا وقاسينا لحد ما اتقابلنا، لحد ما اتقابلنا، مهما يقولوا علينا يقولوا كلامهم مش ف بالنا!

حين سمع عبد العزيز هذا المقطع من الأغنية، انتعش فجأةً، وهب واقفًا، وراح يغني معه، ويهز جسمه المتين يمينًا ويسارًا مثل بهلوان فاشل، وقال منتشيًا:

دلوقت مش فاضل غير الآيس كريم!

نظر إليَّ نظرة تآمرٍ خبيثٍ، ففهمته. دقائق وكنا نبحث عن آيس كريم، في هدوء شوارع العجمي بعد منتصف الليل بنحو ساعتين تقريبًا، حتى وجدنا سوبرماركت ساهرًا. أخذنا نلعق الآيس كريم ونحن نسير ضاحكين، وغير بعيدٍ منا، يدخل ويخرج زبائن نادٍ ليليّ راقٍ، الرجال بالبدلات الكاملة، وبعضهم يترنح قليلًا، وبصحبتهم نساء بالفراء والمجوهرات. تفرجنا عليهم من بعيد مثل تلميذين هاربين من المدرسة. قال مقترحًا:

- لازم نيجي نسهر هنا احنا والجماعه مرة.

- أو من غير الجماعة.

فرد بسرعةٍ:

يكون أحسن!

في عودتنا، طاردتنا بنباحها مجموعةٌ من الكلاب وراء سور فيلا صغيرةٍ اقتربنا منها أكثر مما يلزم، فأخذنا نرد عليها مقلدين نباحها، وحين أضاءت بعض المصابيح من داخل الفيلا، انطلقنا نجري إلى الشاليه المتواري بحالته المتداعية وسط المباني الشابة النظيفة.

قبل أن يأخذني النوم، سمعتُ صوت باب غرفتي يُفتح بهدوءٍ، وأحسستُ بجسده الدافئ يندس تحت الغطاء إلى جانبي، وهو يهمس:

- مش عارف أنام من شخير عصام.

- يا راجل؟

عاد إلى فراشه قبل الفجر، بعد أن تقاسمنا وجبةً طويلةً وصامتةً، دون أن يصدر عنا أهون صوتٍ، خائفين وحذرين مثل كل اللصوص.

(34)

حتى من قبل أن يرانا عصام معًا ويكشف سترنا، لم تكن أفراح الجسد صافية تمامًا. بين حين وآخر، كان الإحساس بالذنب يخنقني، معترفًا بأنني أخون الجميع مع عبد العزيز، نستغفلهم بكل بساطةٍ. ألمحتُ له بذلك الضيق فلم يبدُ منشغلًا بهذه الفكرة بالمرّة، وأحسستُ من كلامه أنه يرى فيما نفعله مجرد لعبٍ بريءٍ، مثل كل ما قد يفعله أي رجلين وحدهما، دور طاولةٍ أو كوتشينةٍ، سيجارة حشيشٍ، أو كلام مكشوفٍ عن النسوان. جاريتُه دون اقتناعٍ. ثم أدهشني ما لاحظتُه من إهماله الواضح لخطيبته أسماء واستهانته بها، فلا يجري بينهما أي شيءٌ مما يفترض أن يحدث بين اثنين

مخطوبين، سواء في حضور أخيها عصام أو غيابه. لا ينفرد بها ويتمشيان على الشاطئ مثلًا. أغلب حديثهما بيننا جميعًا، ولا يدور حول مستقبلهما، بل عن الكتابة وحركة النشر في مصر وأفضل المبيعات من الكتب، وكانت أسماء كثيرًا ما تنفعل وتتهمه بأنه يروّج لبعض الكتب الرديئة، وفقًا لحساباتٍ وعلاقاتٍ خاصة. كانت كثيرًا ما تضع جانبًا الأنثى التي داخلها وتتحوّل إلى شيء آخر، شيء ناقم ومغتاظ لسببٍ مجهولٍ؛ ربما لحظِّها القليل من الجمال، أو لشعورها بأنها أقل منه في كل شيء. حتى قالت له ذات مرّة في الشقة بعد الغداء:

إنتَ أشطر واحد يعرف يرضي جميع الأطراف، لكن موقفك الحقيقي غامض، لو كان له وجود أساسًا.

ابتسم، ولم يرد عليها، ثم تركنا، واختفى بقية اليوم، وعاد إلى الشاليه في المساء هادئًا، كأنه نسي ما حدث. لعلّه كان يعتبرها طفلة عنيدة، سيكون عليه أن يروّضها تدريجيًّا، فإن لم يفلح، فسوف يتركها مكانها، ويكمل سيره كأنّ شيئًا لم يكن. أصلحنا الأمور بينهما أنا وشيرين في اليوم التالي مباشرةً، لكن العقدة كانت قد رُبطت وأعاقت سريان المتع اليومية البسيطة، واحتدمت أفراحنا المختلسة بشيءٍ من العنف والخشونة من جانبه، كأنه كان يراكم غضبًا مكبوتًا طول عمره، ثم أطلقه أخيرًا، مموهًا في صورة جنسٍ

مع رجلٍ يُسلمه نفسه عن طيب خاطرٍ.

قلتُ له إنني أدرك أن كل جنس لا يكون حقيقيًا دون بذرة العنف داخله، مهما اجتهدَ ليكون ناعمًا رائقًا. لكننا نستطيع أن نوجّه دفتنا إلى الضفة الأخرى، إلى الحنان، لو أردنا. تجنبتُ ذكر كلمة حُبّ أو ما شابهها بانتباهٍ تامّ. لكنّ عبد العزيز بدا وكأنه يتبدّل في لحظةٍ من حالٍ إلى حالٍ، فلا يملكُ السيطرة على ما يفعل. وبعد أن ينتهي، يعود إلى الواقع من حوله مثل مَن كان في غيبةٍ صوفيةٍ أخذته إلى حيث لا يدري، فيزوغ مني بعينيه ويبدو خجلًا مما فعل.

لم أعد أجلس معهم على الشاطئ مكشوف الصدر أو الكتفين، صرتُ أرتدي أيَّ شيء خفيفٍ متحّججًا بالهواء البارد؛ لأستر بعض العلامات الداكنة التي يتركها على جلدي. لكنّي لم أيأس من محاولة تقليم مخالب الوحش، كأنني أعيشُ حكايةً خرافيةً، حتى تهدّم قصر الرمال على غفلةٍ منا، قبل نحو يومين أو ثلاثة من موعد انتهاء إجازتنا، حينما رآنا عصام متعانقين. كان قد غادرنا في التاسعة مساءً إلى أصدقائه، فاندفعنا كالعادة نحو أحدنا الآخر. انتهينا، وهدأنا قليلًا، ثم عدنا إلى جلسة الشرفة. ورحتُ أحاول استدراجه ليكشف لي إن كانت له أية تجارب سابقة مع الذكور، وبعد مراوغته ومحاصرتي له لانَ وأذعن، وأخذ يحكي تجربته الوحيدة كما زعم.

كانت أولى سنواته الجامعية، بداية الانفلات من شبكة العائلة، واكتشاف الذات منفردًا. ومع انتقاله من شقةٍ مفروشةٍ إلى أخرى، اضطر يومًا لإخلاء القديمة، والانتظار لثلاثة أيام حتى الانتقال إلى الجديدة، لم يكن يعرف أين يذهب وفكّر في الفنادق الصغيرة، لكنّ زميلًا اقترح عليه أن يقيم معه، وأغراه أنهما سيغرقان في بحرٍ من الخمر والحشيش خلال تلك الفترة. وافق عبد العزيز، وذهب معه تاركًا صناديق كتبه وأشيائه لدى بوّاب عمارة الشقة الجديدة. ونفذ الزميل وعده، لكن الخمر والحشيش لم يكونا إلا جانبًا واحدًا من المخطط. كان يريد عبد العزيز من زمان، ولا يعرف كيف يناله أو إن كان متاحًا من الأصل، هكذا اعترف لصاحبي بعد أن كان ما كان بينهما، لعلّ ذلك الشاب سبقني إلى اكتشاف النداء السري الصادر من عبد العزيز.

تركا نفسيهما شبه غائبين عن الوجود لثلاثة أيام، يجرّبان كل متعةٍ ممكنةٍ، دون الخروج بالطبع عن الحدود المرسومة بينهما كسيّدٍ وعبدٍ، كرجلٍ وغُلامٍ، ومع كل ساعةٍ تمر، كان عبد العزيز يقاوم مشاعر الازدراء والقرف نحو صاحبه التي يرتفع مدّها تدريجيًّا داخله في صمتٍ، حتى الشراب والمخدر لم يعودا قادرين على تمويه الاشمئزاز ومساعدته على الانتصاب. وأسرّ في نفسه أنه سيقطع صلته بهذا الزميل بمجرد أن يتسلم شقته الجديدة، وهو ما فعله، دون أن يلتفت خلفه ولو لمرةٍ، أو يتصل به، أو يقول له

كلمة شكرٍ أو وداعٍ. ألقى به مثل واقٍ ذكريٍّ مستعملٍ، نمسكه بأطراف أناملنا مشمئزين لنلقيه في أقرب سلة مهملات.

قال أيضًا بنبرة ندمٍ شعرتُ بها زائفة:

حتى لمّا كنت باشوفه في الجامعه، كنت باتهرب منه.

انتبه فجأةً لنظرتي اللائمة، فرفع سبابته ونظر نحوي بتحذير، ثم قال:

انتا حاجة تانية. وأنا كمان اتغيّرت.

أشار بكفيه نحوي يدعوني إليه، كأنه يشجع طفلًا صغيرًا ليحبو إليه، نهضتُ من مقعدي، وارتحتُ على ساقيه مسندًا رأسي على صدره، يسترنا ظلام الشرفة، ثم وجدنا عصام واقفًا خلفنا، ظل ثابتًا في مكانه مُحرجًا للحظةٍ، فأسعفتني الحيلة بكذبةٍ سريعةٍ، فزعمتُ له أنني تذكرت ماما، الله يرحمها، فبكيتُ، وحاول عبد العزيز أن يطيّب خاطري. ثم رحتُ أمسح دموعًا لا وجود لها.

لم يبدُ على عصام الاقتناع، وظلّ على صمته ونظرته المتشككة، وهنا انتبهنا إلى ضمادةٍ كبيرةٍ على رأسه. كان قد تشاجر. تشبثنا بهذا الجرح كأنه طوق نجاةٍ، وأخذ عبد العزيز بذكاءٍ يمطره بالأسئلة عمّا حدث، وعصام يتملّص من الإجابة في وقاحةٍ. تركتُهما، وانفردتُ بنفْسي في الغرفة، لا أكاد أستقر في موضع وجسمي كله يرتعش،

وأنا أوبّخ نفسي، وأسبّها؛ لأنني لم آخذ حذري بما يكفي، ولأنني استغللتُ ذكرى ماما للإفلات. أردتُ أن أبكي وحدي، فخرجتُ دون تردد. سرتُ نحو الشاطئ، ولم أنتبه أنني حافٍ إلا حين شعرتُ ببرودة الرمل، وثقلتْ خطواتي. كانت مخاوفي تدبّ من حولي في الظلام مثل كلابٍ خرساء. وبعد أن شبعتُ بكاءً، رأيتُ ماما من جديدٍ، فأنبتني قائلةً:

- يا رب تكون انبسطت!

- عصام شافنا ومش بعيد يقولهم.

- اللي يشيل قربة مخرومة...

حينما حكيتُ لدكتور سميح ما جرى في العجمي بيني وبين عبد العزيز، سألني عن شيرين، عن مشاعري نحوها، عن أي إحساس بالذنب أو الندم. لم أعرف ماذا أقول له، غير أنني أنام معها من وقتٍ إلى آخر، فابتسم ابتسامةً غريبةً، كأنه يعرف أنني أفهم سؤاله جيدًا، لكنني أراوغ. منذ وفاة أمي صرتُ صديقًا للزاناكس ومضادات الاكتئاب، وربما كان هذا سببًا آخر لشحوب فرحتي بعبد العزيز بعد أن سلّم واستسلم أخيرًا، كنتُ أعرف أن تلك الأدوية تؤثر على الشهية للطعام والجنس وكل شيء، ونادرًا ما صرتُ أنتصبُ دون جهدٍ سخيفٍ. كان آخر يومين لنا في الإسكندرية جحيمًا مقيمًا، وما إن رجعنا للقاهرة، حتى شعرتُ براحةٍ حقيقيةٍ، وعدتُ إلى روتيني

السابق كأنّ شيئًا لم يكن. أقطع الساعات نائمًا مثل مَن يسافر من بلدٍ إلى بلدٍ، واكتسبتُ خبرةً بعالم أحلامي، تكاد توازي خبرتي بعالم الواقع، ورحتُ أراقب الدُنيا من وراء ستار مغبّشٍ، وأنا أبتسم داخلي دون مبرر. واستعدتُ قدرتي على الحلم بأشياء لا تلبث أن تتحقق في الواقع، حتى أنني حلمتُ بشيرين تبلغني خبر فسخ خطبة أسماء قبلها بأربع وعشرين ساعة تقريبًا. كنتُ جالسًا على السجادة أرتّب صور ماما، عشرات الصور المتناثرة حولي، حين عرفتُ بخبر فسخ خطبة عبد الـ ريز وأسماء. أنهت للتو مكالمة طويلة مع بنت عمها، ثم أتت وقالت جملة واحدة:

أسماء خطوبتها اتفسخت.

ولوتْ شفتيها، كأنها لا تطيق مذاق جملتها في فمها. تظاهرتُ بعدم الاهتمام، وقلتُ بلهجة الحكيم:

كنت حاسس.

قلنا كلامًا مسلوقًا حول القسمة والنصيب، ثم كلامًا حارقًا حول عناد أسماء وعصبيتها، وغرور عبد العزيز الفارغ، حتى نجحتُ في الإفلات خارجًا من دائرة صور ماما المفروشة من حولي. وأمام مرآة الحمّام تأملتُ وجهي الشاحب الممتلئ، والخطوط الجديدة التي يرسمها بلا انقطاعٍ قلمٌ خفيٌّ في يدٍ لا ترحم ولا تفهم.

(35)

بينما أنصتُ إلى حكايات كريم في ركننا من عنبر سجن طرة، كان من المستحيل عليّ أن أحدد أين تنتهي الحقائق وتبدأ الخيالات، فأحسده أحيانًا لقدرته على العيش في عالمٍ آخر، وحاولتُ أنا أيضًا أن أتعلّم منه تلك المهارة، فأنجح بها في الهروب أحيانًا من الكابوس المحيط بي ولو دقائق مختلسة كل يوم.

قال كريم إنه كان يكلّم الله طوال الوقت، من صغره، سواء في سره أو بصوتٍ مسموع. كان الله هو صديقه الأول، حتى ولو كان حوارًا من طرفٍ واحد، غير أنه سرعان ما اكتشف سُبلًا

كثيرةً يستطيع اللـه أن يهمس له بالأسرار عبرها، جملة يقولها أحد العابرين في الطريق، فيستشف هو منها رسالةً خفيةً موجهةً إليه، أو أوّل شيءٍ يجده في التليفزيون بمجرد أن يفتحه، أو حتى شقشقة عصفورٍ تبدو كإجابةٍ على سؤالٍ طرحه في سرّه. وأحبّ أن ينصت إلى صوت اللـه في كل ذلك، رغم أنه كان يعرف أنه ملعونٌ؛ لأنه يفعل فعلة قوم لوطٍ، لكنه يعود ليواسي نفسه قائلًا إن اللـه هو مَن خلقه هكذا، وربما يكون في ذلك حكمة ما لن يفهمها مهما حاول، وربما يعينه على التوبة ذات يوم.

كان يحاول المواظبة على الصلاة، وصيام الإثنين والخميس، واستعادة ما نسيه من كتاب اللـه، فيسأله خاله الذي كان يعرف بفضائحه: "إنتا مصاحب واحد سُنّي ولاّ إيه؟". حتّى استقرّ على السفر إلى القاهرة؛ بحثًا عن حياةٍ خاصّةٍ به، بعيدًا عن أنفاس الخال مدمن البانجو، وأمه التي تعيش على الصَدَقات رغم أنه رجلٌ ولو بالشكل. وربما هجَّ بحثًا عن رجل حياته، الحلم الذي لا يفارقه مهما جمع كتبًا عن التصوّف واستغرق فيها لساعات دون أن يفهم منها الكثير، فلم تزده إلا ارتباكًا وبلبلةً. كان يقطع حكيه أحيانًا، وينظر إليّ، ويسألني أسئلة من نوع:

تفتكر ربنا موجود جوّانا ولا برّانا؟

وحينما أردّ بمط شفتي ورفع كتفيّ جهلًا، يتطوّع هو بتقديم

الجواب قائلًا:

الاتنين؛ وأصلًا مش فارقة.

لم يفته أن يأخذ معه تلك الكتب في رحلته للقاهرة، حيث نام على الأرض في بيت ابن عمٍ لأمه، وافق على استقباله بين أبنائه حتى يجد له سكنًا. وبعد يومٍ واحد من وصوله إلى القاهرة، كان كريم يعمل مع الكابتن صلاّح، قريبه ذلك، في كباريه صغير بمنطقة التوفيقية في وسط البلد، اسمه أريزونا. وفي ليلته الأولى، أوقع وهو يغيّر طفّاية السجائر زجاجة ويسكي بالشيء الفلاني، فانسكب نصفها على الأرض. أصرّ مُدير الصالة على طرده، لكنّ الزبون صاحب الزجاجة أنقذه، وعفا عنه وبقشش عليه بعشرين جنيهًا، وأعطاه شريطًا للمغني اللبناني جورج وسّوف؛ كي يشغّله له إلى أن تحضر الفرقة وتبدأ الفقرات. كان ذلك الزبون هو فتحي التوني، تاجر قطع غيار لا يحب شيئًا أكثر من اللعب بالبشر، وقد رأى في الولد كريم مجرد فرصةٍ أخرى للتسلية والمرح.

في الأريزونا تعلّم كريم الكثير، واكتشف مع كل ليلةٍ جديدةٍ تمر به هناك أن مسافةً بعيدةً تفصل بين ما كان يشاهده على شاشة التليفزيون وما يدور حوله هنا. وفي أجواء وسط البلد أتقن لغة العيون، واكتشف أنه حقًّا جميلٌ، وأنه ليس عليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا ليصطاد ويجذب ويغوي، يكفيه أن يكون على طبيعته، حتى

لكنته الطنطاوية كانت تعطي جرسًا مميزًا لصوته. وحفظ أغنيات جورج؛ ليغنيها لفتحي التوني واقفًا بجوار مائدته في الساعات الأولى من الفجر. وانكشف أمره بين العاملين في الكباريه، فلم يبالِ. وكانوا ينادونه "ابن أخته" نسبةً إلى صلة القرابة البعيدة بينه وبين كابتن صلاح. وحين تشّجع واعترض على هذا اللقب، أخذوا ينادونه بألقابٍ أبشع مثل: الحتة والعجلة والبالونة، فقرر أن يترك المكان، خاصةً بعد أن ترك بيت ابن عم أمه، واستأجر غرفةً في شقةٍ مشتركةٍ للمغتربين بالعمرانية.

حين غادر الأريزونا ذات صباحٍ منعشٍ، وقد مسحَ بلاطه لآخر مرةٍ، كان يحمل معه بطاقة تعريف فتحي التوني، يحملها في جيب قميصه بالقرب من قلبه، ويطمئن على وجودها كل بضع دقائق، كأنها طوق نجاته. وقبل أن يشرع في البحث عن عملٍ جديدٍ، قرّر أن يذهب إليه في معرض قطع غيار السيارات الذي يملكه بالقرب من سينما ريفولي، وحين دخل مكتبه الصغير ذا الجدران الزجاجية، وجّه إليه الرجل منتفخ الوجه، مُضيّقًا ما بين حاجبيه الكثيفين المصبوغين بلون أسود لامع، نظرة تساؤلٍ كأنه لا يعرفه، وحينما تجاوز الصمتُ الثواني المتوقعة، صاح فيه بصوتٍ غليظٍ جافٍّ:

أفندم؟

دلو ماءٍ باردٍ، وانكبّ على كريم، لم يفهم، ولم يدرِ ماذا يقول، هل من المعقول أن يكون قد نسيه تمامًا، وقد كان قبل أيامٍ معدودةٍ يرسل له النظرات والغمزات، وكلما اقترب كريم من مائدته بادره بالكلام الحلو، "عليّا النعمة انتا أحلى من الفاكهه دي". والآن هذه النظرة المستغربة، تلجلجَ الولد الجميل قائلًا بصوتٍ مختنقٍ:

أنا... أنا كريم. بتاع الأريزونا. الهوى سُلطان الهوى سُلطان!

فأجابه فتحي بنفس الخشونة والجفاء:

انتا عبيط يا بني ولّا إيه؟

أدركَ كريم أنه ينكر معرفته به لسببٍ ما، فأجبر نفسه على التحرك، وهو يغمغم:

أنا آسف إني أزعجت حضرتك.

واستدار، وأمسك مقبض الباب الزجاجي، وقد انعقدت في حلقه غصّة البكاء، ثم سمع الضحكة، الضحكة الخبيثة التي يعرفها جيدًا، ضحكة الشيطان حين يستمتع بالتلاعب بضحاياه، توقفت يده على المقبض، وسمع الصوت الخشن يستعيد نبرته الليلية وهو يناديه:

تعال يا واد يا كريم أنا باهزر معاك!

تواصلت ضحكات فتحي التوني طويلًا، من لحظة أن قبضَ على يد كريم، وغادرا المعرض، وأخذا يتمشيان في وسط البلد:

لو كنت شفت وشك في المرايه ساعتها، يا دِيكي!

تناولا الغداء عند حاتي غير بعيد، ومنه استقرا في بار اسمه قبرص، حيث أخذ فتحي التوني يمطره بالأسئلة عن كل شيءٍ في حياته، وخصوصًا عن تجاربه الجنسية السابقة، وهو ما بدا أنه يمتعه أكثر من أي شيءٍ آخر. قال كريم لنفسه إنه ربما عثر على ما ظلّ طويلًا يبحث عنه، وأنكر ضيقه من طريقة التوني في التصرّف والكلام والأكل. مازلتُ أتذكر التماع عينيه وابتسامته الصافية حين كان يتذكر الثياب الجميلة التي اشتراها راعيه الفجّ، ويصفها مُدققًا في ألوانها وأقمشتها وماركاتها. اتسع العالم فجأةً، ذاق أصنافًا من الطعام لم يعرف لها أسماء من قبل، وزار أماكن كلُّ شيءٍ فيها مباحٌ.

أسابيع معدودةٌ قضاها في جنّة فتحي التوني، الذي لم يقترب خلالها من جسد كريم، بالكاد بعض القبلات والأحضان والمداعبات الخفيفة في سهرات سُكْرٍ وعربدةٍ لدى بعض معارفه، ما أربك كريم ودفعه للتساؤل، فرغم خوفه من تلك اللحظة كان متلهفًا عليها، فإمّا أن يستمر الحلم بعدها وإما أن ينتهي، فيعود للوحدة والتسكّع برفقة محمد سكّر على الأرصفة.

ثم اتصل به التوني ذات ليلةٍ، واستدعاه بكلماتٍ معدودةٍ إلى أحد الفنادق. كثيرًا ما تخيّل كريم ذلك اللقاء قبل أن يحدث، تخيّل

استعدادًا خاصًّا، طقوسًا، وردًا وشموعًا ونبيذًا، تخيّل أن كل قُبْلةٍ ستكون مثل حكايةٍ من حكايات ألف ليلةٍ وليلةٍ. لكن الواقع خذل أحلامه، كان الفندق مجرد لوكاندةٍ حقيرةٍ في كلوت بك، لا تتناسب بالمرة مع مقام التوني.

في غرفةٍ بشعةٍ، كان التوني يدبّ في مؤخرة الولد ذكره القصير الغليظ بلا توقف على مدى ساعتين حتى خشي كريم أن يغلبه الألم، فيصرخ، وتكون فضيحةً. لم يدرك مشكلته بالضبط، لكنه لاحظ أن كيس خصيتيه يكاد يلتصق بما بين فخذيه، فلا يتدلى ولو بدرجةٍ طفيفةٍ مثل بقية الرجال، إلى جانب ضمورهما الواضح، فلعلّه كان يعاني علةً تجعل القذف مستحيلًا.

المهم أن كريم نزف دمًا من فتحة شرجه، وبكى مسترحمًا التوني أن يعتقه، فأخذ الرجل يضربه كالمجنون، بيديه وقدميه، دون أن يحاول كريم الدفاع عن نفسه؛ فقد تركز كل همه في لملمة ثيابه وتغطية نفسه بها بأية طريقةٍ، حتى يفلت بجلده. في الميكروباص، كان يبكي صامتًا والناس تتفرج عليه، بينما ما زال يشعر بالدم الساخن يبلل ثيابه من تحته.

لم يبكِ كريم بعد أن أتمّ حكايته، بل ابتسم بجانب فمه، كأنه يتذكّر نكتةً سخيفةً، ثم أدارَ وجهه، وأخرج مصحفه الصغير.

(36)

كأنني مازلتُ إلى الآن أستنجدُ بكريم، وأستعينُ بحكاياته، لأطمس السجن وأهرب منه، وكأن تلك المحنة لم تكن إلّا مسلسلًا طويلًا، أتابعه حلقةً بعد أخرى، متكاسلًا ومنتزعًا نفْسي من هموم الدنيا كلها. ربما بتأثيرٍ من كريم أيضًا، توهمتُ أحيانًا أنني بدأت أرجعُ إلى اللـه في فترة السجن، وكنتُ قبل ذلك أرى أن هذا الطريق ليس من حقنا؛ لأنه يناقضُ رغباتنا الواضحة، وعواء الاحتياج المُلحّ ينهش صدورنا ليلَ نهارٍ، وعجزنا عن رفض الانصياع له. كان رأي كريم مختلفًا، كانت تبدو المسألة بالنسبة له كأنها امتحاننا الخاص، المختلف عن امتحان بقية الناس، وكل واحدٍ منهم له ورقة

أسئلته الخاصة به وحده، وحتى في وسطنا يبقى لكلّ منا محنته وتجربته التي لن يخوضها أحدٌ نيابةً عنه. أقول توهمتُ لأنني أدركُ الآن افتقاري للإخلاص في اللجوء لله. كان في تسليمي لأمره شيءٌ من المكر، كأنني كنت أحاول رشوة القَدَر بطريقةٍ ما؛ لكي يغيثني مما وقعتُ فيه. أو لعلّني حوّلت إذعاني للحكومة والقضاء والزبانية إلى حالةٍ روحيةٍ مضحكةٍ وهشّةٍ، ورغم ذلك كثيرًا ما كنتُ أبكي حينما يتلو كريم القرآن بصوته الرائق. وكان الندم لذيذًا، كأنه يستدعي مُتعة الذنب نفسها بعصا سحرية.

من السهل أن يتحوّل الضحية إلى قدّيس في عين نفْسه على الأقل، وهو فخٌّ آخر أوشكتُ على الوقوع فيه. أمّا في أعين مَن حولنا، فلم نكن إلّا قذارةً لا بُدّ من التخلص منها بأية طريقةٍ، وقد وجدت الدولة نفسها في موضع حرجٍ بين الضغوط الدولية وبين تضخّم القضية في الإعلام الذي لم يتوقّف عن نهشنا لحظةً، وظهرت الدولة كحامٍ لأخلاق وثوابت المجتمع ضد البدع والكفر والشذوذ. حتى العساكر الغلابة بدا أنهم يستمتعون بأذانا والسخرية منا وإهانتنا، كلّما دخلنا ساحة المحكمة لا يتوقفون عن سبنا ولعننا: "أهلًا بالخولات، يا عبدة الشيطان يا شواذ يا ولاد الزانية"، وكثيرًا ما يرفقون هتافات الترحيب هذه بالضرب بالعصي أو الأيدي ما دمنا في مكان غير مكشوفٍ للأعين والكاميرات.

طوال الجلسات، كان الحضور الأمني غير معقولٍ، وكأننا إرهابيون بالفعل، وكأنّ هناك من سيحاول تهريبنا من بين أيديهم، سياجٌ دائمٌ من العساكر يفصل بيننا وبين الآخرين من المحامين والصحافيين والأهالي. حتى الأهل والأقارب تعرّضوا لأحط أشكال الإساءة، سأل بعض العساكر أمهاتٍ يسألن عن أولادهن وتبدو عليهن علامات الفقر: "إنتم بقى أمهات الخولات؟".

. كان هــذا كلــه هو الجنــة ونعيمها للإعلاميين. عشــرات من الصحافيين والمصورين ومراســلي القنــوات. تلتهمنا الكاميرات، وكأننا من مشــاهير صناعة الســينما نتبختر على البساط الأحمر في مهرجان عالمي. ومن أولى الجلسات بدأنا نواري وجوهنا بأي شيءٍ نجده في متناولنا، أكياس بلاستيك، مناديل، قطع ثيابٍ صغيرةٍ متقوبةٍ أمام العينين.

كلّما أتأمل الآن بعض صور القضية المنشورة في الصحف أو على الإنترنت، ونحن نواري وجوهنا هكذا أقول لنفسي ليتنا ما فعلنا، ليتنا كشفنا وجوهنا أمام الأعين والعدسات. فقد ظهرنا وكأننا كائناتٌ غريبةٌ بلا وجوهٍ، لسنا بشرًا مثل بقية الناس، ولعلّ هذا أكّد الإحساس بالتهمة والإدانة. ثم ما جدوى أن نخفي وجوهنا، وقد نشرت بعض الصحف الرسمية أسماءنا ومهننا وأعمارنا واحدًا واحدًا؟ حتى قبل أن يصدر الحكم، كانت أغلب الصحف والمجلات

نتصرّف وكأنه قد صدر، تتعامل معنا باعتبارنا عبدة الشيطان، من أتباع قوم لوطٍ، ندعو لدينٍ جديدٍ يحث على الفجور واللواط، ونشجع على الزواج بين الذكور.

إلى أن التقط أحد الصحافيين اسمي من بين الأسماء، واكتشف أنني ابن الممثلة الراحلة بدرية أمين، فراحَ يكتب الموضوع تلو الآخر، في صحيفةٍ أسبوعيةٍ صفراءَ. يكتب عن القضية في الظاهر، لكنه في الحقيقة كان يكتب عني أنا وحدي، وعن أثر تربية أمي لي، متفلسفًا حول نظرية "ابن أمه"، وغياب الأب، وجذور الشذوذ. أفكار كان يُمكن لي أنا نفسي أنا أقتنع بها في زمنٍ سابقٍ، قبل أن ألتقي عشرات الأشخاص ممن اختلفت ظروف تربيتهم ونشأتهم عني تمامًا، ومع ذلك ولدوا ميالين للرجال. لم يكتفِ الصحافي الهمام بذلك، بل اكتشف وهو ينبش في قمامة الماضي أن خالتي هي المطربة حسنية، أو حُسنى كما اشتهرت، وأن حياتها انتهت بجرعة مخدراتٍ زائدةٍ، وقضت آخر سنواتها في مصحات علاج الإدمان. وبعدَ أن نفد مخزونه من الماضي، لجأ إلى فرقعةٍ جديدةٍ، وكتبَ أنني تزوجت من فتاةٍ سيئة السُمعة، كانت تعمل عندي. كان طبيعيًّا عندئذٍ أن تستسلم شيرين لأهلها وتطلب الطلاق.

بعد توقيعي على أوراق الطلاق، عدتُ من مكتب المأمور في ذلك الصباح، وجلستُ في ركني، وأخذتُ أبكي، لا لشيءٍ غير

أنني تذكرتُ بنتي بدرية، دون أن أعرف إن كنتُ سوف أتمكن من رؤيتها مرةً أخرى. استيقظ كريم على صوت بكائي، وراح يدلك يديّ بين كفيه الدافئتين، ويهوّن عليّ، حتى هدأت قليلًا، وتناولت قرصًا كنتُ أحتفظ به للمساء، ووجدتُ كريم يبتسم، ويخبرني بأنه كان يحلم بصلاح جاهين، وكان الشاعر العظيم يغني له أغنيته "البيانولا". وإذا بكريم ينهض واقفًا، ويشرع في الغناء والتحرّك الهيّن على الإيقاع:

أنا دبت وجزمتي نعلها داب، من كتر التدوير ع الأحباب، يا سَلَملم لو أعتر في حبيب، ده أنا أرقص من كتر الإعجاب، كدهو كدهو كدهو...

ويتمايل لليمين ولليسار، بينما يصفق له بعضُ المستيقظين مبكرًا من نزلاء العنبر. مسحتُ دموعي، بينما أهمس معه بصوتٍ مثل خرقةٍ ممزقةٍ:

كدهو كدهو كدهو...

ثُم حطّ عليّ الخرس، بعد شهورٍ طويلةٍ بلا رعايةٍ أو أدويةٍ، تحديدًا في الجلسة السابقة على جلسة النطق بالحكم، أوّل حُكم. بينما كنا في الحبسخانة الموجودة في المحكمة، ننتظر ترحيلنا من جديدٍ، أردتُ أن أطلب كبريتًا من أحدهم ففوجئتُ بلساني ثقيلًا مثل الحجر، وحلقي يصدر صوتًا غريبًا، كأنه صوت حيوانٍ أصابته

رصاصة المخدّر. قبل أن يحطّ عليّ خفّاش الخرس ويمتص قدرتي على الكلام، كان آخر ما نطقت به، وأنا أشير لكريم القابع بجانبي في ركن القفص بالقاعة:

شايف أبو بدلة سودا اللي هناك ده؟ عبد العزيز!

قلتُها بأنفاس متقطعةٍ ولاهثةٍ، لكنني نطقتُ على أي حال، فرفعَ كريم رأسه ببطءٍ، ومن وراء الفانلة البيضاء المثقوبة التي تحجب وجهه نظرَ إلى عبد العزيز وهمس: زي القمر.

ظللتُ أبكي طوال الطريق في سيارة الترحيلات؛ لأنني لم أكن أعرف ماذا جرى لي. في العنبر أشرتُ لكريم بما معناه أنني عاجز عن النطق. فقال:

مش ممكن، حاول.

وراح يكرر تلك الكلمة البسيطة المستحيلة كل دقيقتين أو ثلاث، وهو ينظر إليّ بتشجيعٍ وإشفاقٍ. لم يخرجْ مني غير عواءٍ غير مفهومٍ، أضحكَ بعض من حولنا، ظنًّا منهم أنني أفرطتُ في تعاطي الأقراصً، حتى انعقد لساني.

منذ ذلك اليوم بدأتْ علاقتي بالقلم، وأصبحَ لساني البديل. أصابني نوعٌ من الهيستريا التحويلية، كما فهمتُ من دكتور سميح فيما بعد، حينما عجزتُ عن احتمال المزيد من الضغوط والصراعات، حوّلها

عقلي إلى عَرَضٍ عضويٍّ؛ ليخفف من وطأتها.

حين رأيتُ عبد العزيز في قاعة المحكمة، وقبل أن أصير أبكم تمامًا، لم أشعر بشيءٍ خاصٍّ، لم تسر رجفةٌ في بدني، لم تصعد الدموع إلى عينيّ، كان مثله مثل جميع الحاضرين الآخرين في القاعة، رجلٌ حُرٌّ آخر. جميعهم أحرارٌ، والأهم أنهم كانوا نظيفين، أسماؤهم أيضًا كانت نظيفةً. ولو نسيتُ كل ما مرّ بي خلال فترة الشهور السوداء تلك، فلن أنسى يومَ قُبِضَ عليّ أنا وهو، ولا يومَ النُطق بالحكم طبعًا، الذي كان مهزلةً دوليةً، مُولدٌ بلا صاحبٍ أو كرنفالٌ شعبيٌّ، أتى الجميعُ إليه للمشاركة بلعب دورٍ، من أول باعة المثلجات أمام القاعة والأمهات الباحثات عمّن يرحمهن ويساعدهن على الدخول إلى القاعة، أجانب من جمعيات حقوق إنسان ومحطات فضائية غربية، دخل بعض هؤلاء إلى القاعة وبدأوا يسجّلون بالصوت والصورة، قبل أن تبدأ الجلسة. تحدّث أحد المساجين معهم من مطرحه في القفص، في البداية، كان الجميع يتحدثون في الوقت ذاته، وأنا منزوٍ في الركن إلى جانب كريم. راح كثيرون يدينون ما حدث، ويفَضْحون الحكومة على مستوى العالم كله بما أصابهم من تعذيبٍ، محاولين تبرئة أنفسهم بطريقةٍ أو بأخرى، وبلغتْ سمعي صيحاتهم المتداخلة وسط ضجيج القاعة قبل دخول القضاة:

إحنـــا عاوزين كل واحد ياخد حقّه، زي مـــا الصحافة فضحتنا وخربت بيوتنا، لازم بعـــد الحكم تكتب الحقيقة. ناس كتير طلعت، سابوهم يمشوا، ناس معاها واسطة، أو أجانب وعَرَب، عَرَب كتير.

وهكذا، ضجيجٌ لم ينجح بالمرة في التغطية على ذعرنا جميعًا من توقّع الحكم الذي سيُنطق به بعد قليلٍ. ومع هذا، امتلك بعض مَن معنا في القفص من التوازن والشجاعة ما يكفي للتحدث باللغة الإنجليزية مع وسائل الإعلام الغربية، مؤكدًا لهم للمرة الألف أننا لا نعرف بعضنا بعضًا، وقُبِضَ علينا من أماكنَ مختلفةٍ، وأنه لا وجود لتلك الشبكة الوهمية التي تزدري الأديان وتنشر الشذوذ إلا في ملفات القضية، وأننا حتى الآن لا نعرف معنى أو سببًا لوجودنا هنا طوال تلك الشهور. أثارتْ شجاعة هؤلاء إعجابي، وخصوصًا حين تكلموا عمّا ذقناه من تعذيبٍ بدنيّ ونفسيّ، وتمنيتُ لو أنني وُلدتُ مثلهم شجاعًا، وأدركتُ أن خرسي المُستجد ليس إلّا امتدادًا طبيعيًا لخرسي القديم فيما مضى. للحظاتٍ عابرةٍ فقط، فكّرتُ أن أقتدي بهم في الشجاعة، وأن أكشف عن وجهي، ولو ثوانيَ معدودةً، على الأقل بقدر ما أُلفت نظر البرنس وعبد العزيز إلى وجودي قريبًا منهما إلى هذا الحد، لكن يدي تصلّبتْ، وما هي إلا دقيقةٌ واحدةٌ، وانتبهت القاعة كلها على دخول القضاة.

كانـــت الضجة خارج القاعة غير محتملـــة. كثيرون من أهالي المتهمين لم يســـتطيعوا الدخول، فراحوا يطرقون على باب القاعة

بشدةٍ ويصيحون، بينما بدأ الحاجب في المناداة على أسمائنا جميعًا واحدًا فواحدًا. حين نودي اسـمي، تطـوّع كريم بالصياح (حاضر يا فندم) بـدلًا مني. ثم بدأ القاضي يقرأ الأحـكام، بنفْس طمأنينته وهدوئه وثباته. لم نسمع حرفًا واحدًا، توقّف للحظات وجال ببصره في القاعة، ثم واصل قراءة قائمة الأحكام كأنّ شـيئًا لم يكن، تجرأ بعضنا على أن يصرخ:

مش سامعين حاجة! مش سامعين يا باشا!

وزاد الهياج حين كنا نسمع عباراتٍ مقتطعةً مثل الحكم بالسجن ثلاث سنواتٍ، ثم الحكم بالسجن كذا سنة من المتهم رقم كذا إلى رقم كذا. ثم انطلقت صيحةٌ:

إنت ظالم! ومصر كلها ظالمة!

غلبني النشيج، وانفجرتُ أبكي، والصيحات تتواصل من داخل القفص، والخبطات والصرخات تشتد من الخارج على باب القاعة، دون أن يأبه القاضي، وضيء الملامح رابط الجأش، بشيءٍ من هذا كله. صار الضجيج كأنه طنينٌ واحدٌ كبيرٌ في أذنيّ، لم أعد أحتمله، لم أعد أريد أن أعرف الحكم عليّ، وهل كنتُ من بين المحكوم عليهم بالسجن، أم ممن أخذوا براءاتٍ، كنتُ أريد فقط أن يتركوني أذهب، أختفي، أن أعود بأقصى سرعةٍ إلى ركن العنبر في السجن.

شـــهدتُ حالات إغماءٍ وتشنّج، ورحتُ أضغط على رُسغ كريم، وأنا ألهث وأنهج، حتى عجزت تمامًا عن التقاط أنفاســي، ثم غبتُ عــن الوعي، ولم أفقْ إلا في ســيارة الترحيلات علـــى ماءٍ يندلق علـــى وجهي مـــن زجاجةٍ في يد أحدهم. لم يكـــن الحال قد اختلف كثيـــرًا عمّا كنا عليه في القفص فـــي قاعة المحكمة، بكاءٌ وصراخٌ وعويـــلٌ وانهيار أكثر من خمســين رجلًا. لم يكـــن أيٌّ منّا يدري شـــيئًا عن مصيره، رغم النطق بالحكم. عرف العالم كله مصائرنا ما عدانا. كانوا يتســـاءلون من حولي فـــي جنونٍ: هو قال إيه؟ انتا سمعت؟ ســمعت الحكم؟ هو قال البراءات من كام لكام؟ بلا فائدةٍ، فلا العساكر أو الأمناء كانوا قد سمعوا أو اهتمّوا بمعرفة أي شيءٍ. ملتُ على جدار ســيارة الترحيلات، ووجدتُ نفســي أخبط رأسي فيـــه بكل ما تبقى فيّ من عزمٍ مرةً بعد أخرى، المتهم الغريب الذي كان مكلبشًـــا معي راح ينظرُ إليّ مذهولًا لا يدري ماذا يفعل، وقد انقطعت دموعه فجأةً أمام الدم المنبجس من جانب جبهتي. لحظات وكان كريم قد نجح في اختراق عجين الأجســـام وضغط على كتفيّ بيديه رغم الكلبشـــات التي تقيده بآخَـــر، وراح يتلو بصوتٍ عنيفٍ كأنه يُهدد شياطين لا يراها سواه:

﴿يس ◉ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ◉ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ◉ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ◉ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ◉ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ

غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(37)

في لعبة الكتابة، على مدى الأسابيع الماضية، كنتُ أتأرجح بين التذكّر والنسيان. كأنني كلّما دونتُ شيئًا في هذه الدفاتر، كنتُ أمحوه من داخلي بطريقةٍ ما. كان عليَّ أيضًا أن أتجاهل جميع الآخرين، شيرين وبدرية الصغيرة، البرنس وعبد العزيز، حتّى أستطيع أن أعثر على هاني محفوظ أولًا، وراء كل صوره وأدواره وأشكال تنكّره. أفلحتُ أيضًا في نسيان شهور السجن، ولو لبضع ساعاتٍ كل يوم، ونسيتُ حتّى مَن كانوا مثل إخوةٍ لي هناك، محمد سكّر، وبالطبع كريم الذي منحني هدايا قد يجهل هو نفسه قيمتها.

تركتُهم خلفي مثلما تركت هاني الآخر، السجين اللاهث الذي يتمنى الموت. لكنّه لم يمت، ظلّتْ أمنيةً هشةً، وربما غير صادقةٍ. ولم تكن محاولتي لقتل نفسي في سيارة الترحيلات إلّا رد فعلٍ على الصدمة، ولم أكن بحاجةٍ حتى إلى الرقية بسورة ياسين التي قام بها كريم من أجلي، احتجتُ فقط إلى كم غرزة من غير بنج قام بها طبيب السجن، وهو يدخّن ويسخر مني.

لم نعرف أحكامنا إلا بعد عودتنا إلى السجن، حُكمَ على المتهم الرئيسي في القضية، سمير بركات، بخمس سنوات سجن، وثلاث سنوات للمتهم الثاني، أعز وأقرب أصدقائه، وسنتين لعشرين متهمًا آخرين، يتلوها عامان تحت المراقبة، وكان أغلبهم ممن جمعتهم المصادفات السيئة بسمير هذا، والتقطوا صورًا معه في حفلاته، وسنة واحدة لمتهم آخر، وحُكم ببراءة تسعة وعشرين متهمًا، كان أغلبهم ممن جمعوهم من الشوارع، أو من أمام الكوين بوت، دون علاقةٍ تربطهم بسمير، ودون أن يثبت عليهم اعتياد الفجور.

اختلط الحزن بالفرح، بكاءٌ وصياحٌ وعويلٌ وزغاريدُ ورقصٌ وهياجٌ وقبلاتٌ وأحضانٌ. تظاهر أصحاب البراءات بالحزن لأجل خاطر الآخرين، وراحوا يشجعونهم بكلام طيّبٍ، عن أن هذا حُكم درجة أولى، وما زالت هناك فرصٌ كثيرةٌ للاستئناف والنقض، وأن الدنيا مقلوبةٌ من أجل هذه الفضيحة، ولا بُدّ أنه سيتم العفو عنهم

جميعًا آجلًا أو عاجلًا. وتظاهر مَن أخذوا أحكامًا بالفَرَح لأصحاب البراءات، مسحوا دموعهم، وشاركوا في الرقص والغناء، وادّعى بعضهم أنه لا يريد أن يخرج لمواجهة الفضيحة والعار، وأنه يفضّل البقاء هنا إلى أن ينساه الناس. عندئذٍ انتهبتُ، وأحسستُ بالحجر الرازح على صدري والذي تجاهلته في غمرة الإحساس بالنجاة. كيف سأخرج؟ لماذا؟ ولمن؟ كيف سأعيش بعد كل ما حدث؟ لم يكن الخرس هو طوقي الخانق، بل الذعر من كل شيءٍ.

لأسابيع تخيّلتُ أن هناك من يتعقبني، أو أن يدًا جهنميةً ستتنزل عليّ في أية لحظةٍ. وفي الأيام الأولى لخروجي أدمنتُ الاستحمام مراتٍ كثيرةً في اليوم، واستسلمتُ للنوم أغلب اليوم، وأوشكَ اليأس أن يدفعني لإنهاء حياتي أكثر من مرةٍ، حتى صاحبتُ العنكبوت، وعرفتُ طريقي إلى هذه الدفاتر التي راحت تتكاثر في دُرج التسريحة مثل شهودٍ صامتين في قضيةٍ لا أحدَ يدري لمن يكون الحكم الأخير فيها. مع توالي السطور والصفحات، كنتُ أشعر أن جلدًا قديمًا يتقشّر عن جسدي، متساقطًا ببساطةٍ وبنوع من الألم اللذيذ، وفي الحين نفسه لم أكن أعلم أيَّ جلدٍ جديدٍ قد بدأ يتكوّن، لم أكن واثقًا من أنني سأعثر على صورتي في المرآة المواجهة لي، إذا توقفّت للحظةٍ عن الكتابة، ورفعتُ عينيّ عن الورق. صرتُ شبحًا، يتبدّد ببطءٍ، مع كل سطرٍ يتجاوزه.

كانت الكتابة، في بعض الأحيان، أصعب عليّ من النُطق. تتجمّد أصابعي أمام الصفحة لوقتٍ يطول، فكأنّ الخرس قد شلّ يدي وعقلي ووجودي كله. وفي أحيانٍ أخرى، كنتُ أكتب ببطءٍ شديدٍ، وكأنني أقتطع كل كلمةٍ من لحمي بسكينٍ من خشبٍ أو حجرٍ. أتوسل إلى كيانٍ غامضٍ داخلي، كأنه حارس قلعةٍ خفيةٍ من الكلمات والصور والحكايات؛ ليتركني أدخل إليها ولو دقائق، أو أن يسمح للكلمات بالتسلل خارجها. هذا الحارس كان يبتعدُ تمامًا في ساعاتٍ مباركةٍ كثيرةٍ، فكأنه لم يوجد قط، تنفتح كل أبواب القلعة، تندك أبراجها، ويختلط سكّانها بجنود حاميتها، فأرى الكلمات تنصّب من بين أصابعي، دون أن أقدر على استمهالها أو تنظيمها في عبارةٍ مفهومةٍ. في تلك الأوقات كنتُ أنسى عمليًّا كل شيءٍ، أتحوّل إلى شخصٍ آخر مجهولٍ، يتفرج على هاني محفوظ من بعيدٍ، أو ربما يتخيله ويصنع وجوده من العدم بالكلمات. وكلّما قطعتُ شوطًا جديدًا في سرد حكايتي أشعر بالخفة مثل عبدٍ يشتري حريته بعَرق جبينه مع كل طلعة شمسٍ، ويفقد مع كل غروبٍ قيدًا جديدًا من أغلال عبوديته.

لعلّني تقمصّتُ روحَ كريم، رواي الحكايات، خلال تلك الرحلة التي أوشكتْ على الانتهاء. كنتُ أحيانًا أسمعُ صوته في رأسي يردد الكلمات التي أكتبها واحدةً بعد أخرى، كنتُ أحاول أن أتخيّل كيف عساه أن يحكي هذا أو ذلك، ثم أتبع طريقته، كنتُ أحاول أن أشبهه،

هو الذي في نصف عمري تقريبًا، وجميع خبراته في الحياة لا تملأ قبضة اليد، لكني أردتُ أن يكون لي بعض قدرته على اللعب بالخيال، والنسيان السريع للأوجاع، والسخرية والضحك، وأيضًا التماس محبة اللـه، ولو أنكرها علينا سكّان الدنيا والآخرة.

كانت جراح كريم تبرأ بسرعةٍ؛ فإذا كنتُ قد ظللتُ سنواتٍ أتذكّر بغيظٍ ما فعله بي رأفت، ملقيًا بنفْسي في كل مزبلةٍ ممكنةٍ أمام أي رجلٍ عنده استعدادٌ، فإنه لم يمنح فتحي التوني مثلًا أيّة فرصةٍ ليستولي على تفكيره طويلًا، وبدا كأنه نسيه تمامًا في غضون أيام. ثم مضى مستغرقًا في خيالاته رغم الجوع وتهديد الفلس. فكّر في الرجوع إلى الأريزونا، لكنه لم يفعل. اقترض نقودًا من قريبه كابتن صلاح أكثر من مرّةٍ، حتى ألمح له الرجل بعدم قدرته على إقراضه المزيد، في تلك الأيام نفسها ربما كنتُ أنا أتوجّع وأصرخ في وجه الأرض والسماء، بسبب هجر الحبيب عبد العزيز.

عثر كريم على عملٍ في محل ملابسٍ قريبًا من ميدان روكسي، ورغم بُعد المسافة من سكنه في العمرانية، فقد أحسّ بالسعادة وسط كل تلك الثياب الثمينة، حتى لو لم تكن ملكه. استعادَ حلمه القديم في تصميم الأزياء، واشترى بعد أول راتبٍ له كراساتِ رسم جميلةً وأقلامَ رصاصٍ وألوانًا ومجلاتِ موضةٍ قديمةً، وأخذ يرسم في أوقات فراغه، وبين الحين والآخر، يأخذه الحنين إلى الشنطة

القماشية بما تحويه من كتيباتٍ دينيةٍ ونصوصٍ صوفيةٍ، فيتصفح فيها قليلًا قبل أن يأخذه النوم.

في الليل، وأيام الإجازات، يتسكّع، وربما أشبع جوع جسده بمغامرةٍ سريعةٍ هنا وهناك، دون أن يحتاط أو يمارس جنسًا آمنًا كما علمني البرنس أكثم وأنا على أول الطريق، ودون أن يشعر بأي شيءٍ أيضًا إلا شهوة اللحظة ووجعها. كان ينتظر، رغمًا عنه حتى ودون أن يدرك ذلك صراحةً، ينتظر فارسه على الجواد الأبيض. وكثيرًا ما شعرتُ في نظراته إليّ تساؤلًا، كأنه يقول أهو أنت؟ حتى بعد أن حكيتُ له حكايتي مع عبد العزيز باختصارٍ ذاتَ ليلةٍ، حتى وهو يرى بعينيه المندهشتين على الدوام أنّ ما تبقى مني لم يعد نافعًا لأي شخص.

واصل تسكعه مع محمد سكّر، إلى أن أقنعه صاحبه في ذلك اليوم البعيد بالذهاب للسهر، بنقودهما الفائضة عن الحاجة والقليلة للغاية على أول الشهر، في الكوين بوت، حيث يلتقي بعضُ الحبايب مساءَ كلّ خميسٍ، وحتى مطلع الفجر تقريبًا، وهناك، من يدري؟ قد يتعرّفان بشخصٍ ما، وربما لا يكون ذلك الأمير المجهول هذه المرة نسخةً من فتحي التوني، ربما يكون شابًا ثريًا يبحث عن شريكٍ مناسبٍ، يراقصه ويضمه إلى جسده في آخر السهرة. في المرة الوحيدة التي ذهبا فيها إلى هناك، قُبِض عليهما. بالداخل لم

يكترث بهما أحدٌ. قال كريم:

حسّوا إننا أغراب عنهم، من شكل لبسنا، من إزازة البيرة الوحيدة اللي فضلنا ماسكينها طول السهرة، من خضّتنا في المكان، من طريقتنا في الرقص، عرفوا إننا غُرب، إننا مش تبعهم، ومش زيهم، إننا وهمّه مستحيل نكون صحاب.

أشرتُ إليه وإليّ، ثم جمعتُ سبابة يمناي إلى أختها في يسراي، وباعدتهما، وضممتهما أكثر من مرة؛ لأقول له إنني أنا وهو صرنا صديقين، ومثل شقيقين. فهمني، لكنه قال:

هنا حاجة، وبرّه حاجة. يمكن لو كنت شفتني بره مكنتش اهتميت بيّا خالص، مين عارف؟

لم أنجرّ إلى أي وعد سهلٍ بالإبقاء على صداقتنا بعد أن نخرج من هنا، إذا خرجنا للنور ذات يوم. كنتُ أعرف أنه يحتاجني بقدر ما أحتاجه، احتياج الممرض والمريض أحدهما للآخر، اقتران الحكاية بسامعها.

أحيانًا، كنتُ أتخيّل أنني أحكي لعبد العزيز كل ما مرّ بي في السجن، ومن بينها حكايات هاني وسكّر والآخرين، ولكن بأسلوبي وطريقتي أنا، ناسيا أنني وعدتُ نفسي بعدم الرجوع إليه مهما فعل، وناسيا أنني لا أعرف إن كنتُ سأستعيد قدرتي على الكلام

بعد ذلك أم لا. بذرة هذه الصفحات تكوّنت في تلك الأيام دون أن أعي، بذرة الحكاية التي راحت تطرق الباب من الداخل بإصرارٍ، حتى تتحرّر وتوجد، وتعيش حياةً ربما تكون أطول من حياة كاتبها وقارئها. وإذا كان كريم هو الصوت الذي سمعتُه بداخلي يردد كل كلمةٍ أكتبها، فقد كان عبد العزيز هو الأذن التي أوجّه لها حكايتي من أوّلها إلى آخرها.

ثم اكتشفتُ أنني ألعبُ الدور الذي تلهفتُ إلى لعبه مع صاحبي عبد العزيز، قبل أن يمزّقوا نسيج حكايتنا الوليدة ذات ليلةٍ من مايو الماضي. كنتُ أرجو أن أصير شهرزاده، فأحكي له كل شيءٍ جرى معي، ومع آخرين غيري من الحبايب. أردتُ أن أسحبه من يده؛ لأدخل به عالمنا وأجعله يرى ويعرف ويدرك. كنتُ سأحكي له بلا ترتيبٍ أو نظامٍ، أبوحُ بأشياء لم يسبق أن قلتُها لنفسي حتى، ولا للدكتور سميح، ربما أعترف الآن فقط أنني كنتُ أتخيّله هو بالذات دون سواه يقرأ هذه الصفحات، وفي اللحظة ذاتها أتخيّل صوت كريم وهو يقوده بين ممرات قلعةٍ خفيةٍ داخلي، قلعة الكلمات، تشيّدها ابتسامةُ قبولٍ، وتهدمها نظرةُ ازدراءٍ.

رحتُ أعثر في صناديقي القديمة على أغرب الأشياء الممكنة، حتى ولو لم أكتبها جميعها، وكأنني أغوصُ في بطن سفينةٍ غارقةٍ من أربعمائة عامٍ وليس أربعين فقط. بصفة جارنا العجلاتي في

عابدين ناحيتي حين لاحظ كيف أنظر إليه وأعضّ شفتي السفلى يومًا بعد آخر، وصفعة أستاذي في المدرسة الثانوية حينما مددتُ يدي نحو فخذه في أثناء الدرس الخصوصي، وزميلي في الجامعة الذي اختلى بي في حمّام الكلية وبعد أن صبّ شهوته فيّ أخذ يركلني وهو يسب ويلعن. ثم وددتُ أن أحكي لصاحبي عن متاعب الجسد وأمراض المهنة التي نعتاد عليها مع اعتيادنا مشاوير الليل وشفرات الاصطياد، حكيتُ له عن لعنة قمل العانة وبلوى التنيا التي تلتصق بالجسم كالقراض، ومواجع البواسير والشروخ بين وقتٍ وآخر، فينوي الواحد منا أن يتوب عن كل لذةٍ عابرةٍ تجلب له كل هذا القدر من الألم، وما إن يهدأ الشرخ وتتكوّن الزوائد الصغيرة حول فتحة الشرج، حتى يولد الحنين من جديدٍ، بُرعمًا أخضر.

وددتُ أن أحكي عن الأجساد المعروضة على الأرصفة في الميادين والأماكن المعروفة منذ حلول المساء، وحتى ما بعد انتصاف الليل. عن الأعين التي تفتش في نهم عن رسالةٍ فيما حولها، عن طمأنينةٍ، عن فرصةٍ أخرى ولو ليلةً واحدةً. عن زحام الأتوبيسات وما يتيحُ من فرصٍ ثمينةٍ، عن الشباب المحروم الذي يجد بغيته في الحبايب، فيتعامل معهم كمصرفٍ للمنيّ الذي يفور في جسمه ويدفعه للجنون، ومع الوقت يتخيل هؤلاء الحبايب أنفسهم مجرد مبولةٍ للمنيّ، لا رفاق فِراشٍ أو شركاء وجبةٍ جنسيةٍ سريعةٍ حتّى، فيصير عاديًّا أن يُضربوا حتى تتورم وجوههم

وتزرّق أجسامهم، ومن المتوقع أن يُسرق كل ما معهم في أية لحظة إن أرخوا الزمام وأعطوا الأمان في غير موضعه. فنصبرُ مع الأيام مخلوقاتٍ غريبةً، ملوّنةً بالمكر والحذر، وشريعتها الخداع المتبادل، وسلاحها في لسانها وكلامها والحوارات التي تستطيعُ بها أن تأخذك إلى البحر وتعيدك ظمآن.

عن شاب ملتح جميل العينين، التقطه صاحبٌ لنا منذ سنوات من ميدان رمسيس، وحكىْ له كيف كان شيوخ إحدى الجماعات المتشددة في المعتقل يأخذونه في الليل، ثم يأمّونهم في صلاة الفجر. وعن موظفٍ كبيرٍ في وزارة التربية والتعليم ألقى بنفسه من شرفة بيته بعد أن نصب له أعداؤه فخًا، وضبطوه في أحد المكاتب راكعًا يمص قضيب موظف أمن تطوّع للمشاركة في الكمين. وعن آخرين غير هؤلاء، كثيرين، أكثر من اللازم. أردتُ أن أقول لصاحبي إن كل هؤلاء هاني محفوظ، لكنني لم أدرك ذلك حقًّا، إلّا تحت سطوة الكابوس الأسود، مُتلعثمًا ولاهثًا. لم أدرك هذا إلّا بعد أن رأيتُ كريم سعدون وأصغيتُ إليه، فعرفتُ أن بعض الناس يضيئهم نورٌ جوّانيٌّ لا سبيلَ إلى طمسه، ولو سُجنوا تحت سابع أرض.

(38)

أيقظني جرس الهاتف، واكتمل صحوي على صوت البرنس:

صح النوم يا كسلان. انزل خُد معايا قهوه بعد ما تفوق كده.

أغلق الهاتف دون أن ينتظر مني ردًا بطبيعة الحال، رغم أنني أحسستُ أنني على وشك التحدّث إليه، وحين جرّبتُ أن أتكلّم بعد أن وضعتُ السمّاعة لم يصدر عني إلا ذلك العواء الكريه، إنذار كاذبٌ كما يقولون. نظرتُ إلى دفتري الأحدث فوق الكومودينو، كنت قد نعستُ وأنا أكتب دون أتناول أيّ مهدّئ أو منوّم.

جلستُ بجانب البرنس على أريكةٍ في ردهة الفندق. راح يتحدث

بلا انقطاع، وبين الحين والآخر أمدّ يدي نحو القلم والدفتر؛ لأكتب له شيئًا بسرعةٍ. لم يتحدث بوضوح عن ضرورة الرجوع إلى الحياة والعمل والناس، لكنه أومأ إلى ذلك من وراء كل جملةٍ قالها. حكى لي أخبارًا متفرّقةً عن آخرين يعرفهم ممن كانوا مسجونين معي في القضية وتمّ الإفراج عنهم، وترتيباتهم للهجرة خارج البلاد، واختفاء بعضهم الآخر عن الأعين تمامًا. أخبرني باتصالات عبد العزيز اليومية ليطمئنّ عليّ، مؤكدًا أنه تغيّر حقًّا، نفض عنه الخوف، وابتعد عن ظل أهله، بدليل أنه لم يطق الاستمرار في عمله بالإمارات وأنا مسجونٌ على ذمة القضية، فلغى تعاقده قبل أن يكمل شهرًا واحدًا، وجاء ليكون هنا، يتابع مع البرنس والمحامين سير القضية.

دوّخني البرنس بالحكايات والأخبار، بينما لم أكن أطمع في أي شيءٍ سوى الانفراد بنفسي. لا أريد أن أعود إلى حياتي السابقة، وما زلتُ غير مستعدٍ لمقابلة عبد العزيز، حتى ولو كان قد خُلق من جديدٍ حقًّا. لم أكن أريد شيئًا من العالم كله إلّا أن يتركني في حالي، في غرفتي بصحبة كوابيسي، وعنكبوتي الصغير الذي راح ينسجُ بيتًا صغيرًا بالقرب مني في ركن التسريحة، بعد أن أطلقتُ سراحه من سجن الدُّرج.

أردتُ أن أقول للبرنس إن أمامي مشوارًا طويلًا عليّ أن أقطعه

وحدي دون معاونةٍ من أحد، وإلّا فلن أستعيد شيئًا أبدًا، مهما سافرتُ ومهما نطقتُ وغنيتُ ورقصتُ. رحلة عكسية، باتجاه الماضي، ووصولًا إلى الآن. ربما أعرف أين أنا، ومَن أنا، وماذا أريد. لكني لم أكتب له شيئًا من هذا، اكتفيتُ بالإيماء، حتى انتهى، فعدتُ إلى غرفة العنكبوت مُسرعًا، كأنني اشتقتُ لعشيقٍ سريّ لا يعرفُ أحد بوجوده معي.

يومان بعد ذلك، وأعدّ لي البرنس فخًا، فوقعتُ فيه دون استعدادٍ. دعاني إلى جناحه الخاص الصغير؛ لنتحدّث في موضوع مهمّ كما ادّعى، وبمجرد أن فتح لي الباب رأيتُ عبد العزيز. للحظةٍ فكّرتُ أن أستدير وأعود ببساطةٍ إلى غرفتي، أو أترك لهما الفندق كله، وأدور على وجهي في الشوارع وقد اقترب المساء، لكنّ شيئًا ما ثبّتني في مكاني، ربما أدركتُ بسرعةٍ عندما رأيتُه أننا كنا سنلتقي عاجلًا أو آجلًا، وأن تأجيل مواجهة كهذه ليس حلًّا، واستسهلتُ الأمر؛ لأنني عاجز عن الكلام، فلن أضطر لفتح فمي وأقول له شيئًا للرد عليه، إلّا إذا شئتُ، فأستعين بالورقة والقلم. كل هذه التبريرات والتفسيرات أتت فيما بعد، إنما لحظتها كان كل ما يهمني هو أن أسمع صوته وحسب.

تركتُ عبد العزيز يحتضنني بمودةٍ دون أن أشاركه الحماس، تدلتْ ذراعاي جانبي، كأنني أعلن له منذ البداية أنه لا شوق بي إليه،

كاذبًا ومذعورًا في اللحظة ذاتها من أن تكون كذبتي هذه حقيقةً. شممتُ عطره القديم ورائحة جسده. دقائق، وتركنا البرنس، وبين أيدينا طعامٌ خفيفٌ، وزجاجة ويسكيّ ديورَس، تكاد تكون ممتلئةً تمامًا. صببتُ لنفسي كأسًا، وأخذتُ أقلّب عينيّ في الأستوديو الصغير، مستعدًا للإنصات. للحظةٍ أردتُ أن أُهْرع إلى غرفتي، وأن أجلب الدفاتر التي أعالج نفسي على صفحاتها، أن أقدّم له حياتي في نسختها المكتوبة باختصار، وأن أريها له، أن أشير بإصبعي إلى صفحات وفقرات بعينها، ليقرأها، ثم نضحك أو نبكي معًا.

بدا متمهلًا، أخرج من جيبه عدة لف الحشيش، وجلس قبالتي هادئًا، يلفّ في صبرٍ وتركيزٍ كما عهدتُه دائمًا. اختلستُ النظر إليه، وأنا أتساءل عمّن يكون هذا الرجل؟ لم يكن قد تغيّر فيه أي شيء، ومع هذا فكأنّ حجابًا قد كساه، حجابٌ شفّافٌ غلّفه من كل جانب، عزله عني وعن كل صوره الحيّة داخلي. مع الأنفاس الأولى من سيجارته الملفوفة، وبعد عبارات متوقّعةٍ عن الوحشة والافتقاد، بدأ يحكي لي حكايةً، فأدركتُ كم افتقدتُ هذا الصوت، بلثغته اللذيذة في حرف الراء، التي يتجاهلها بجديةٍ. مدّ يده لي بالسيجارة، فأخذتُ نَفَسًا واحدًا، فكأنني ألقي بنفسي في البحر.

حكى عن زميلٍ قديم لهم أيامَ الجامعة، كان شابًا غريبًا، شديد الفقر وشديد العجرفة، لا يعجبه شيءٌ بالمرّة، لا الأساتذة ولا

الحكومة ولا النظام ولا الدنيا ولا الدين، شيوعيٌّ ربما، لكنه كان أكثر جنونًا وتطرفًا من جميع الطلّاب اليساريين الآخرين، حتّى هم كانوا يعتبرونه حالة شاذة. وكان مُستهترًا في إعلان إلحاده على الملأ بمناسبة أو دونها، ربما كان يسرّه أن يصدم الآخرين بآرائه الحادّة وسخريته من عقائدهم. المشكلة لم تكن حياة هذا الشاب، بل موته، الذي أتى سريعًا وخاطفًا كصفعةٍ على القفا بيدٍ خفيةٍ، حين راح ضحية حادثة قطار الصعيد مع عشرات غيره، مجرد جثةٍ مُتفحّمةٍ بلا معالم وسط رفاقه من البشر عديمي الأسماء والملامح كذلك. سافر عبد العزيز لحضور دفن وجنازة صديقه الملحد ذلك، في إحدى قرى إسنا، قرية صغيرة وجميلة يلوّنها رماد البؤس. وطوال الوقت، لم يكن صاحبي يفكّر إلا في صديقه المتوفى، وسخريته من كل تلك الطقوس والشعائر، ويتخيّله وهو يضحك ويكاد يفرفر من القهقهة، إذ كيف يُصلّون عليه الجنازة وهو لم يكن يؤمن بالله ولا بالأديان كلها. أرهقتْ هذه الفكرة ذهن الطالب الشاب عبد العزيز وعذّبته، لكنه صبر وتجلّد وهو جالس على حصيرٍ أصفر أمام دار أهل صاحبه الطينية، يستمع إلى القرآن يُتلى من مُشغّل شرائط عتيق، وفي اللحظة ذاتها يكاد يوقن أنه كان يسمع قهقهات صاحبه تنبعث من موضع ما، ربما من داخله. لم يفهم، كان الأمر كله ثقيلًا عليه.

سحبتُ الورقة والقلم، وكتبتُ أستفزّه:

والدرس المستفاد؟

تناول الدفتر، وقرأ سؤالي، فابتسم، ولم يردّ بالكلام، لكنه أخذ مني القلم، وكتب:

مفيش درس مستفاد.

وضحك ضحكةً صغيرةً، ولفّ سيجارةً أخرى. وبعد قليلٍ، كان ينفث دخانها قريبًا مني، وهو يواصل حديثه.

قال إنه تذكّر تلك الحكاية القديمة يومَ قبضوا علينا من ميدان التحرير، وأخذونا إلى قسم عابدين، وتحديدًا بعد أن نجح محامي أسرته في إخراجه، وعادَ إلى بيته آمنًا مطمئنًا. تخيّل نفسه صاحبه الراحل ذلك. كأنّه أدرك عندئذٍ من جديدٍ حقيقةً جارحةً، وهي أننا لسنا ملكًا لأنفسنا. نستطيع طول حياتنا أن نملأ الدنيا ضجةً وتمردًا وسخريةً، إلحادًا وجنونًا وصعلكةً، لكننا في نهاية الرحلة، حتى ولو بعد مائة عامٍ، نكون مجرد مادةٍ مُخجلةٍ يجبُ إخفائها سريعًا، مجرد شيءٍ كان مفقودًا، وأعيدَ إلى مالكيه الأصليين، ليفعلوا به ما يرونه واجبًا وصحيحًا. في أماكن أخرى من العالم، يستطيع الواحد أن يُوصي بعدم إجراء شعائر دينية له عند وفاته، أو أن تحرق جثته ويُنثر رماده في مكانٍ كان يحبه، يستطيع الواحد أن يغيّر دينه ونوعه وميوله، إذا شاء؛ لأنه ببساطةٍ إنسانٌ حُرٌّ، لكن عندنا هنا،

لا حقّ لنا في شيءٍ من هذا. نحن مجرد أشياء، بالنسبة لأنفسنا ولأهلنا وللحكومة وللجميع، لسنا أحرارًا أن نفعل بتلك الأجساد ما نشاء. إننا في النهاية ملك لهم، حتى دون أن يحترق بنا قطار الصعيد.

ظلّتْ هذه الحقيقة ترزح على صدره في أثناء الشهر الوحيد الذي قضاه في وظيفته الجديدة في دُبي. كل يومٍ كان يحاول تجاهلها ونسيان حكايته معي، كان يحاول أن يستعيد جلافة رجال أسرته، لكنه -كما قال- كان قد أصيب باللعنة، وانكسر القمقم الذي حبسَ العفريت داخله. أنت كسرتَ ذلك القمقم يا هاني، فانطلق العفريت، هكذا قال تقريبًا، فأردتُ أن أبكي، ولكني تماسكتُ. افتعل معهم مشكلةً في المؤسسة الإماراتية، وفسخ العقدَ، وتساهلوا معه؛ إكرامًا لمن أوصوا به. ثم عاد كالمجنون، ينتظر أدنى لمسةٍ أو احتكاكٍ للاشتعال. ثارَ في وجه أخيه الكبير، واعترف له بحقيقة ميوله الجنسية، وأدار ظهره لقبيلة الذكور الأشدّاء في صفوف العائلة الكريمة، وبدأ من أول السطر. وطوال الوقت كان الذنب نحوي يُثقل عليه، ولا يعرف ماذا عليه أن يفعل ليتخلّص منه، إلّا أن يناصرَ قضيتنا بالطرق التي يعرفها من خلال عمله، بمساعدة البرنس وبعض نشطاء حقوق الإنسان، رغم استعدائه لأهله وأغلب أصدقائه السابقين، وصورته الإعلامية التي تكاد تتحطّم تمامًا.

قال إنه لا يريد الآن مني أيّ شيء، وإنه أتى فقط ليشكرني؛ لأنني حرّرته، سواء قصدت ذلك أم لم أقصد.

لم يرقّ قلبي له، لم أشعر بالإطراء. بل حسدتُه، واغتظتُ منه وأنا أستمع إليه يتكلّم بكل هذا القدر من الموضوعية والمنطق، يتكلّم عمّا جرى لي وعشراتِ غيري من قهر كافر بنفس طريقة بيانات وجمعيات حقوق الإنسان. كأن المسألة كلها لم تكن بالنسبة له إلّا قضيةً عامّةً، ساعدته على اتخاذ موقفٍ حاسم أخيرًا، ثم تغيير حياته ومواجهة أسرته والمجتمع كله من ورائها. هل أصفّق له؟ هل أعلن مشهد الختام بعد أن تطهّر بطلنا من سقطاته؟ فكأنه لم يكن طرفًا ولا تورّط في مشاجرةٍ أو عناقٍ، لم يحتضن يومًا صاحبه الذي حبسوه وحاكموه وعبثوا بجسده وهو عارٍ بينهم لا حول له ولا قوة.

لم أعرف ماذا كنتُ أتوقع منه، كنتُ أشعر بصدقه، وأنه حقًا تغيّر، لكن بأي ثمن؟ لقد فقدتُ صوتي، ومن قبله، فقدتُ أشياء لم أكن أعرف حتى أن الواحد يُمكن أن يفقدها. كتبتُ له بيدٍ صارت الآن ثقيلة:

وأنا مش عاوز منك حاجة، مش عاوز حد، مش عاوز غير هاني محفوظ بس.

أعطيته الورقة مقطوعة من الدفتر، وأدرتُ له ظهري، وخرجتُ، ثم غادرتُ الفندق لا أدري إلى أين. كانت بشائر الاحتفال بحلول

العام الجديد تسري ساطعةً في كل موضع، أرى أنوارها وزينتها من وراء سواد نظارتي، وأشعرُ أنني أخفّ وأشجع، بينما يتردد في رأسي صوته الحبيب.

ساعة أو ساعتان من التجوّل، ثم انفردتُ بدفتري في البار الصغير الذي اكتشفته مؤخرًا، حيث صادقتُ الجرسون ميلاد، طويل القامة خمري البشرة وخفيف الحركة، وقد اعتادَ خَرسي ووحدتي وعكوفي على الكتابة وإكرامياتي السخية. عرض عليّ فجأةً قضاء ليلة رأس سنة جهنمية، بعد أيام قليلة، في كباريه رائع، يقع أعلى فندق غير بعيد. تحمستُ بلا ترددٍ لاقتراحه، رغم أنني وعدتُ البرنس بقضاء السهرة معه على حديقة السطح مثل كل عام؛ ربما لأنني كنتُ أعرف أنه لا شيء يمكن أن يعود كما كان، مهما تظاهرنا، ومهما أخفينا ما تحت ثيابنا من علامات الأذى والذل. وربما لأن ميلاد هذا لا يعرفني، ولا يعرف القصة التي تمتد صفحاتها من خلفي مثل خيط الدم.

في ليلة رأس السنة، تسللتُ من الفندق في غفلة من البرنس، مثل مراهق يهرب من البيت ذات فجر قبل أن يصحو الأهل. وجدتُ البار انسجاما في انسجام. وضع الزبائن الطراطير الحمراء أو أقنعة بابا نويل، وانخرطوا في الغناء والنكات. شربتُ بلا عجلةٍ، متابعًا التهريج والصخب المخمور. بعد وصلة جدلٍ قصيرة بين

ميلاد وزميله البدين الناقم؛ لأنه سوف يتركه وحده في ليلةٍ كهذه، انطلقنا معًا قرب انتصاف الليل. وجدتني معه قي المصعد، تفوح منا رائحة البيرة ولهفة العيال الصغار. من هذه المسافة وتحت ضوءٍ قريبٍ استطعتُ أن أرى لون عينيه العسليتين وحبسة دم متجمّع وعائم كجزيرةٍ صغيرةٍ على بياض عينه اليسرى.

كان قد حجزَ لنا، من خلال زميلٍ له يعمل في الكباريه، مائدةً صغيرةً بالقرب من منصة الرقص. أخذتُ عهدًا على نفسي ألاّ أكشف له عن ميولي مهما كلفني الأمر؛ فقط لكي تستمر هذه الصُحبة البريئة أطول وقتٍ ممكن. كنتُ أعيش الليلة الأخيرة في العام الأسود بكل استهتارٍ وانتشاءٍ، هاربًا من كل شيءٍ، البرنس ودفاتري وعبد العزيز. كأنها ليلتي الأخيرة في الحياة. لم أتناول أي أقراصٍ مهدِّئةٍ يومها استعدادًا لسُكْرٍ بيّنٍ، متشجعًا بهويةٍ زائفةٍ ووهم البدايات الجديدة، ومُوقظًا داخلي ذلك الجني القديم الذي استسلم شهورًا للتخدير.

جذبتُ أنظار العاملين وبعض الروّاد بمجرد أن دخلتُ المكان بهيئتي ومعطفي الثمين وكوفيتي الحمراء، وميلاد يسعى خلفي مثل وصيفٍ يجيد دوره ويعرف حدوده، وعندئذٍ عرفتُ الشخصية التي أريد أن أؤديها هنا لبقية السهرة، الثري الأخرس الباحث عن المتعة، وخاصةً النساء. زجاجة ويسكيّ محترمة، وثلج، وطبق

كبير تزدحم عليه ألوان الفاكهة، وآخر يمتلئُ بالمكسرات والأجبان واللحوم الباردة. ووقفتْ قريبًا من مائدتنا امرأةٌ تقترب من الأربعين، كأنها خرجتْ للتو من فيلمٍ من إنتاج السبعينيات.

رحنا أنا وصاحبي الجديد نعبّ كأس الويسكي تلو الآخر، وسرعان ما تملؤه لنا عفاف هذه كلما فرغ. وأعيننا مثبتةٌ على المسرح الصغير الذي تتغير عليه الراقصات كل نصف ساعةٍ تقريبًا، وبينهنّ فواصل موسيقية بناءً على طلب الزبائن. ومن حين لآخر أختلس نظرةً نحو ميلاد السعيد، وألحظ حبسة الدم المغرية أو شفتيه الرفيعتين وأسنانه الصغيرة المنتظمة من وراء ابتسامةٍ واسعةٍ لاتزول، ولكني أذّكر نفسي بالوعد الذي قطعته على نفسي في المصعد، وأجرعُ المزيد.

لم أعد أتذكّر الآن كثيرًا مما جرى في تلك الليلة، وزعتُ أوراقًا نقديةً كثيرةً، على النساء والفتيات والفرقة الموسيقية. صور وومضات تبزغ للحظةٍ، وسرعان ما تغيب في دوامةٍ متسارعةٍ من الصخب والهذر. أذكر أنني في لحظةٍ ما طلبتُ من الفرقة، بين راقصتين، أي أغنية لفريد الأطرش، كان المطرب سخيفًا ومجروح الصوت، ولكنني استمتعتُ بغنائه كأنه أسطورةٌ في الطرب، وقمتُ فرقصتُ وشددتُ معي ميلاد وراقصته وأمطرته بالأوراق النقدية من الفئات الصغيرة بعد أن فكّت لي عفاف مبلغًا محترمًا.

ما اتحرمش العمر منك يا حبيبي، ولا من نظرة عينيك، عينيك، الحلوة ديّا، الحلوة ديّا.

تهيأ لي للحظاتٍ أنني لمحتُ أبي بين الجالسين على الموائد، ينفث دخان الحشيش، وهو يتابع رقصي ضاحكًا. ثم جلستُ، وأنا ألهث والعرق يتصبب من جسمي كله. انفضّ الجمع مرةً واحدةً، وسمعنا آذان الفجر، وأنا مصرٌّ على مواصلة الشراب، وميلاد يحاول إقناعي بضرورة الذهاب، وبعض العاملين الصغار ينظّفون المكان، ويرفعون المقاعد، ويرموننا بنظراتٍ تعيسةٍ. أفهمته بالإشارات أنني أريد أن نأخذ غرفةً في الفندق لننام، فهاودني. تقيأتُ في حمّام الغرفة طويلًا، وحينما خرجتُ منه رأيتُ ميلاد مستلقيًا على الفراش بثيابه الداخلية. أثارني مرأى كلسونه البُنِّيّ الملتصق بفخذيه القويتين، فجلستُ على حافة الفراش، ومددتُ يدي إلى جسده، ورحتُ أعيثُ فيه. دقيقة واحدة وصحا جافلًا ومُستنفرًا، فأبعدني، ثم نهض، وارتدى ثيابه بسرعةٍ، وهو يتحاشى النظر إليّ، ثم غادر دون كلمة.

كان بدني يغلي بالسخونة، ويتفرز عرقًا رغم برودة الجو، أمسكتُ بريموت التكييف، وخفضتُ درجته لأقصى حدٍّ ممكنٍ، حتى شعرتُ أنني في ثلّاجةٍ حقيقيةٍ. نمتُ فجأةً، واستيقظتُ فجأةً على صداعٍ تدق أجراسه بين صدغيّ، كأنها نفخات الصور يوم

الحشر، وطرقات إحدى عاملات الفندق على الباب، تسألني إن كنتُ سأغادر الآن أم سآخذ ليلةً جديدةً. كانت الغرفة تكاد تتجمّد من البرودة، وأنا عارٍ تمامًا، وجلدي ساخن مع هذا. عطستُ عطسةً كبيرةً، أدركتُ معها أنني أصبتُ بنزلة بردٍ شرّانيةٍ. ببساطةٍ ودون تفكيرٍ أجبتُ سؤال المرأة التي لا أراها قائلًا بصوتٍ مخمورٍ:

هاقوم أمشي حالًا.

لم أنتبه للمعجزة، ثم كررتُ ما قلته لنفسي بصوتٍ خفيض وأنا لا أصدّق، حينما أردتُ أن أنهض لأصفق وأرقص، ارتميتُ على الفِراش مرةً أخرى، وحيطان الغرفة تدور حولي بسرعةٍ جهنميةٍ. بالكاد لبستُ ثيابي، وخرجتُ بسرعةٍ من الفندق، لم أعثرْ على نظارة الشمس في جيوبي، فلم أهتم بإخفاء وجهي. في التاكسي، سمعتُ ليلى مراد تغني، فرحتُ أردد معها غير مبالٍ بابتسامة السائق:

إزّاي بيقولوا الناس عنها دنية أحزان؟ والسحر ده كله عايش منها أشكال وألوان؟

ما إن ارتميتُ على سرير غرفتي في فندق آندريا، حتى غبتُ عن الدنيا لأيامٍ لم أعرف لها عددًا.

(39)

رأيتُ أمي جالسةً وسط نساءٍ كثيراتٍ، يفترشن الأرض من حولها في صالة شقتنا القديمة في عابدين. كنتُ أتخفّى في ركنٍ، كأنني أتلصص عليهنّ، أتابعُ طقسًا يدور بينهنّ كأنه احتفالٌ ما، وسرعان ما اتضح لي أنه سُبوع طفلٍ وليدٍ، عندما ارتفع دق الهون ونثر الملح والسبع حبّات، وفي الوسط كان داخل المنخل لفّة قماش أبيض لا بُدّ أنها تحتوي المولود الجديد. اقتربتُ من مجلسهن دون أن يشعرن بي، وحين صرتُ في مجال أبصارهن، أدركتُ أنني غير مرئيّ، ولم أهتم بذلك، بل كأنه طمأنني بطريقةٍ ما. كل

ما أردتُه أن أختلسَ النظر إلى الطفل؛ ربما لأتيّقن من ظني بأن هذا الاحتفال ليس إلّا سبوعي أنا. لم أرَ شيئًا يبرز من بين لفّات القماش، لا جسدًا ضعيفًا ولا وجهًا مثل وجوه القطط المغمضة الرضيعة، فمددتُ يدي من فوقهنّ، متجاهلًا صياحهن وتوصياتهن له بأن يسمع كلام أمه ويسمع كلام أبيه، كانت مجرد أقمشة بيضاء خفيفة للغاية كأنها الشاش الذي يضمّد الجروح، أو كأنها كفنٌ صغيرٌ للغاية. أصابني هذا بالذعر، فرحتُ أفتّش داخلها بجنون، وكلما فككتُ قماطًا، ظهر من تحته المزيد من الأقمطة الأصغر، كأنها تتوالد من بعضها بعضًا. لا شيء داخلها، صار هذا مؤكدًا، ولن أصل أبدًا إلى النواة الصغيرة الخفية التي يحمونها بكل تلك الأقمشة واللفافات. أردتُ أن أصرخ في النساء المحتفلات، معلنًا الحقيقة، أنه لا يوجد أي شيء في هذا المنخل إلا الهلاهيل، وأنني هُنا بينهن، كبير، رجل تجاوز الأربعين، وأن هذا ليس سبوعي، وأن أمي لم تلد طفلًا غيري، لكنّ صوتي خانني من جديدٍ.

قال البرنس إنه لم يصدّق أذنيه حينما رحتُ أهذي في الحمّى بكلامٍ كثيرٍ، لم أهتمّ بأن أسألهم عنه فيما بعد. في نوبة وعي بما حولي رأيتُ عبد العزيز جالسًا بجانب فِراشي، يضع كمّادات الماء المثلّج على جبيني وبطني. لم ينتظر إذنًا مني ليحضر. لستُ وحدي تمامًا إذنْ، وعندما رأى عدم تحسّن حالتي، حملني على ذراعيه حتى المصعد، ووضعني في سيارته ملفوفًا في بطانيةٍ. قلتُ لنفسي

حينــذاك، بحكمة المرضـــى التي صرتُ خبيرًا بهـــا: لعلّ هذا هو السـِــر، أن يستأنسَ الوحشي فيصيرُ إنسيًا، أن نفلح في نزع مخالبنا أو تقليمهـــا على الأقل، حتى يتسنـــى لنـــا أن نلمس الآخر دون أن نجرحه أو نخيفه. نظرتُ إليه يقود ســـيارته واجمًا وجادًّا، وأنا كتلةٌ هامدةٌ على المقعد الخلفي. خطر لي آنذاك أن داخل كلّ منا وحشٌ، قد يتقطّر بحليب الرحمة في اللحظة المناسبة. أخرجتُ يدي من بين لفّات البطانية، ومســّدتُ على رأس عبد العزيز من الخلف، فابتسم لي في مرآة السيارة، ولمعت عيناه.

أخذني إلى مستشـــفى خاصّ صغيرٍ. أجريتْ لي تحاليل كثيرةٌ، علـــى ســـبيل الاطمئنان، وبقيتُ هنـــاك أكثر من أســـبوع، أتغذّى بالمحاليـــل، وكلّما انتبهتُ، لا أتوقف عن الحديث مع أي شـــخصٍ أمامي، كأنني لازلتُ غير مصدّق اســـتعادتي للنطق. انتبهتُ ذات مرّةٍ لأرى كريمًا مبتســـمًا بغمازتيه المتراقصتين. أمسك يدي غير مكترثٍ للممرضة الواقفة بالقرب منا، وقبّل راحتها.

"ألف ســـلامه عليك يا هنّون، مش قلت لـــك إنك هترجع تتكلم تاني..."

استعدتُ في الحال حلمي القريب به، حينما رأيتُه أمامي كما هو الآن تمامًا. كان في حلمي يبكي، ويقول لي إنه مريض، ولن يشفى إلاّ إذا سار حذاء النهر طول حياته. فتحتُ ذراعيّ، فانحنى عليّ،

واحتضنني. كان متفائلًا مُستبشرًا، وأخبرني بأن إحدى جمعيات حقوق الإنسان تسانده هو ومحمد سكّر وآخرين، معهم أطباء وإخصائيون يعيدون تأهيلهم نفسيًّا، ويهتمون بصحتهم وحياتهم. قال إنه يشعر الآن بأنه يستطيع أن يبدأ كل شيءٍ من جديدٍ. لم أتيقّن من صدقه، ربما كان استبشاره هذا حقيقيًا، أو مجرد حيلة ليهوّن عليّ مرضي وأزمتي. زارني مرةً أخرى بصحبة محمد سكّر، وظلّ صامتًا واجمًا، ربما بسبب تجهّم البرنس في حضورهما. بعد أن ذهبا، نصحني بأن أقطع علاقتي بكل تلك الأشكال التي عرفتها في السجن؛ لكي أطوي هذه الصفحة، وأركّز على الاهتمام بنفْسي وحياتي. لم أجادله، انتبهتُ إلى أنه رغم سنده الذي لا يُعوّض لي ولآخرين ظلّ كما هو، البرنس. انتبهتُ إلى أنه لم يكن بالداخل، معنا، لم يأخذه النعاس على صوت حكايات كريم، ولم ير جمجمة يكلّم أخته هدى غير الموجودة إلّا في دماغه الغائبة بالبرشام. وسط كل النوايا الطيّبة للبرنس والرأفة والكرم، لم يسلم قط من لمسة التعالي وحب السيطرة، كان يستمتع بما ظلّ يفعله من سنين، توجيه الشباب من الحبايب، ورسم مسارات حياتهم، كتعويضٍ وحيدٍ على المكانة التي لم يحظَ بها في دنيا الفن كما حلمَ منذ شبابه. لذلك كلّه، اتفقت مع عبد العزيز على الإقامة معه في شقته المفروشة بعد خروجي من المستشفى؛ إذ لم أعد قادرًا على احتمال حنان البرنس المُلحّ، وكأنني طفلٌ يعاونني على سير خطواتي الأولى.

في ليلتي الأخيرة بفندق آندريا، كانت سهرة خميس معتادة، فحزمتُ حقيبةً كبيرةً، ورصصتُ هذه الدفاتر في حقيبةٍ أخرى صغيرةٍ بمفردها، ثم صعدتُ إلى حديقة السطح، حيث شاهدتُ دراما صغيرةً بين البرنس وآخر عشيقٍ له، وهو ممثلٌ شابٌّ، ساعده البرنس كثيرًا حتى بدأ ينال أدوارًا حقيقية. في سخونة السهرة والشراب، سخرَ البرنس من عشيقه هذا ومن موهبته المحدودة، فانفجر الشاب، وسبّه وذكّره برائحته البشعة ووصفه بالمومياء الحيّة، ثم رحل على الفور وسط صمتٍ حرجٍ حطّ على المكان كله.

بسرعةٍ أرسلتُ أحد العاملين ليجلب العود للبرنس، الذي تظاهر بالتماسك وعدم الاكتراث ووضع همّه كله في الويسكي شاردًا. ناولته العود، وألححتُ عليه أن يغني لي أغنيته القديمة التي لحّنها له أخوه الراحل. تمنّع قليلًا، لكنه وافق في النهاية مؤكدًا أنه سيُغنيها فقط، احتفالًا بي وبتجاوزي الأزمة ورجوعي للدنيا. انبعثت الدندنة من بين أصابعه كأنها ألسنة نيرانٍ مُلوّنة. توقّف لأكثر من مرة حتى ضبط النغمة القديمة، ثم غنّى:

خفيف خفيف يا هوا

أنا الجريح، وانتا الدوا

مهما تفارقني ضحكتي

ترجع لي لمّا نكون سوا

كان صوته متهدجًا مشروخًا، زالت عنه آخر بقايا طلاوته وشجنه، ونسي كلمات الأغنية مرةً أو اثنتين، فغمغم باللحن فقط مُحْرَجًا. أحسستُ، لا أدري لماذا، أنني أسمع منه هذه الأغنية لآخر مرةٍ، بل أسمعه يغني عمومًا لآخر مرةٍ. ما إن أنهاها، حتى احتضن عوده، واستأذننا ليذهب، نهض بصعوبةٍ وقطع بضع خطواتٍ، اكتشف بعدها أنه قد نسي عصاه وقبعته، فعاد ووضع قبعته على رأسه، وأمسك عصاه في يمينه، ثم انحنى لنا في حركةٍ مسرحيةٍ، قبل أن يخطر متأرجحًا قليلًا إلى المصعد، بكتفين متهدلتين وهواء السطح يهزّ طرفي سترته على جانبيه، فيبدو مثل طائرٍ مُهدّدٍ بالانقراض.

قبل أن تكتمل يقظتي في النهار التالي، وبعد أن أعددتُ كل شيءٍ للانتقال مع عبد العزيز، طرق محمد سكّر باب غرفتي وهو في حالة اضطرابٍ واضحٍ. أخذَ يردّدُ كلامًا غير متماسكٍ عن اختفاء كريم بعد أن عرف حقيقة مرضه. طلبتُ منه أن يهدأ ويحكي لي كل شيءٍ من البداية. فهمتُ منه أن تلك الجمعية التي كانت ترعاهما وآخرين، عرضت عليهم إجراء بعض التحاليل الطبية، إذا شاءوا، للتأكّد من عدم إصابتهم بفيروس نقص المناعة المكتسبة. وافقوا ولم تكن نتيجة التحاليل في صالح صديقنا الصغير.

عضني عنكبوتٌ صغيرٌ في قلبي عندما سمعتُ سكّر يقولها:

عرفنا من التحاليل إن كريم مصاب بفيروس الإيدز.

فركتُ جبهتي محاولًا التركيز والتقاط أنفاسي. هناك أنواع سامّةٌ من العناكب أيضًا. انتبهتُ على سكّر يدخلُ في نشيجٍ، وهو يؤكد أنّ كريم في المراحل الأولى للمرض، كما قالوا لهم، وأنه يمكن أن يعيش عيشةً طبيعيةً تمامًا، لو تناول العلاج، واهتم بصحته، وقد أكّدوا له أن العلاج متاحٌ ومجانيٌّ، لكنه جاراهم في كلامهم، وتظاهر بتقبّل الأمر، ثم اختفى فجأةً، أغلق هاتفه ورجع إلى طنطا، وأخذ من عند أمّه بعض الثياب والأشياء، وودّعها قائلًا إنه مسافر ليعمل في إحدى المحافظات. عندما سافر محمد سكّر بصحبة أحد العاملين في الجمعية للبحث عنه، لم يجدا له أثرًا، لكنّ خاله قال لهما إنه سمعَ أنه جُنّ، ويمشي على الترعة في النهار والليل مُكلّمًا نفسه.

اقتربتُ من سُكّر، وربّتُ على كتفه ليهدأ نشيجه، لكنّه انفجر في البكاء أكثر منهارًا، وقال وهو يُنهنه:

كريـــم كان بيحبّـــك قـــوي... وممكن صحته تتدهـــور أكتر لو ماتعالجش... لازم يرجع وياخد باله من نفســـه... علشان... علشان يعيش...

اتفقتُ مع سكّر على لقائه في الصباح التالي بميدان رمسيس؛ لنسافر معًا إلى طنطا. اتصلتُ بعبد العزيز، وحكيتُ له كل شيءٍ،

أخبرته بقراري بضرورة السَّفر للعثور على كريم، وإحضاره معي ولو رغمًا عنه. اتفقنا على اللقاء بعد ساعةٍ، أصرّ على أن نلتقي في الموضع نفسه من ميدان التحرير الذي بدأ فيه هذا الكابوس يوم القبض علينا. ذهبتُ أجرجر حقيبة ثيابي، وعلى كتفي حقيبة دفاتري، ذهبتُ مكشوف الوجه في عز النهار، بلا نظارةٍ سوداء، وبخطواتٍ تتظاهر بالشجاعة. ما إن سرنا معًا إلى سيارته، حتى بادر بمدّ يده، وأمسك أصابعي في كفّه الكبيرة. كان كل شيء ممكنًا في هذه اللحظة.

شُكر وتنويه:

إذا كان بين هذه الصفحات ما يستحق القراءة، فالفضل في هذا لا يعود إلى كاتبها وحده، بل إلى كثيرين ممن وافقوا على لقائه وسرد حكاياتهم له، وآخرين وفّروا له وثائق مهمة خاصة بقضية الكوين بوت. وبالطبع الزملاء الأعزاء الذين قرأوا المخطوطة الأولى، وقدّموا نصائح ثمينة، وأخص منهم بالذكر: ياسر عبد اللطيف، وشريف بكر، وحسن ياغي. دون أن أنكر دور آخرين غيرهم، ممن شجعوني طوال سنوات على مواصلة العمل. ولا بدّ من تأكيد امتناني للصديقين: حسام مصطفى إبراهيم وأحمد عايد.

تبقى ملاحظة أخيرة؛ فمع اعتماد أحداث هذه الرواية على بعض الوقائع الحقيقية والثابتة، فهي في صيغتها النهائية ليست مبنية على تلك الوقائع، إلّا بقدر ما تُشيّد أحلام النوم على مفردات اليقظة، فأطلقتْ لنفسها عنان الخيال لتلعب وتشطح دون أي إحالة مُباشرة إلى شخصيات حقيقية بالمرة؛ لأن محاكاة الواقع غاية مستحيلة وغير منشودة أيضًا.

محمد عبد النبي

كاتب ومترجم مصري، من مواليد 1977، صدرَ له العديد من المجموعات القصصية، كان أحدثها (كما يذهب السيل بقرية نائمة)، الفائزة بجائزة أفضل مجموعة قصصية في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2015، كما حازت روايته الأولى (رجوع الشيخ) على المركز الأول للأدباء الشبان في جائزة ساويرس عام 2013 كما وصلت للقائمة الطويلة في جائزة البوكر للرواية العربية. ترجم العديد من الكتب والأعمال الأدبية، منها روايتان للبريطاني الباكستاني طارق علي، وروايتان للبريطاني من أصل ليبي هشام مطر، والرواية المصوّرة فلسطين للأمريكي جو ساكو. يمارس التدريب على الكتابة الأدبية منذ عام 2009، في ورشة تحت اسم "الحكاية وما فيها"، وصدرَ له مؤخرًا كتاب عن تقنيات الكتابة السردية بالعنوان نفسه.

" ثم يعود المهرج إلى مرآته في نهاية اليوم. أعود إلى غرفتي المغلقة على وحدتي العارية. ربما تمسني كهرباء خفيفةٌ للحظات عابرة، بينما أخلع ثيابي، وأتأهب للنوم قرب الفجر، فأشعر وكأنني صرتُ ماما نفسها، وهي تنزع عنها إكسسوار إحدى شخصياتها. لم أكن هانوشكا في الحقيقة، كان هذا هو الدور المناسب لي، مجرد دور، لا أكثر ولا أقل. ربما اندمجتُ فيه أكثر مما يجب، حتى لم أعد أعرف من هو هاني محفوظ الحقيقي، وكيف أعود إليه عندما أريد. عندي نسخٌ كثيرةٌ منه. صحيحٌ: كلها طبق الأصل، لكنها ليست الأصل، ليست أنا، كلها أقنعةٌ وخلفها لا يوجد أيُّ شيءٍ، فراغٌ مُفزِعٌ، وله لذةٌ ".

أثناء فترة سجنه، يُصابُ هاني محفوظ بخرسٍ طارئٍ، ثم يخرج بعد بضعة أشهر، ليحاول أن يجد موضع قدميه مِن جديد، وأن يستعيد صوته بين دفاتره، حيث يكتب كل يوم، فارضًا على نفسه عزلةً اختياريةً بغرفة فندق، لا يُشاركه إياها غير عنكبوتٍ صغير. يكتبُ متتبعًا صوره القديمة، على أمل العثور على صورةٍ واحدةٍ حقيقية له، يكتب حكاياته الصغيرة مع أهله وميوله الخاصة والأفراح الخاسرة في شوارع الليل، و عن تجربته المُذلّة خلال أشهر سجنه، مُنقبًا عن مغزًى خفيٍّ، وراء كل ذلك، في رحلة لا تتبع خطًا مُستقيمًا، بقدر ما تأخذه في اتجاهاتٍ عديدةٍ، كأنها شبكةُ عنكبوتٍ يغزلها بخيطٍ واحدٍ هو صوته المفقود.

تصميم الغلاف: عمر مصطفى



